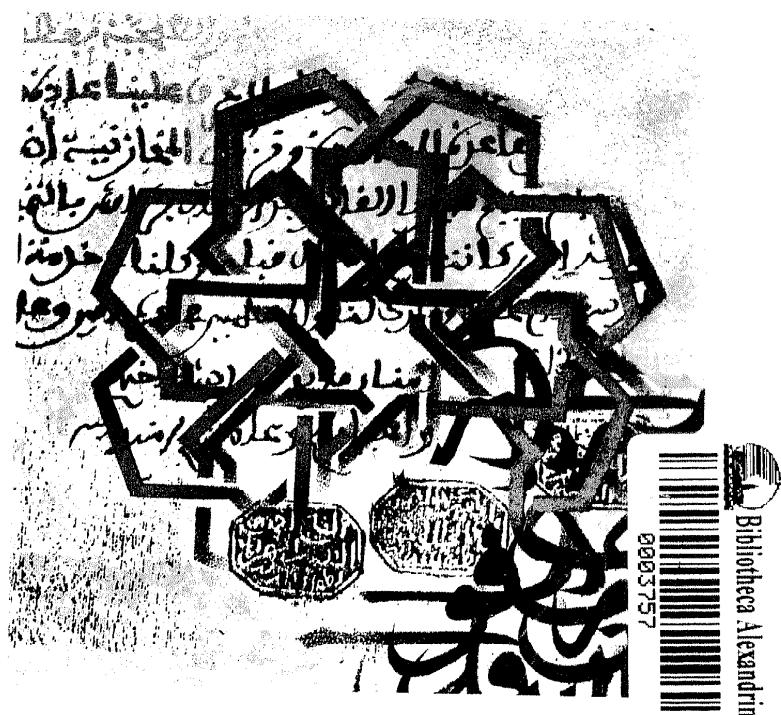


١٢٦٩

براسات في قاربِ المفہوب



أفريقيا الشرق

دراسات
في تاريخ المغرب

© أفريقيا الشرق 1991

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى 1991

رقم الإيداع القانوني : 1991/444

مكتبة زوج

دراسات في تاريخ المغرب



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

▲ فريقيا\الشرق

تقديم

اخترنا هذه المجموعة من الأبحاث لنشرها في جزء أول على أن نقوم بنشر الباقي في جزء ثان . وقد توكينا في اختيارها التنوع .

وهذه الأبحاث قسمان :

- قسم أعد خصيصا لندوات معينة (وطنية ودولية)
- قسم آخر أعد خصيصا لنشره في مجلات مغربية وعربية .

وإن الأمل الكبير أن تفتح هذه المجموعة بعض أبواب البحث وأن تثير فضول الدارسين لمناقشتها وإبداء ملاحظاتهم حولها .

د. محمد رزوق

الدار البيضاء

في 1990/6/20

الفهرس

5	تقديم
7	قضية الرق في تاريخ المغرب
25	الحالية الأندلسية بال المغرب العربي (تونس والجزائر)
71	التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي. تأصيل تاريخي من جذور الدولة العصرية بال المغرب. حاولة بناء الدولة الحديثة خلال القرن التاسع عشر نموذجا
81	العلاقات الغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر العهد السعدي الأول نموذجا
89	دور الكناشات في الكتابات التاريخية الغربية
97	العلاقات العربية الأفريقية في القرن السادس عشر (الوجود الغربي بالسودان الغربي كنموذج)
105	الجهاد البحري في عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين اليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر (التهديد العثماني نموذجا)
119	صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)
129	ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية «المغرب في القرنين 16 و 17 نموذجا»
149	قضية الشعوبية في التاريخ الإسلامي
155	وثائق جديدة عن الحركة الفكرية في العهد السعدي
163	وثائق عن اسرى مغاربة بمالطا واسبانيا
177	

قضية الرق في تاريخ المغرب (*)

مازالت قضية الرق بالمغرب لم تحظ بعد بالعناية الكافية من طرف الباحثين المغاربة والعرب بصفة عامة، مما ترك المجال مفتوحا للدراسات الغربية التي تنظر الى القضية بوجهة نظر أوروبية، أي في النهاية النظر الى تاريخ الرق في المغرب بنفس نظرتها الى تاريخ الرق في أوروبا، في حين أن الاختلاف واضح، ويظهر - على الأقل - على مستويين :

على المستوى السياسي : إن وجود المغرب في إفريقيا الغربية خلال القرن السادس عشر لم يكن أبدا بهدف جلب الرقيق، بل كان هدفه الأساسي حماية تلك المناطق من الغزو الإيبريري، وتوحيد كلمة المسلمين، في حين أن العكس تماما كان بالنسبة للأوروبيين، إذ إنهم عندما خرجوا في حركاتهم الاستعمارية في إفريقيا كان الرق من بين أهم أهدافهم الأساسية، وذلك لتصديره للعالم الجديد.

على المستوى الاجتماعي : تختلف العلاقة بين العبد وسيده في المغرب عن العلاقة بين العبد وسيده في أوروبا. فمعاملة المغاربة للعبد كانت - بصفة عامة - معاملة إنسانية. (1) فقد كان العبد جزءا من العائلة، حتى ان بعض العبيد يذهبون الى حد رفض الحصول على الحرية. (2) كما كان يامكانه أن يصل الى المستوى العلمي لسيده، وربما يفوقه، فقد دعا محمد ابن عبد الكريم المغيلي بعض ممالكه لمناظرة فقهاء فاس حول مسألة اليهود، إذ يذكر ابن عسكر في هذا الصدد : «ولما اختلف الفقهاء عليه تقدم على فاس لأجل المناظرة بحضور السلطان الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي ثم المريني، فلما نزل بظاهرة فاس خرج الفقهاء الى لقائه والسلام عليه، وكان له ستة مماليك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي عن ظواهر قلوبهم، وكلهم فقهاء فلما استقر الجلوس بفقهاء فاس عنده، قال لاحد المماليك، واسمه الفقيه ميمون، تكلم مع الفقهاء في نازلة اليهود...». (3)

أما بالنسبة للأوروبيين فالامر مختلف تماماً، فقد استخدمو الأفارقة للعمل في مزارع قصب السكر بأمريكا وعاملوهم بكل قسوة مما أدى إلى افباء الكثير منهم، كما كان العبد مهمشاً تماماً بالنسبة للعائلة الأوروبية، فلم يكن بإمكانه أبداً أن يتدخل في شؤونها أو يشاركها بعض همومها المعيشية، ناهيك عن السماح له بمستوى معين من التعليم.

وستحاول في عرضنا هذا أن نلم بالنقط الآتية :

- أولاً : دور الأوروبيين في الرق الافريقي .
- ثانياً : الرق في مملكة سنجاي في عهد الاسقفيين .
- ثالثاً : الرق في المغرب خلال العصور الحديثة .

- الرق في العهد الوطاسي .
- الرقيق المغاربة بالبرتغال .
- الرق في العهد السعدي : رقيق السودان الغربي .
- الرق في العهد العلوي : تجربة جيش العبيد .

أولاً : دور الأوروبيين في الرق الافريقي :

تعتبر البرتغال فاتحة صفحة الرق في العصر الحديث رغم أنها كانت تحاول أن تستر وراء عملياتها الشعنة في إفريقيا بعوامل دينية.⁽⁴⁾ وهكذا بدأت تبرز أهمية الساحل الغربي لافريقيا كمورد للرق، وظلت البرتغال تحترم هذه التجارب البشرية لمدة طويلة قبل أن تنافسها فيها هولندا وفرنسا وبريطانيا.⁽⁵⁾ غير أن لشبونة ظلت في هذه الفترة تحتوي على سوق كبير للرقيق يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم.⁽⁶⁾

ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان الرقيق قد أخذ يشحّن إلى أمريكا،⁽⁷⁾ وإلى كوبا في عام 1521، وقد بلغ عدد العبيد الذين يبعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة (سنة 1539) : 10.000 عبد⁽⁸⁾ ومن تم لم تستطع الجهود البرتغالية العادلة أن تسد الطلبات المستمرة المتزايدة للرقيق وبدأ استغلال الأسلحة النارية للقضاء.⁽⁹⁾

لقد كان الرقيق أعلى سلعة اكتشفتها القوى الاستعمارية في إفريقيا وأصبحت هذه السلعة الأساس الذي بنت عليه الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها.⁽¹⁰⁾ وكان الأوروبي لا يناظر بالتوغل في الداخل، فاكتفى بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له العبيد عن طريق الوسطاء ثم يتم نقلهم إلى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برغالية بقصد الاتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مرواسيم من البلاط الملكي البرتغالي باحتكار التجارة في مناطق محدودة من الساحل.⁽¹¹⁾

وقد دخل الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والدانمارك هذا الميدان ليسدوا الطلبات المتزايدة للرقيق اللازم للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا مما أدى إلى وقوع منافسة خطيرة بينهم، غير أن أرباحهم من هذه التجارة وصلت إلى حد خيالي.⁽¹²⁾

وكانت سفن الرقيق البريطانية تقوم برحمة مثلثة، فتنقل المصنوعات الإنجليزية لغرب إفريقيا، حيث تستبدل بالرقيق. ويبلغ عدد ما وصل إلى سنتي (1680 - 1706) إلى الممتلكات البريطانية من الرقيق ما يقرب من مليونين ونصف مليون، وإذا عرفنا أن النظام الذي اتبع ترتب عليه أن ما يصل حيا من هذه السلعة لا يصل إلى النصف، وإذا علمنا أن ما وصل المستعمرات الأوروبية كلها في قرن واحد قدر بـ 40 مليون أفريقي ادركنا أن القارة الأفريقية استنزفت ما يقرب من 80 مليون من أبنائها في هذا الميدان.⁽¹³⁾ وبالبعض يقدر هذا العدد بما لا يقل عن مائة مليون.⁽¹⁴⁾

وخلاصة القول إذا كان الهولنديون يقولون أن مدحthem العظيمة (امستردام) بنيت على عظام الزنوج، فليس بعيداً عن الصواب أن نقول بأن (لشبونة) و(ليفربول) قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمائه.⁽¹⁵⁾

هذا ما يتعلق إذن بدور الأوروبيين في الرق الأفريقي، فلننظر إلى المسألة من الجانب الوطني، أي في النهاية النظر إليها من الداخل، ولنأخذ كمثال مملكة سنغاي، في عهد الأسقفيين، وهي المملكة التي فتحها أحمد المنصور الذهبي كما هو معلوم.

ثانياً : الرق في مملكة سنغاي «في عهد الأسقيين» :

كان العبيد يشكلون الفئة الثالثة في المجتمع ، وكانت تقوم بجميع الأعمال في الحقول والمنازل ، لحساب غيرهم ، ومن هنا يصبح لنا أن نعتبرها طبقة الانتاج الأولى في مملكة سنغاي⁽¹⁷⁾ . وقد تكاثر عدد أفراد هذه الفئة مع الزمن ، حتى أنه يمكن أن نقدر نسبتهم في المجتمع بما يزيد على النصف⁽¹⁸⁾ . وهذه الكثرة جاءت بالدرجة الأولى من الفتح والتتوسيع ، الذي رأته المملكة منذ أيام (سفي علي) ، وتوسعت فيه أكثر منذ أيام الأسقي الحاج محمد الأول ، وكان الفتح لا يتم عن طريق المصالحة ، وإنما يتم عن طريق القهر والغلبة ، وينتهي باسترقاق مناطق بأكملها . فقد بدأ الأسقي الحاج محمد الأول حكمه بأن ورث عقب المعركة التي انتصر فيها على (سفي بارو) ابن علي أربع وعشرين قبيلة بكمال افرادها ذكورا وإناثا⁽¹⁹⁾ وقد يقى هؤلاء طيلة أيام الأسقيا يعملون في الحقول الزراعية لحساب دار السلطنة ، وقسم منهم اختصوا برعاية خيول البايت الحاكم وكان يؤخذ قسم من أولادهم كل عام ، ويباعون في الأسواق وتشترى بثمنهم خيول أخرى ، وقسم منهم وهب للشريف الحسني وأولاده ، فبقوا في خدمتهم طيلة عهد الأسقي . وكان هذا الشريف ورد على (كاو) في أيام الأسقي الحاج محمد الأول ، ويقال إن سبب اعطائه هذه الهمبة ، كان مراعاة لنسبه وقرباته من النبي ، وقد بلغ عدد أفراد هذه الهمبة في البداية ألفا وسبعينا ، ثم تكاثروا فيها بعد⁽²⁰⁾ وحين غزا الأسقي الحاج محمد الأول قبل ذهابه للحج مباشرة منطقة (زاغ) ، اختار من سكانها خلقا كثيرا للاسترقاق ، وكانت هذه المنطقة قد اشتهرت بكثرة البناء بها ، ولذا فقد كان من جملة من استرقهم (خمسيناً بناة ، فذهب بالأربعينات إلى كاو لاستخدامه لنفسه .. مع آلات بنائهم) ، وأعطي أحد آخره وهو عمر كمزاغ مائة بناء ، بعد أن تولى هذا ولاية الأقليم ، وعزم على أن يبقى لنفسه وجنته وموظفيه وأتباعه مدينة تكون مقر عمله هناك⁽²¹⁾ .

ولما ذهب الأسقي الحاج محمد الأول لقضاء مناسك الحج ، بلغ عدد أفراد ركبته ما يزيد على الألف وخمسين شخص ، كان بينهم من غير العبيد والخدم ، أقل من مائة نفر⁽²²⁾ .

وقد كانت البضائع التفيسية يتعامل فيها بالذهب وكانت البضائع المتوفّرة بكثرة يتعامل فيها باللودع ، وكان العبيد من الصنف الثاني يباعون ويُشترون باللودع ، وفي

كثير من الأحيان كانت تجري المبايعات عن طريق المعايضة، وفي هذه الحالة يذكر الحسن الوزان (المعروف بليون الأفريقي) أن ثمن الفرس، كان يساوي أحياناً خمسة عشر عبداً مقابل رأس واحد من الخيل، كما يزيد الحسن الوزان أيضاً أن تغاري كان يعمل في أحواضها العبيد⁽²³⁾، ويذكر ابن بطوطة حين مروره بكاو (في القرن الرابع عشر) أن الفرد كان حين يسیر مسافراً او متقدلاً كان يتبعه عبيده يحملون له امتعته معه⁽²⁴⁾. ومن هذا كله يتضح أن العبيد كانوا يشكلون بعددهم جزءاً كبيراً من الفئة الثالثة، وكانت تقع على كواهلهم معظم الاعمال، ولكنهم كانوا في أدنى درجات السلم الاجتماعي، غير أن هناك ملاحظة أساسية وهي أنه وإن كانت هناك طبقية واضحة في مجتمع سنجاوي فإنها مع ذلك لم تكن ذات حدود مغلقة بحيث لا يستطيع الفرد فيها أن يرقى من طبقة إلى طبقة أخرى، (فعلى فلن) الذي أصبح مستشاراً لا سقايا الحاج محمد الأول وأمين سره كان في البداية عبداً له⁽²⁵⁾. وقد حدث أن أحد ملوك سنجاوي استقبل موكب الحجيج على عادتهم في ذلك وقت يد أحد العبيد الذي كان بينهم، فأراد أحد حراس الملك أن يؤذب العبد الذي مدد يده للاستقبال دون أن يعرف أنه عنده، فكان هذا سبباً في أن الملك اعتق ذلك العبد، واعتق خمسين من قبيلة أمه، ومحسين نفساً من قبيلة أبيه أيضاً وأسقط عنهم جميع وظائف السلطة⁽²⁶⁾. وجاءت عجوز إلى الاستقبال داود تطلب منه أن يبيع أولادها - كانوا عبيداً له - إذا باعهم، إلى مكان واحد، وأن يباعم إذا أراد ذلك، إلى مكان واحد، حتى لا يتفرقوا، فأجابها الملك : «لقد اعتقتم شكرنا لله» وكتب لهم وثيقة بعتقه لهم، شهد بها الحاضرون، وأصبحوا من ذلك الحين أحرازاً⁽²⁷⁾ وكانت درجة العبد أو الخادم الاجتماعية ترتفع بارتفاع درجة مالكه أو مستخدمه، ومن ذلك أن زناجية الشريف الحسني على مولاي أحمد بن عبد الرحمن اقر الاستقبال الحاج بن داود وإلي اقليل تندرون ان يفهمون من جميع وظائف السلطة احتراماً لقامت سيدهم الشريف.⁽²⁸⁾

كما أن عبید الأمراء والسلوة وخدمتهم، كانوا يرتكبون من أنواع الاعتداء والسلط ما لا يجرؤ غيرهم من العبيد والخدم على اتياه، فقد حدث في أيام الاستقبال الحاج محمد الأول أن اعتق جماعة من الدين كان قد استرقهم (سني علي)، وقد جاء في عهد لهم بالعتق : «... ويمسك كل جائز وفاجر جوره من جندنا وقدمنا الجائزين وعيدينا ورسلنا، فلا يقر بصييم ولا بتحمير وتصغير...»⁽²⁹⁾ وعلى عكس ذلك، فإن عبید النساء وخدمتهم لم يكن يحق لهم أن يتجاوزوا حدودهم تحاه عبید

وملوك بقية النبلاء، كما أن عبيد وخدم بقية الأفراد العاديين، لا يجوز لهم أن يأتوا من الأعمال ما يجوز لغيرهم من العبيد أو الخدم الذين يتبعون إلى الطبقات العليا، فقد حدث في عهد السلطان محمد بن عبد الله مخلانا نشب بين نبليين من الأساقفي سببه أن أحد هما سرق عبده ملحة جارية الآخر، وقد رفض صاحب الغلام تسلیمه ليعدبه صاحب الجارية حتى يعترف بذلكه أمامه، فقام صاحب الغلام بهجوم مبالغ على خصميه، وقد تطور هذا الخلاف إلى نزاع بين الأساقفي ففي فيه خلق كثيرون، ووقعت معارك وخلافات أدت إلى اضعافهم جميعا⁽³⁰⁾. هذه هي وضعية العبيد الافارقة بأفريقيا نفسها، فلننظر إلى وضعيتهم في منطقة أخرى، ولنختر أوروبا نفسها التي استرقهم، ولنطلاق من وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال كنموذج.

ثالثا : الرق في المغرب في العصور الحديثة :

الرق في العهد الوطاسي :

عرف المغرب في العهد الوطاسي ازمات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة هزت المجتمع المغربي بعنف⁽³¹⁾ ، وادت به وبالتالي إلى الرضوخ عند اقدام المحتل، إذ عرض المغربي نفسه كضياعة له مقابل لقمة خبز تتجهه من الموت المحقق بسبب الجوع . وتورد المصادر البرتغالية والاسبانية المعاصرة مناظر مروعة لذلك ، مشيرة بتفصيل إلى عمليات البيع والأئنة . ونورد كمثال ما يذكره المؤرخ البرتغالي المعاصر B. Rodrigues عن هذه العمليات الشديدة اذ يقول في هذا الصدد : «مع انتشار المجاعة بدأ المغاربة يأتون بكثرة علينا للحصول على ما يقتاتون به ، وكان يبيع بعضهم بعضا ، فالآب يبيع أبناءه ، والأخ أخوانه . . . وهذا شيء لم ير ويسمع به فقط . . .⁽³²⁾ .

وقد لاحظ أيضا أن النساء كن يعن بسهولة من طرف آباءهن وأخواتهن ، غير ان البرتغاليين كانوا يفضلون شراء المغاربات الجميلات صغيرات السن⁽³³⁾ . أما الرجال فكان يختار منهم الأقوىاء للعمل في الزراعة و مختلف الأشغال الشاقة⁽³⁴⁾ .

ان عدد المغاربة الذي كان يباع كبير جدا ، حتى ان المصادر البرتغالية تعطي ارقاما مرتفعة جدا ، ولم يعد (العبد المغربي) في نظرهم يساوي شيئا .⁽³⁵⁾ ويجري

في هذا الصدد نفس المؤرخ ان أخوين عرضوا عليه نفسيهما، فاشترى أحدهما ودفع الأجر لآخر، وقد قيل له إنذاك بأن الخبر الذي سيأكله هذا المغربي أغلى منه بكثير. ⁽³⁶⁾

وقد استنكر ابن بجيش التازي هذه الوضعية استنكارا شديدا، وصاح في الناس يدعوهم للجهاد «عباد الله، ما هذه الغفلة العظيمة، التي أضحت على القلوب مقيدة؟ وركنت إليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة، أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مستغلون لكل حيلة في نيل الوصول اليكم... ⁽³⁷⁾ . ثم يسترسل في تسجيل هذه الوضعية قائلا : «قد أبدلوا بعد العز والفرج ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والترح حساً ومعنى ، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم عذاب شديد ، وصاروا من جملة الماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغبياءً آمنين ، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين. انهيت أموالهم ، وتغيرت أحواهم ، فرقت عنهم نسائهم ، وأخذت منهم بناتهم ، وصار الكفارة يتنافسون في بيعهم بالأشنان ، وجعلوا يفرقونهم فيسائر البلدان ويريدون ان يفتونهم عن دينهم ، ويفسدون عليهم قوة يقيئهم . ما هذه الغفلة عن إخوانكم يا عشر المسلمين ! » ⁽³⁸⁾ .

يحتوي الارشيف البرتغالي لمحاكم التفتيش الدينية على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمة عدد مهم من المغاربة الذين تم اسرهم أو اختطافهم او بيعهم خلال المجاعات ، وخصوصا خلال مجاعة 1520 ومعلوم ان الجموع ارغمت المغاربي خلال تلك المجاعة على بيع ابناءه قبل بيع نفسه ، ولقد كان العرض كبيرا الى حد انه لم يعد أي شيء أرخص من الانسان . ⁽³⁹⁾ .

وقد كانت التهمة الاساسية الموجهة لهؤلاء العبيد المغاربة هي الرجوع الى الدين الاسلامي بعد ان تم تعبيدهم ، ويتجلى من خلال هذه المحاكمات نوعية الحياة التي كانوا يعيشونها وظروف القهر والمسخ التي مورست عليهم قصد فصلهم عن جذورهم الأولى ⁽⁴⁰⁾ . وكانت أهم جريمة يعاقب عليها هؤلاء هي تحاولتهم الفرار من البرتغال للالتحاق بالمغرب ، فمن بين 229 محضرا من محاضر محاكمة موريسيكي ⁽⁴¹⁾ منطقة لشبونة نجد 150 منها متعلقة بهذه الجريمة (65٪) في حين أن 79 منها (5,34٪) تتعلق بمحاكمات كان فيها التمسك بالاسلام والقيام بطقوس اسلامية ، واذا كان المحققون لا يرون في محاولات العبيد الفرار الا دليلا

قاطعا على ارتباط المورسكيين بدينهم الأصلي وبحرصهم على مغادرة البلاد المسيحية للتمكن من العودة إلى الإسلام والقيام بفرايشه جهراً ودون ادنى مضائقه، فإن قراءة الحاضر تضيفحقيقة مهمة جداً وهي رفض المورسيكي لفكرة الاندماج داخل المجتمع المسيحي والإقامة نهائياً بالبرتغال⁽⁴²⁾. وقد اعترفت مغربية إنها كانت «... تذكر باعتزاز أرضها وتمنى أن تلتحق بها، وإنه إذا ما تم لها ذلك، فإنه لم يكن يمكننا بالنسبة إليها أن تكون مسيحية ولكن مسلمة فقط...»⁽⁴³⁾. واستغل البرتغاليون باستمرار كل خلاف أو سوء فهم مع المورسيكي لتذكيره بأصله ولاهاته، ولم يكن البرتغالي في حاجة إلى مبرر للقيام بذلك، فلقد ذكر (جواد راغو J. Drago) أمام المحكمة أن خدام سيده كانوا يستغلون كل خلاف معه: «... لمناداته بالمسلم القديم، ابن المسلم وابن الكلب...»⁽⁴⁴⁾.

وقد استطاع بعض هؤلاء العبيد الحصول على حريةهم بعد مدة طويلة من العبودية وبعد أداء فدية مهمة أو بعد أن تصدق السيد بذلك قبل وفاته. وكانت هذه الحرية التي يحصل عليها بصورة كبيرة تؤدي في غالبية الأحيان إلى تشتت أفراد الأسرة، ذلك أن تحرير الأم لا يؤدي إلى نفس الشيء بالنسبة لمن انجنته خالد اسرها،⁽⁴⁵⁾ ، وبهذا فقد عد من المورسكيين أبناءهم نهائياً، فالتونسية (مرايا برنالدو Maria Bernaldo) فقدت بنتا عمرها أربع سنوات بيعت بإسبانيا وأخرى أصغر منها بيعت بمكان لم يعين لها⁽⁴⁶⁾ . وكان بعض البرتغاليين الذين كانوا يجرون وراء الحصول على هذه السلعة الثمينة لا يتذمرون في فرض ممارسات جنسية على اسirائهم، لذا نعثر بمحاضر محكم التفتيش الدينية الإشارة إلى ظاهرة غريبة وهي وجود مورسكيين عبيداً لآبائهم⁽⁴⁷⁾ . ووعياً من المورسيكي بما يسببه ذلك الفراق من آلام توقف البعض عن الانجاب لكي لا يعودوا عبيداً⁽⁴⁸⁾ ، ودفع الآباء بآخرين إلى قتل أبنائهم مفضلين ذلك على فقدانهم بالبيع كضياعة أو تركهم وراءهم في حالة فرارهم، فلقد بلغت بمغربية أن: «... ضربت بيتها في بطنه بحجرة لكي تعيتها لأنها كانت تود الفرار إلى بلاد المسلمين ولم تكن تود أن تبقى ابتها أسيرة...»⁽⁴⁹⁾ . لقد كانت قساوة الحياة التي يعيشها هؤلاء العبيد واضحة جداً في محاضر محكم التفتيش البرتغالية، إذ تكثر فيها الإشارات إلى المورسكيين الذين جلدتهم أسيادهم أو حبسوهم أو حرموهم من الطعام لمدة معينة أو الذين كانوا يجوبون شوارع العاصمة وهم مكبّلون بالسلاسل الحديدية⁽⁵⁰⁾ .

هذه وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال، وهي وضعية مزارية كما رأينا، فكيف كان يعيش العبيد بالمغرب خلال نفس الفترة.

الرق في العهد السعدي : رقيق السودان الغربي

فتح السلطان أحمد المنصور الذهبي السودان سنة 1591 ، وقيل الكثير عن هذا الفتح . فقد تحدث بعضهم عن العنف الذي صاحب هذا الفتح ، وتحدث آخرون عن أهداف اقتصادية معينة كانت تحرك هذا العمل . لكن ما يهمنا نحن بقصد هذا الموضوع هو موقع الرقيق من كل ذلك . نعم لقد صح布 المغاربة معهم أثر هذا الفتح امواجا كبيرة من الرقيق اذ يذكر الزياني في هذا الصدد : « . . . فقد ورد عليه محمود باشا عام سبعة وألفا ، واتى معه بعشرة آلاف جارية كلهم في سن البلوغ . . . »⁽⁵¹⁾ مما يدفع بما الى التساؤل عن أصل ذلك ؟

هناك أصول متعددة لهؤلاء الرقيق ، فهناك من كانوا ارقاء بالفعل بالسودان من اسر وأثناء المطاحنات التي كانت تجري بين القبائل السودانية ، وهناك من اسر اثناء المعارك بين المغاربة والسودانيين ، وهناك ارقاء اصلاً بحكم المولد وهم معروفوون . غير ان عملية نقل العبيد الى المغرب لم تكن تجري بدون انحرافات ، فقد كان بعض تجار الرقيق السمايسرة يعممون هذه التجارة على طائفة كبيرة من السودانيين بدون مراعاة لاصولهم الاجتماعية . وقد تعرض احمد بابا السوداني الى جملة من هذه القضايا في رده على تساؤلات في الموضوع لرجال توات ، اذ يذكر في هذا الصدد : « . . . وقولكم : ما تقولون في العبيد المجلوبين من البلاد التي تقرر اسلام اهلها كبلاد برنو وعفون وكترو وجاغو ونحوها ما استفاض اسلامهم ، هل يسوع تملکهم أم لا ؟

فاعلم - وفقنا الله تعالى وإياكم - ان هذه البلاد كما قلتم أهلها مسلمون ، الا عفون ، فلا اعرف أين هي ، ولا سمعت بها ، ولكن يقرب كل البلاد منها بلاد فيها كفرا ، يغير أهل تلك البلاد المسلمين عليهم ، وبعضهم تحت ذمتهم يؤدون خراجا على ما بلغنا ، كما هو مشهور وربما ثقافتان سلاطين هذه البلاد بعضهم على بعض فيتحرّك سلطان هذه البلاد على غيره ويغير على بلاده ، ويسبي ما تيسر له منهم ، وهم مسلمون ، ويباع المسيحي وهو حر مسلم - فإننا لله وانا اليه راجعون - ، وهذا

مستفيض عندهم في بلادهم يغير أهل كشن على كنو وكذا غيرهم ، والستهم واحدة ولغتهم متحدة وحالاتهم متقاربة ، لا يعرف بعضهم من بعض الا هذا مسلم أصلي وهذا كافر أصلي . ومن هذا يتتبّع الحال على من جلبوا اليهم فلا يعرفون حقيقة المجلوب .

وقولكم : المعلوم شرعا ان سبب الرق إنما هو الكفر فمن اشتري كافرا ساغ تملكه والا فلا ، وطروع الاسلام بعد حصول الشرط المذكور غير قادر في استمرار الملك .

جوابه : ان الامر كذلك ، ولكن مع كونه غير معاهد او ذي ذمة ولا بد .

وقولكم : فمن هذه البلاد المذكورة من مسلم السودان ان حصل الاستياء عليهم بالرق حال الكفر واسلامهم ظاريء عنه فلا ضير ام لا ؟

جوابه : انهم اسلموا بلا استياء أحد عليهم كأهل كنو وكشن وبرنوا وسقي ما سمعنا قط ان أحدها استولى عليهم قبل اسلامهم ، ومنهم من هم قدماء في الاسلام كأهل مالي اسلموا في القرن الخامس أو قربه كأهل برنو وسقي .

وقولكم : وكيف ذلك في أهل بربو فانها دار سلطنتكم والآتيا منهم إلينا كثير ، فهل هم ارقاء أم لا ؟

جوابه : انهم مسلمون احرار ، اسلموا قديما ، بيد انه يقرب اطراقهم كفار يغيرون عليهم ، ويكسبونهم وبيعنونهم كما قدمنا . . .

وقولكم : وكذا من لم تعرف بلاده وجهل حاله ، فلم يدر هل تقدم رقه على اسلامه ام لا ؟ فهل يسوغ بيعه وابتاعه من غير بحث ام يجب ام يندب ؟
جوابه : ان تعلم أن سبب الرق الكفر ، وكفار السودان كغيرهم في ذلك من سائر الكفار أو اليهود أو الفرس أو البربر وغيرهم من تبث بقاوئه على كفره دون إسلام كما سيأتي من كلام المدونة آخر هذا الجزء ، فهو دليل بين أن لا فرق بين جميع الكفار في ذلك ، فمن سبي في حال كفره صح تملكه كائنا من كان ، دون من أسلم طوعا ،

ابتداء من جميع الاصناف كأهل «بنو وكتو وضناغي وكشن وكبر ومال» وبعض زكرك، فهم مسلمون احرار لا يجوز تملکهم بوجه...⁽⁵²⁾

كما ان الناصري استنكر هذه الانحرافات في نص له في الموضوع قائلا : «قد تبين لك بما قصصناه عليك من اخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من لدن قديم . وانهم من احسن الامم اسلاما واقومهم ديننا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة ، وهذا الامر شائع في جل مالکهم الموالية للمغرب كما علمت ، وهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق اهل السودان مطلقا وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية ، يسمرون بما كان تسمى الدواب بل أفحش ، قد تماً الناس على ذلك وتواتت عليه أجيالهم حتى صار من العادة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هوأسود اللون مجلوبيا من تلك الناحية ، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين اذ أن أهل السودان قوم مسلمون فلهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولو فرضنا أن من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاسلام فالغالب عليهم اليوم بكثير انها هو الاسلام ، والحكم للغالب ، ولو فرضنا ان لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم من صنف الكفار لا المسلمين . والأصل في نوع الانسان هو الحريمة والخلو عن موجب الاسترقاق ومدعى خلاف الحرية مدعى خلاف الأصل ، ولا ثقة بخبر الجالين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في البايعة مطلقا من الكذب عند بيع سلعهم واطرائهم بما ليس فيها ، وفي باعة الرقيق خصوصا ما أكثر من ذلك كيف ونحن نرى ان الذين يجلبونهم او يتجررون فيهم انها هم من لا أخلاق لهم ولا مرورة ولادين ، والزمان كما علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضا على قول العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك ، فإن البائع لهم قد يضرهم حتى لا يقررون إلا بما يقدم في صحة بيعهم ، وقد يكون للمعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان ، فيهون عليه ان يقر على نفسه بالترقية كي ينفذ بيعه عاجلا إلى غير ذلك من الأغراض وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، وغير بعضهم على بعض وختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقون من الأماكن النائية عن مدا شرهם وعمرانهم فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واحتطاف دواهم ومواشيه

أو سرقها والكل مسلمون، وأما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسرى بإنائهم وفي ذلك ما فيه من الأقدام على فرج مشكوك...»⁽⁵³⁾ هذا عن طريقة جلهم والانحرافات التي كانت تقع أثناء ذلك. أما فيما يتعلق بمعاملاتهم داخل المغرب فلم يتحدث أي مصدر تاريخي أو غيره عن قمع أو اضطهاد أو معاملة سيئة تعرض لها هؤلاء، فقد اندرجوا مع المغاربة وأثروا وتأثروا، إذ يذكر الزياني في هذا الصدد - أبناء العبيد عن وصول العبيد إلى مراكش من السودان - : «... دفع المتصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه، وخدمون معهم ليتدربوا على سفره، والنصف الآخر اغتصبهم السلاح والخيل من جملة الجند، وزوجهم بالجواري كل واحد أعطاه واحدة، فأولئك العبيد هم أصل العبيد جمعهم السلطان إسماعيل...»⁽⁵⁴⁾.

كما استغلت طائفة منهم في مصانع السكر المستحدثة⁽⁵⁵⁾. غير أنه إذا كان الأمر لم يثر أي مشكل في العهد السعدي نظرا لأن هؤلاء ظلوا في مستوى معين مع أسيادهم، فإن العكس تماما بالنسبة لبداية العصر العلوي في عهد السلطان مولاي إسماعيل عندما قرر تكوين جيش منهم (جيش العبيد)، إذ ظهرت أصوات معارضة من بعض فئات المجتمع ذات المصالح والامتيازات. ذلك ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه.

الرق في العهد العلوي : تجربة جيش العبيد⁽⁵⁶⁾

أشار الزياني إلى الظروف التي برزت فيها فكرة جيش عبيد البخاري لدى السلطان مولاي إسماعيل قائلا : «... وللعذر هذا السلطان بجمع العبيد، جعلهم عسكرا، والسبب في ذلك أنه لما كان بمراكش أئمه طالب من أهل مراكش بدفع فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المتصور، فسألهم هل يعرف منهم أحدا؟ فقال : كثيرون بمراكش واحوازها، وإن كلفني سيدتي بجمعهم. فكتب له أمره للعمال يقفون معه في جمع العبيد وأولادهم... ولا رجع من مراكش لكتابة كلف كاته محمد بن العياشي أن يخرج لقبائل الغرب وبني حسن والجبل بجمع العبيد، وكلف عماله بالقبائل أن يشتروا له العبيد...».⁽⁵⁷⁾

وقد أراد السلطان بالفعل أن يبني جيشاً جديداً للدولة المغربية يكون دعامة حقيقة لاستمرار السلطة في الدولة الجديدة، ولكي يتم ذلك توصل إلى أنه يجب تكوين جيشاً بمعزل عن أصناف المجتمع، إذ إن هذا يجعله جيشاً غير مرتبط بأية مجموعة، وبالتالي لا يرتبط إلا بشخص السلطان عن طريق إداء يمين الالحاظ على صحيح الإمام البخاري.⁽⁵⁸⁾ فأصدر السلطان أوامره الصارمة بعد اقتناعه بالفكرة بجمع الأرقاء المروجودين في جميع التراب الوطني، وكان ذلك في سنة 1085/1607 م واستند هذه المهمة إلى أحد كبار أطر حكومته «الباشا عليليش». ونجحت الفكرة في البداية ولكنها لم تعط العدد الكافي لتكون قوة عسكرية كبيرة تحمي الدولة كنظام، وتحافظ على الأمن في جموع التراب الوطني لذلك وسع السلطان المشروع من جمع الأرقاء إلى إدراج عناصر أخرى في نفس النظام، مع ضمان تزويدهم قصد ازيداد عددهم في إطار ارتباطهم الأساسي بالسلطان. مما جعل منهم «مجتمعاً عسكرياً» تحت اشراف السلطان وتوجيهاته الخاصة.⁽⁵⁹⁾

ويظهر من خلال النصوص المتوفرة لدينا عن هذه المؤسسة الجديدة أنها أثارت صجة كبرى في المجتمع المغربي، ودخلت موضوعها في جدل فقهى تارة واجتماعي تارة آخرى.⁽⁶⁰⁾ إلا أن هذا النقاش لم يطرح بحدته على المستويين معاً عندما أمر السلطان بجمع الإناث في سنة 1101 هـ / 1690 م. وهكذا عندما دخلت هذه العملية مرحلة الاماء ظهر أنها أخذت تمثيل الطبقية الاستقراطية سواء في المدن او في مراكز الزوايا في البداية اذ ثارت ضد العملية كلها ثائرة هذه الطبقة، بدليل ان زعماء الشورة على هذا الاجراء ككل، كانوا يتمنون الى نفس الطبقة. وبدلليل آخر ان عملية تكوين «جيش العبيد» «بدأت من حوالي 1088 هـ/1688 ، ولم تظهر عليها أية معارضة. ثم أن مدينة فاس كانت هي الأخيرة التي طولت بتنفيذها وخصوصاً جمع الاماء، وكانت أوساطها العلمية على علم بذلك كله، ولم تساعدها المصادر على أن هذه المدينة وقفت في المعارضة من البداية ولم تظهر معارضتها الا عندما بدأت في فاس بالذات. بالإضافة إلى أن الشورة الفكرية على العملية كلها لم تبدأ إلا في عام 1108 هـ / 1697 م وقد كان رد فعل السلطان عنيفاً على أهل فاس إزاء قوة معارضتهم فقد كتب إلى المدينة رسائل رسمية شديدة اللهجة يو逼هم على موقفهم المعارض من العملية كلها.⁽⁶¹⁾ ونفس الموقف وقفته تطوان التي عارضت في الموضوع بنفس المتعلق الذي استعملته مدينة فاس.⁽⁶²⁾ ويظهر ان فكرة تكوين «جيش العبيد» بهذه الطريقة فكرة مقتبسة بصورة

غير مباشرة من نظام جيش «الانكشارية في الدولة العثمانية»⁽⁶⁴⁾ فقد وضع السلطان لتكوين «الذكور من جيش العبيد» نظاما صارما منذ الطفولة إلى نهاية حياتهم، وخصص لذلك مكانا اختارته استراتيجية الظروف العسكرية آنذاك وهو مشروع الرملة بالقرب من مركز تيفلت وسيدي سليمان حاليا. وأما الإناث فكن يتكونن في القصر الملكي أو في البيوتات الكبرى التي كان أصحابها موظفين للدولة في مختلف التراب الوطني أو البيوتات الاستقرائية بالقصر كله⁽⁶⁵⁾

ويلاحظ أن هذا الجيش لم يكن يدرب عسكريا فقط بل كان يدرب على شؤون الإدارة والقيادة وقد شغل أذكياء وأكابرهم ثقة عند السلطان أعلى وظائف الحكومة سواء في العهد الأساعلي أو بعده.⁽⁶⁶⁾

وبصفة عامة فقد كانت المعاملة الإنسانية هي السمة الغالبة في تعامل المغاربة مع الرقيق، وطلت نفس المعاملة الإنسانية إلى غاية اختفائه تماما من المغرب ، فاثناء زيارة الانجليزي (أرشليريد) للمغرب سنة 1872⁽⁶⁷⁾ لاحظ عن الرق بال المغرب ما يأتي : «إن الغرض منه لم يكن استغلال الإنسان لحمله على إداء أكبر قدر ممكن من العمل - كما كان الهدف بأوروبا وأمريكا في عصر الرق -، فهذا غير معروف في الديانة الإسلامية ، فالعبد أو الأمة في المغرب يتمدح في الأسرة التي تبنيه ، وهو يكاد يعيش في المستوى الذي يتمتع به باقي أفراد هذه الأسرة ، وإذا روعيت قواعد الدين فإن الطفل يرسل إلى المدرسة مع باقي الأطفال ، وهو يتمتع بالتدريس واللباس جيدا ... وهناك أناس يحتللون بعض المراكز السامية بالرغم مما يجري في عروقهم من الدم الناجي . . . »⁽⁶⁸⁾

ويقول في مكان آخر عن المعاملة : «وهم يعاملون معاملة حسنة في هذه البلاد ، وإذا تلقى العبد معاملة سيئة فإن في مستطاعه أن يطلب إعادة بيته بصفة قانونية ، وبحدث في بعض الأحيان أن العبد ينال حريته عن طريق صديق له يشتريه من سيده ، على أن العبد يصبح في كثير من الأحيان شديد الارتباط بسيده على صورة يرخص معها أن ينال حريته . . . »⁽⁶⁹⁾

هكذا رأينا إذن تطور وضعية الرقيق بالمغرب ، فهي وضعية تختلف تماما عن مشيلاتها بأوروبا ، والمعايير المتخذة في أوروبا لتصنيف هؤلاء الرقيق داخل المجتمع لا تصلح تماما بالنسبة للمغرب ، لأن تصنيف المجتمع المغربي تصنيف مرن ، أذ يمكن للعبد ان يترقى إلى مرتبة اجتماعية أعلى أما لعلمه أو مجده أو كفاءاته في ميدان من الميدانين وهو حق مازالت تطالب به شعوب أفريقية الى يومنا هذا داخل أراضيها نفسها.

الهوامش

(*) أعد هذا البحث برسم الدولة التي نظمتها (الأليسكن) بتونس (1985) حول موضوع «الرق بأفريقيا» وقد شر بالجامعة التاريخية المغربية بتونس (1986)، كما أعيد نشره بمجلة البحوث التاريخية لليبيا، العدد 2 لسنة 1986

(١) من المباحثين المعاصرة من يذهب إلى رأي محالف، يذكر على سبيل المثال محمد الناجي اذ يقول في هذا الصدد : «... ويمكن القول في البداية أن القسوة كانت سمة التعامل مع العبد في بعض الأحيان ولأسباب بسيطة، وتبلغ المعاملة أوجها في القسوة حتى تصل إلى القتل ». « حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار »، مقال بمجلة «أبحاث» العدد الأول، يناير / فبراير 1983 الرباط، ص 57

ويقول في مقال آخر : «... لكن اطلاعه على الوثائق المتعلقة بالرق تظهر لنا تكثرة حالة الهروب رغم الاحتياط المحيطة بها، وهذا يمكننا من افتراض سوء معاملة الرنوج، ولا غرابة في ذلك في مجتمع يحكم فيه على هذه الفتنة بالانحطاط فابن خلدون يراها أقرب من الحيوان إلى الإنسان، وقد كان للبرون الأفريقي نفس الرأي في هذا الموضوع، اذ يقول بأن السود هم حيوانات بدون عقل ولا ذكاء ولا تمرية، وليس لهم أي ذمة عن أي شيء كان ويعيشون كحيوانات بدون قواعد وقوانين... ». نفس المصدر ص 58

وويرى الباحث المذكور ذكره لهذه المظاهر السلبية للرق بالغرب بقوله : «لقد رأينا من المفيد أن نضع الأصبع على الطاولة السلبية وذلك لفتح النقاش ». نفس المصدر ص 64

ولا تتفق مع الأستاذ محمد الناجي فيما ذهب إليه، فالنقاش يمكن بطرح أسئلة للنقاش، لا يذكر «مظاهر سلبية للنقاش»، لأنه في هذه الحالة يصبح التوجيه وأوضاعه مادًّا ماضًّا إليه لا يعود أن يكون إشارات عابرة وردت في مصادر معينة وبالتالي لا يمكن الإعتماد عليها وحدها باتنا نقوم الرق في المغرب. moulieras Auguste, le Maroc Inconnu, 2: 63-64 (2)

دودة الناشر، ص 131 (3).

(٤) يقال إن بعض الملائكة البرتغاليين قد اسروا في إحدى رحلاتهم البحرية جماعة من الأفارقة فأخذوهم معهم لتعليمهم مبادئ المسيحية حتى يعودوا لبلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها في أفريقيا لكن اتجهت أذهان البرتغاليين فيما بعد إلى شراء الرقيق الأسود أو خطفهم ثم بيعه للعمل في الرتعال (انظر شفيق الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص 129).

(٥) إلى غاية نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هي التي تون كلًا من أملاكها والأملاك الإسبانية بالرقيق، وأصبح الرقيق عاد الحياة الاقتصادية البرتغالية. (انظر شفيق الجمل نفس المصدر والصفحة) نفس المصدر والصفحة

(٦) أول سحنة انطلاقاً من ساحل عانا وصلت هابي في عام 1510. (7) انظر تشرشن ر. ج ، هاريسون، الاستعمار الحديث (ترجمة دولة احمد صادق ومراجعة محمد السيد غالاب)، ص 70.

(٩) القرن السادس عشر يسميه بعض المؤرخين في أفريقيا عصر البناء.

(١٠) انظر شفيق الجمل، المصدر السابق، ص 130

(١١) نفس المصدر والصفحة.

(١٢) انظر صفحى الدين محمد، أفريقيا بين الدول الاوروبية، ص 79.

(١٣) انظر شفيق الجمل، المصدر السابق، ص 131.

- Garnier Jacqueline BEAUJEN, *Geographie*., 2/39 (14)
- (15) انظر جдан جمال، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص 104.
- (16) انظر حول هذه المملكة الدراسة القيمة التي انجزها الاستاذ عبد القادر زبادية بعنوان «مملكة سنغاي في عهد الاسقين». (17) انظر عبد القادر زبادية، المصدر السابق، ص 120.
- (18) نفس المصدر والصفحة.
- (19) انظر محمود كعت، تاريخ الفاشش، ص 172 - 173.
- (20) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 57.
- (21) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 62.
- (22) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 65.
- (23) انظر وصف افريقيا، 2 : 176
- (24) رحلة ابن بطوطه، ص 83.
- (25) انظر محمود كعت المصدر السابق، ص 60.
- (26) نفس المصدر، ص 111.
- (27) نفس المصدر، ص 102.
- (28) نفس المصدر، ص 123.
- (29) نفس المصدر، ص 73.
- (30) نفس المصدر، ص 133.
- (31) يمكن تلخيص الأرمات في :
- تفكك السلطة المركزية وضعنها
 - الغزو الابري للاراضي المغربية
 - المجاعات، والأمراض، والأوبئة، التقطع.
 - النقص الديمغرافي الخطير الذي كان يعرفه المغرب آنذاك

B. Rosenberger et H. Triki, *Famines et Epidémies Au Maroc in Hesperiis — Tamuda*, Vol. (32)

XIV, Fascicule Unique, 1973, p. 128 Ibid, P 133.

· ملاحظة : انتشرت آنذاك ظاهرة شراء الرق لاجل الفراش (33)

Ibid, P 133

(34)

Ibid, 134

(35)

B. Rosenberger et H. Triki, *Famines et Epidémies Au Maroc, in Hesperiis-Tamuda vol XV*, (36)

Fascicule unique, 1974. P 94

(37) تنبية الهمم العالية، 125

(38) المصدر السابق، ص 126

(39) انظر أحد يوسر بمحضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)، مقال بمجلة «المناهل» المغربية العدد 21 يوليوز 1981، ص. 225.

(40) انظر - مثلا - محضر المحاكمة المقال السابق، ص. 236 - 278.

(41) تivid أن كلمة مورسكي كما تستعمل ساسانيا لا تتطبق على الحالية المورسکية الرتغالية التي ينطبق عليها لفظ افريقي Barbaresco أو تركي Turco فهوؤاء دخلوا البرتغال لأسباب خاصة وفي ظروف خاصة كذلك، في حين أن مورسكي الأندلس جدورهم متصلة هنالك.

(42) انظر أحد يوسر ب، «الحالية المورسکية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين»، مقال بمجلة «المناهل» المغربية ع 24، يوليوز 1982 ، ص. 363 .

(44) المقال السابق، ص 368 .

(45) المقال السابق، ص 371 .

(46) نفس المقال والصفحة .

(47) نفس المقال والصفحة .

(48) نفس المقال والصفحة .

(49) نفس المقال والصفحة .

(50) المقال السابق، ص 373 .

(51) الترجان المغرب، ص 463 .

ملاحظة : يرى Letourneau R أن العدد مبالغ فيه .
أنظر

Extrait de la dynastie saadide, in *Revue de l'occident musulman et de la méditerranée*,

23, 1ère semestre, 1977, P. 53

(52) خطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 478 د. ص. 231 - 232 وانظر ملاحظات حول هذه الفتوى عند :

Zakari Dramani - Issifou, *l'Afrique dans les relations internationales au XVIème siècle*,
pp. 111 - 116.

(53) الاستقصاء، 132 - 131 .

(54) الترجان المغرب ص 364 .

(55) - P Bertier, 1 : *Un Episode de l'Histoire de la canne à sucre* 233 et 242

انظر أيضاً . زراعة قصب السكر وتصنيعه في المغرب القديم مقال بمجلة البحث العلمي الرباط العدد العاشر يناير / أبريل 1967 ، ص 139 - 140 .

(56) حول وثائق حيش عبد البخاري انظر محمد المنوي : المصادر العربية لتاريخ المغرب 1 : 213-211 .

(57) الترجان المغرب ص. 376 .

(58) A Laroui, *Histoire du Maghreb*, P. 254

(59) انظر هاشم العلوي القاسمي مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ص. 32 .

(60) المصدر السابق، ص. 33 .

(61) نفس المصدر والصفحة .

(62) انظر أبي القاسم الزبياني الروضة السليمانية، 101 ، ع. الرحمان ابن زيدان المزع اللطيف، 322 .

(63) انظر محمد داود، تاريخ تطوان 2 : 43-34 .

(64) انظره جب - يرون المجتمع الاسلامي والغرب (ترجمة احمد الرحيم مصطفى)، 1 : 82 .

(65) انظر هاشم العلوي القاسمي ، المصدر السابق ، 34 .

Ch. de la Veronne, *Documents inédits*, O. 44, note : 3

(66) انظر عبد المجيد بن جلون، ص 7 وما بعدها.

(67) المصدر السابق، ص. 123 .

(68) - المصدر السابق، ص. 124 .

(69)

المصادر والمراجع

- الزياني ابن القاسم الترجيال العربي، عن دول المشرق والمغرب مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم 658
- الفشتالي عبد العزيز مnahel al-safha, fi Ahbar al-muluk al-shara' fata-hiqiqat Abd al-Kawn, al-mabta'ah al-mihdiyah bi-tutwan, 1964 .
- البوخصبى أبو يكر أضواء على ابن بخش الشازى ، الدار البيضاء 1976
- المنوبي محمد المصادر العربية لتاريخ المغرب الجزء الأول، الدار البيضاء ، 1983
- ابن جلون عبد العميد جولات في مغرب الامس (1872) الدار البيضاء ، 1974
- الناصري أحد الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى الجزء الخامس ، الدار البيضاء 1955
- ابن عسكر محمد درجة الناشر ... تحقيق محمد حجي الرباط 1976
- كريخال مارمول افريقيا الجزء الأول ترجمة محمد حجي ، محمد زين ، محمد الأحضر ، أحمد التوفيق ، احمد بنجلون ، الرباط ، 1984
- الوزان الحسن بن محمد وصف افريقيا ، جزان ، ترجمة محمد حجي و محمد الأحضر ، الرباط ، 1980 ، 1982
- بوشرب أحد دكالة والاستعمار البرتغالي ، الدار البيضاء ، 1984
- «مختصر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدبلومية» مقال بمجلة المناهل ، الصادرة بالرباط ، عدد 21 ، 278 - 244 ، يوليز 1981 ، ص 354 392
- زبادية عبد القادر «الخلالية المورسکية القيمة بالبرتغال» ، مقال بمجلة المناهل ، العدد 24 ، 1982 ص 64
- مملكة سنناني في عهد الاسقفيين ، الجزائر 1971
- القاسمي الملوي هاشم مقدمة تحقيق كتاب التقط الدرر - بيروت 1981
- بابا احمد معراج الصعود مخطوط المكتبة العامة بالرباط ، 478
- الناجي محمد حول الرقين في المغرب ما قبل الاستعمار مقال بمحلية أبحاث ، العدد الأول ، يناير / فبراير ، 1983 ، الرباط ، ص 55

الجالية الأندلسية بالمغرب العربي (*) **(تونس والجزائر)**

عرف استقرار الجالية الأندلسية بتونس تطولاً متبيناً تبعاً للظروف التاريخية السائدة بالمنطقة، لكن على العموم كان تأثير هذه الجالية قوياً في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد اختلف الدرسون في تقويم الوجود الحضاري الأندلسي بتونس، فبينما اعتبر البعض - وفي جميع الأحوال - عاماً إيجابياً، أقرّ له البعض الآخر ببعض المظاهر السلبية.

أما بالنسبة للجزائر فإن الوجود الأندلسي يبدو فيها ضعيفاً إذا ما حاولنا مقارنته بمثيله في كل من المغرب وتونس ولكننا مع ذلك سنحاول من خلال استقراءنا لمصادر معينة أن نلتمس بعض صوره.

الجالية الأندلسية بتونس :

وردت إشارات عديدة عن الجالية الأندلسية في العهد الحفصي في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، نخص بالذكر منها : الفارسية لابن القنفذ القسطنطيني، وعنوان الدراسة للغربي، وتأريخ الدولتين للزركشي، ورحلة ابن رشيد ووصف إفريقيا للوزان، والروض الباسط لعبد الباسط بن خليل، والمؤنس لابن أبي دينار، بالإضافة إلى ابن خلدون والمقربي في نفع الطيب.

أما الدراسات، فبالإضافة إلى دراسة روبير براشفيك R. Brunschvig حول الحفصيين⁽¹⁾ ودراسات الأستاذ حسن حسيبي عبد الوهاب في كتابه الورقات، ظهرت أخيراً دراستان مهمتان : الأولى للأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة⁽²⁾ ، والثانية للأستاذ محمد الطالبي⁽³⁾ . على أن أهم دراسة للوجود الأندلسي بتونس في العهد الحفصي هي الدراسة الأخيرة للأستاذ محمد الطالبي.

حاول الأستاذ الطالبي في مقاله - السالف الذكر - أن يحمل هذا الوجود الأندلسي من خلال نقطتين أساستين :

النقطة الأولى : (العقلية الانهزامية) التي حملها معهم الأندلسيون إلى تونس

يقول الكاتب في هذا الصدد : « . . . وهكذا استولت على مسلمي الأندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج البصبي المشهور بـ ابن العسال ، حيث يقول :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها الامس الغلط
الشوب ينسلي من اطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سوط⁽⁴⁾

قال ابن العسال هذه الأبيات عند صياغ طليطلة ، وهي ترشح كلها بتلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت السبب العميق وال حقيقي الذي تولدت عنه الأحداث ، تلك الأحداث التي لم تزد على أن تتحقق - على مراحل - التائج الختامي لعقلية الأسرار وما يتبعها من انغماط في زائل اللذات ، والاتهام الفرص قبل دق الجرس . . .⁽⁵⁾

النقطة الثانية : الشعور بالغربة وهم بالأندلس نفسها.

وهي نقطة حاول الأستاذ الطالبي أن يعزز بها النقطة السالفة الذكر إذ يقول : « . . . والذي ينسги التأكيد عليه لإدراك كل ابعاد الهجرة الأندلسيه الاجتماعية والنفسيه ، هو أن مسلمي الأندلس - وهم في أغلبيتهم الساحقة من أبناء البلاد الأصليين . كانوا يشعرون أنهم أجانب ، وأنهم بأرض ليست نارضهم ، حان وقت المطابا لمقارنتها . . . وما يصور أحسن تصوير هذه العقلية ، هو لساعر مجھول يورده المcriي هكذا :

يا أهل أندلس ردوا المعارف فيها في العرض عاريه إلا مردات⁽⁶⁾

هكذا كان القوم يشعرون أنهم استعاروا إلى أجل أرضا غير أرضهم، أو أهم منحوا عارية لا بد أن ترد إلى أصحابها الشرعيين، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها... . وأعاد إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي صرخة ابن العسال :

وقائلة لها : أراك تطيل فكرا
فقلت لها : أفكرا في عقاب
فما في أرض أندلس مقام
وقد دخل البلا من كل باب⁽⁷⁾

ونجد في صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، وتلك الدعوة إلى معاودة السفينة قبل الغرق، فهو لم يدع أهل بلده إلى التكثيل أمام الخطر، وإلى تغيير ما بنفسوهم من أسباب الانقسام والانهزام، حتى يغيروا الوضع، كل ما أسفرت عنه محاسبة النفس، والتفكير في العقاب، هو أنه : فما في أرض أندلس مقام... . ، ويخرج بعد ذلك المؤلف بالنتيجة التالية : «فالهجرة، أي معاودة السفينة الأندلسية و شأنها، قد هيأت لها إذن عقلية انهزامية انتهائية استولت على النفوس منذ قرون. فكان أمراء الأندلس وكبارها يحتسون الكأس حتى الشالة، قبل أن يفوزوا بأنفسهم وبها استطاعوا من أموالهم .

فأول من غادر الأندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها... . »⁽⁸⁾ . هذا إذن هو منطلق الأستاذ الطالبي للدراسة الوجود الأندلسي بتونس، والباحث وإن كان لا يريد أن يدخل معه في تفاصيل أسباب النكبة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي والمركبات الاجتماعية والنفسية التي تولدت عنها - لأن هذا من شأنه أن يخرج بنا عن الإطار المحدد لهذه الفقرة - فإنه مع ذلك يبيع لنفسه أن يطرح على الأستاذ الأسئلة الآتية : كيف تجلت هذه العقلية الانهزامية الانتهائية بتونس؟ هل أثرت العقلية على التونسيين واعتبروا هم أيضاً جدوى من مقاومة (الروم)، وبالتالي يجب البحث عن الهجرة عن بلد أبعد، أم أن الأمر كان عكس ذلك؟ هل اعتبر الأندلسيون غرباء بتونس كما اعتبروا أنفسهم غرباء بالأندلس؟ هل اندمجوا، ما هي التنازلات التي قدمتها كلتا الطائفتين لأجل تحقيق هذا الاندماج؟ لماذا اختار الأندلسيون (بعقليتهم الانهزامية الانتهائية ويشعورهم بالغربة) أرض تونس؟

تلك أسلحة متعددة ولكنها في الواقع متكاملة في الواقع ومن شأن الإحاطة بعضها أن يجعلو كثيرون من الغموض ، لأن من شأن المنهج الوصفي - الذي يأخذ به الكثيرون من الدارسين - أن يزيد الأمر غموضاً وتعقيداً ، وبالتالي يؤدي إلى بروز عدد من المتناقضات ، وسنحاول من خلال استعراضنا لبعض مراحل هذا الوجود والبحث عن مكوناته وأبعاده السياسية والحضارية أن توصل إلىأخذ صورة متكاملة عنه ، يتأتى لنا ذلك مقارنتها بالصورة التي حاولوا استخلاصها بالنسبة للمغرب ، خاصة وأن أوجه الشبه متعددة .

عوامل استقرار الحالية الأندلسية بتونس في العهد الخصي :

- العلاقات الودية بين الأسرة الخصية وأهل الأندلس :

ذلك أن الأسرة الخصية - التي كان مؤسسها أبو محمد عبد الواحد (604- 618 / 1207- 1221) أحد أبطال معركة الأرك - قد استقرت بالأندلس⁽¹⁰⁾ قبل انتقامتها إلى إفريقية ، فكان الخصيون يميلون لأهل الأندلس ويقدرون مواههم لخدمة دولتهم وسياستهم ، فيحسنون بذلك وفادتهم .

- الانهيار الديمغرافي الذي أصاب تونس في هذه الفترة :

فقد تواصل الانهيار الديمغرافي منذ منتصف القرن الرابع عشر ، فكان الوافدون الأندلسيةون - لهذا السبب - يجدون مجالاً واسعاً لاستثمار مواهفهم في قطاعي التجارة والصناعة علىخصوص ، بالإضافة إلى الميدانين الفكري والسياسي .

- الاستقرار النسبي الذي كانت تتمتع به تونس :

كانت تونس تمثل في نظر الأندلسية - في ذلك الحين - الملاذ الأخير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية ، فإليها اتجهت أنظار ابن مردنيش عندما داهنته جيوش أراغون في رمضان سنة 635 هـ / أبريل - ماي 1238 ، فأوفد كتابه ابن الآبار إلى أبي زكريا مستصرخاً ، فأدى له البيعة ، وأشده في حفل سينيته الشهيرة .

⁽¹¹⁾ أدرك تحيلك ، خيل الله ، أندلسا إن السبيل إلى منحاتها درسا

ويضيف الأستاذ محمد الحبيب بن الحوجة إلى ذلك أن الأندلسيين ضاق بهم الأمر بالغرب بسبب الفتن التي كانت تهزه «فاتجه قسم منه إلى المشرق نحو الديار المصرية والشامية والجزائرية، وبقي القسم الآخر وهو كثير بإفريقية وفي البلاد التونسية متوزعاً بين أطراها مستبدلاً بالأهل وبالأوطان أوطاناً. وإلى هذا يشير أبو الحسن حازم القرطاجي في أول قصidته النحوية بقوله :

فتونس تؤنس الأبصار رؤتها
وقنع الأمم الأسماء والأما
وحوة الليل فيها حوة ولما
ترتاد غيشا من الإحسان منسجا
فاصبحت لهم الدنيا بها حلما
والأنس فيها عليهم وفده قدما
منها وقد بوزوا من ظلها حرما

كانوا الصبح فيها ثغر مبسم
فأقبلت نحوها للناس أفسدة
فكلزمهم حضروا في ظل حضرتكم
قد ند فيها الأسى عن أهل أندلس
وأبدلوا جنة من جنة حرموا

كما ينوه بها تم له بإفريقية من أمن وهناء وحظ وذلك في بداية مقصورته حين يقول محدثاً عن مدوحه المستنصر :

فما يقول من يرجيه : متى ؟
مقدم قبل المسؤال جوده
ما بعدها وجود معنى لالي
الاته لم يصلوا إلى الى
ذكرت في قد خلا عيشا حالا
نسكر من خر الصبا من قد صحا
أولت يدي أنسني الأيدي واللهى⁽¹²⁾

جري إلى نهاية الجحود التي
لو لم يوصل أهله الدهر إلى
طابت بالأيام لي حتى لقد
فيما خليلي اسقيني أكؤسا
بلغت أراب المنسى في دولة

- موقف الأندلسيين من الموحدين :

نفض معظم الأندلسيين أيديهم من الموحدين واعتبروهم مسؤلين عن ضياع بلدتهم، لذلك نلوا وجوههم شطر الخصيين مؤملين منهم أن يعملوا على إنقاذهما، ولعل ابن عمرة يعبر عن هذه الفكرة حين يقول من قصيدة يحيث فيها أبا زكرياء الخصي على الاستيلاء على المغرب ويشكر إليه حال الأندلس :

وافاه منك سنا الصباح المسفر
داء ابن داية غير ظهر الأدبر
يكفيه منك تناول بالخنصر
شكوى الهشيم إلى السحاب المطر
في أن تكون مسيحها لا تمري
يزري بقوتها زئير القسور
أبطاله نص الجياد الضمر
يقص العدو من القنا التكسر⁽¹³⁾

والمغرب الأقصى على غسق به
كلمته أنياب الزمان وماشكا
والأمر فيه قد انقضى إلا لقي
ولأرض أندلس إليك بحالها
سقمت بعباد المسيح وأنها
رحاك فيها من أخيه أذوب
وبقوتها يقوى القياس فسق إلى
وأجبر قناة الدين فيها بالذى

ونجد له قصيدة أخرى في مدحه يشيد فيها بأعمال الحفصيين ويهجو الموحدين ،
وفيها كذلك يشير إلى مبايعة سبعة وسبعيناً له فيقول :

رمقت اقلالهم بعين القالي
لم تعد أن ولته وجه موال
منها جواباً كان قبل سؤال
من كان يرغب في النفيس الغالي
بالنقد من نعماك لا بالكالي
من تلك جيداً هو بأسنك حالي⁽¹⁶⁾

وارى البلاد ولا لعا لعارضهم
ودعا بذات البحر⁽¹⁴⁾ داع للهدي
سعد المجيب بها ويا لك باغثها
حسناء أغلى مهرها من لم يزل
وأنتك ضرتها⁽¹⁵⁾ فـكـان صداقها
مدت من الصحراء جيداً إذ رأت

المجرة :

- جالية شرق الأندلس :

بدأت المجرة (الكبرى) إلى إفريقيا الحفصية بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى
خاصة بنسبة (636 هـ / 1238 م) وتخاذل قرارات الطرد ضدهم ، وهكذا هاجرت
جاليات مهمة من شرق الأندلس إلى غرب آسيا أولاً ومن هناك إلى المغرب وإفريقيا
الحفصية بالخصوص ، حيث كنوا جالية متميزة عن غيرها .⁽¹⁷⁾ ويلاحظ أن ابن
خلدون يستعمل في كل الحالات كلمة «جالية» مما يعني أن القدوة لم يكن فردياً ، بل
كان جماعياً .⁽¹⁸⁾

- جالية غرب الأندلس :

تأتي بعد المجموعة الأولى مجموعة أخرى يتحدث عنها ابن خلدون على أنها مجموعة متميزة عنها، وهي جالية غرب الأندلس التي أفرادها المملكة الحفصية بعد ضياع أشبيلية (646 هـ / 1249 م).

ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقرية أكثر من الأولى من طرف أبي زكرياء مؤسس الدولة الحفصية، ومن طرف أبنائه من بعده. فهو يروى لنا أنه «كانت لأهل أشبيلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبينه، منذ ولادته غرب الأندلس⁽¹⁹⁾ وعندما يقص علينا كيف ارتفى ابن الدباغ إلى الحجابة، يضيف : (وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفدى على تونس في جالية أشبيلية سنة ستة وأربعين (وستمائة)، فولد هو بتونس ونشأ بها»⁽²⁰⁾

غير أنها أمام سكوت المصادر عن إعطائنا أرقاماً وإحصائيات لعدد هؤلاء المهاجرين، فإنه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين إلى إفريقيا، لكن الأمر المؤكد أن عددهم كان مرتفعاً وأنهم أموا بالخصوص إفريقياً، إذ يقول ابن خلدون في هذا الصدد : «لما تکالب الطاغية على العدوة، والتهم ثغورها واكتسح سائرها، وأسف إلى قواuderها وأمسارها، أجاز الاعلام وأهل البيوت إلى أرض المغاربة وإفريقيا، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها»⁽²¹⁾

ولم يجز إلى إفريقيا «الاعلام وأهل البيوت»، فقط، بل انتقل إليها أيضاً أقوام بآجعهم، بعدما فشلوا بالغرب الأقصى الذي كان أشد اضطراباً من إفريقيا⁽²²⁾. وهذا ما وقع لأبي الغنم وقومه فلقد حاولوا أولاً الاستقرار بطنجة، لكنهم غادروها سنة 661 هـ / 1263، بعدما قتل غدرًا بنو مرين أميرها يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمданى المعروف بابن الأمين، فعندما يقول ابن خلدون : «انتقل بنوه إلى تونس، ومعهم صهرهم القاضى أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقبوته إلى طنجة أيام الحلاء، فنزلوا بها، وأصهر إليهم بنو الأمين، وارتحلوا معهم إلى تونس»⁽²³⁾.

ملامح التأثير السياسي :

- في الميدان السياسي : أراد أبو زكرياء الأول (625 هـ / 1228 م) أن يستغل (النخبة الأندلسية) ليدعم بها أركان دولته، ويجعل منها أدلة توافق يخفف بها من ضغط شيخ الموحدين . فاصطنهم واستكثر منهم في بلاطه وإدارته وجشه، وأسند لبعضهم أسمى الوظائف فلقد كان الأندلسي الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين المسرى لشئون دولته، وكان أستاذ ابن الآبار، الذي وقد عليه من بلنسية مستنجداً، كتابة علامته، ولقد بلغ عدد الأندلسين ونفوذهم بالإدارة والجيش ببلغا جعل شيخ الموحدين يضيقون بهم ذرعاً⁽²⁴⁾ ، ذلك أن أبو زكرياء حسب عبارة ابن خلدون، كان قد «اصطنع منهم رجالاً، ورتب جنداً كثروا في المراكز وزاحموهم في مراكز الدولة»⁽²⁵⁾ .

فلما ولى المستنصر (647 هـ - 675 هـ / 1249 م - 1277 م) أراد أن يقدم بعض التنازلات (للمشيخة الموحدية)، فأبعد ابن أبي الحسين، وأسند وزارة أبي شخصية موحدية مرموقة، فعين لذلك محمد بن أبي مهدي الهاشمي لكن المشيخة الموحدية لم تتعير ذلك كافياً، فدبر ابن أبي مهدي، بمساعدة مشيخة الموحدين عملية انقلاب ألت في النهاية إلى الفشل، وإلى تدعيم نفوذ الأندلسين فأعاد المستنصر ابن أبي الحسين إلى مكانه واعتمد عليه في تسيير شئون الدولة⁽²⁶⁾ ، وأصبح مثلاً يحتذى لهن بعده⁽²⁷⁾ .

واستفحل هكذا النفوذ الأندلسي في البلاط، فأصبح الأندلسون من «أهل الشورى»⁽²⁸⁾ على قدم المساواة مع الموحدين .

ولعله ليس أدل على ما بلغه الأندلسون من رقعة في المملكة المختصية مما عبّر لأبي الحسين بن سيد الناس . كان أبوه أبو بكر بن سيد الناس «من بيوت أشبيلية، حافظاً لل الحديث، راوية له، ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه»⁽²⁹⁾ ، فقدم إلى تونس عند الجلاء، وأسند إليه التدريس بمدرسة جامع المواء، واتصل أبوه أحمد وأبو الحسن بأبي فارس بن أبي إسحاق . فاما أحمد فقد قتل بسبب ما كان يجاك من الدسائس . وأما أبو الحسين فقد انقطع إلى أبي فارس، ثم بعد مقتل هذا الأخير في حرب الدعي ابن أبي عمارة، التحق بأبي زكرياء بن أبي إسحاق، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 684 / 1285 وإقامة مملكة مستقلة بها، ولعله يحسن أن نورد النصر الكامل الذي خص به ابن خلدون : «قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليه،

وأنه لحق بالأمير أبي زكرياء بتلمسان وأيل في خدمته. فلما استولى الأمير أبو زكرياء على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجایة وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته. وفوض إليه فيها وراء بابه، وأجراه في رئاسته على سنن ابن أبي الحسين، الرئيس قبله في دولة المستنصر، الذي كانوا يتلقنون طرقه، ويتزعون إلى مراميه. بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين، لخلافه جو الدولة ببجایة من مشيخة الموحدين الذي يزاحمه كيما كان ابن أبي الحسين مزاجها بهم.

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجایة، وقام بأمر خدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة، وأقرب من صاحبه مكاناً وسرّاً⁽³⁰⁾. وخلفه ببجایة أبو الحسين أندلسي آخر، هو أبو القاسم بن أبي جبي الذي تمنع بنفسه النفوذ، ودخل في سعایات ومعامرات عديدة⁽³¹⁾. وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولداً، وهو محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، الذي لعب دوراً هاماً في سياسة عصر وولي الحجابه⁽³²⁾. ومن أشهر الأندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضاً عبد الرحمن يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي ، الذي قدم جده محمد من شاطبة مع الحالية. وولي أبو عبد الرحمن بن عمر الحجابه ببجایة ، واستبد بها سنة 715 / 1315 ، «مقتصراً على ذكر السلطات في الخطبة واسمه في سكة»⁽³³⁾ ، إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719 / 1319 نوفمبر - .

هذا كان دور الحالية الأندلسية بتونس وهو دور لا يقل عن الدور الذي ستلعبه حالية سنة 1609 رغم أن الأقلام اتجهت إلى الثانية أكثر من الأولى، دور متزوج فيه السلييات بالإيجابيات إلى حد كبير، وإن كان الوجود الأندلسى بتونس واضحاً فإن السلييات تثير الكثير من نقط الاستفهام : كيف سمح الأندلسيون لأنفسهم أن ينقلوا معهم إلى بلاط الحفصيين دسائس وسعایات بلاطاتهم بالأندلس ، خاصة وأنهم ذاقوا مرارتها وعرفوا كيف آلت بهم إلى السقوط ؟ لماذا لم يحترموا قواعد التركيبة السياسية الخفصة بكل مكوناتها ؟

إن الواقع يبين أن الأندلسيين بتونس - كما حاولوا ذلك في المغرب - حاولوا أن يفرضوا نوعا من الوصاية الحضارية على تونس. فقد كان أهل الأندلس يحتقرن أهل تونس ويزدرون ببلادهم خاصة إذا ما قاسوه ببلاد الأندلس وما كان يسودها من أناقة ورشاقة وترف وظرف، فإذا ما اعتربنا هذا أدركنا أنه ليس من الغريب أن يخاطب ابن الآبار :

طغى بتونس جلف سموه ظلما خليفة⁽³⁴⁾

وقد أظهر ابن الآبار هفواته كشف بها لأعدائه عن مقاتله، فأمر المستنصر «بامتحانه، ثم بقتله عصبا بالرماح»⁽³⁵⁾ (وسط حرم 658 / آخر ديسمبر 1259)، وبحرق شلوه كما احرقت كتبه، ذلك أن ابن الآبار كان يتهم فيما اتهم به بأنه كان يريد الكيد للأسرة الحفصية في شخص الواثق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم⁽³⁶⁾.

هكذا كثرت الدسائس والسعایات بين الأندلسيين والحفصيين من جهة وبين الأندلسيين أنفسهم من جهة أخرى إلى درجة أصبح معها الاحتراز هو العملة السائدة. وقد حاول الأستاذ محمد الطالبي أن يلخص سلبيات هذا الوجود الأندلسي بتونس في الفقرة التالية : «... إن فيها تقدم دلالة كافية على مدى انهاير سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية. فإذا ما استثنينا أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين، فإنه لم يرتفع أي أندلسي من خدم الحفصيين إلى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة. فإننا منها أطلنا مطالعة المصادر والمحاجنا في استنطاقها، فإننا لا نلمس أدنى وعي بالمسؤولية نحو الأمة والدولة. وكذلك مفهوم الأخلاص، فإننا لم نجد ن عشر له على أثر يذكر فالأخلاق، إذا ما توفر، فإنها يكون إخلاصا لشخص أو لعائلة، وهو عندهما، مهما يكن الأمر، لا يحول دون الاخلاص، وإبداع دفائن الذهب في بطن الأرض احتياطا للطواريء، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعایات، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة⁽³⁷⁾.

وقد تحدث الأستاذ الطالبي بعد ذلك على تأثير ذلك على الأمان بالمنطقة قائلاً : «كل هذا يكشف عن شعور قوي بعدم الأمان، تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرواية، كنادل لاحظناها بالأندلس. ولقد كان الأمن حقاً مفقوداً في كل المستويات، في مستوى الأرياف - حيث انتشار الظعن جعل من يزرع لا يأمن أبداً على حصاد ما زرع - وفي مستوى البلاط، حيث سوء الظن، والخيانة، والسعادة، والتعذيب، والقتل، وحرق الاشلاء، ف تكونت عقلية نسجها العنكبوت بخيوط التنجيم والطلسمات»⁽³⁸⁾. ثم انتقل بعد ذلك الأستاذ الطالبي إلى فقدان الوعي السياسي لدى هذه الجالية وكيف أنهم لم يستفيدوا من تجربتهم بوطنهم الأصلي مقارنا كل ذلك بالوضعية التي كانت تسير نحوها أوروبا آنذاك : «لقد قدم الأندلسيون لاجئين بعدما أضاعوا بلادهم وخرجو منكوبين من وطنهم ولقد شاهدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافرها ومحورها استرجاع الوطن السليم كل هذا كان من شأنه - مبدئياً - أن يقضى فيهم الضمائر، ويدعوهם إلى التفكير، وإلى حفظ الهمم، والأعراض عن الخسائس والسفاسف، و يجعل منهم حرب يقظة وإصلاح، بل - لم لا ؟ حزب اعداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة ونحن لا نسجل إلا أن نسجل أنه لم يكن شيء من هذا لقد كان فقدان الوعي كاملاً.

وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحاب الأقلام منهم هو أن يعرضوا ثدياً - بشدي - وإن كان أقل نعومة - وأن يحتلوا من بلاطي تونس وبجاية ما تعودوا احتلاله من بلاطات الأندلس احتلاباً قضى على الحسناء. لقد حمل الأندلسيون في حقائهم المرض الذي منه ماتت الأندلس، فزادوا إفريقياً - في المستوى السياسي - مرضًا على مرضها. كان ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انفجاراً ديمغرافيًا عظيمًا، ومدّا اقتصادياً عارماً، وانطلاقاً نهضة عمّت جميع الميادين، وفي الوقت الذي كان فيه ملوك إسبانيا يضعون الخطط لإعادة المغرب العربي أيضاً إلى حضرة الضرانية وأقل ما يمكن أن يقال في شأن الحالية الأندلسية في هذا الصدد هو أنها لم تكن عاملًا إيجابياً»⁽³⁹⁾.

- في الميدان الفكري : لا نبالغ إذا قلنا إن التأثير الأندلسي كان أبلغ في الميدان الفكري منه في الميدان السياسي، بحيث أن المد المضارعي الأندلسي كان من القوة بحيث أدخل الكثير من التغيير على الساحة الفكرية بتونس .

التعليم الأولي : نلاحظ أن الأندلسيين احتكروه وأدخلوا إليه أساليب تربوية أندلسية، وهذا ما يوضحه ابن خلدون قائلاً : «وأما أهل إفريقيا فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف روایاته وقراءاته، أكثر مما سواه. وعنايتهم بالخطتبع لذلك. وبالجملة، فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولادهم بعد ذلك»⁽⁴⁰⁾ ، وقد أدى ذلك إلى اضمحلال الخط الإفريقي وتعويضه بالخط الأندلسي، إذ ذكر ابن خلدون في هذا الصدد : «... ونسى خطة القيروان والمهدية بنسیان عوائدھما وصنائعھما، وصارت خطوط أهل إفريقيا كلھما على الرسم الأندلسي توسم، وما إليها، لتتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس.

ويقى منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بحوارهم وإيمانها كانوا يعذون على دار الملك بتونس، فصار حظ أهل إفريقيا من أحسن خطوط أهل الأندلس»⁽⁴¹⁾ . إذن فقد عم هذا التأثير مختلف أرجاء البلاد التونسية باستثناء المناطق النائية كبلاد الجريد التي أشار إليها ابن خلدون، وهي بلاد لم تكن تستهوي أندلسي سواحل بلنسية ومرسية وضفاف الوادي الكبير

التعليم العالي : كان التعليم العالي يشهد منافسة بين الأندلسيين وأهل البلاد، نظراً لأن التعليم في هذا المستوى يؤدي في كثير من الأحيان إلى الجاه والتنفيذ والثراء. غير أن المخصوصين كانوا يميلون على العموم إلى المدرسين الأندلسيين لشهرتهم وكفاءتهم واستغلالهم أيضاً في الدعاية لهم، هذا ما وقع - مثلاً - لأبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب وعلماً من أعلام الحديث، إذ أنه لما قدم تونس في حالية اتبليبة، بعددما مكت زماناً بيجاية، استقله المستنصر أحسن استقبال «وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة، عبد جامع الماء، التي أسستها أم الخلاف»⁽⁴²⁾ ، وليس من شك في أن ابن سيد الناس هذا لم يكن، من بين علماء الأندلس الوحيد الذي نال هذه الحظوة وارتقى إلى هذه الوظيفة فإننا نعلم مثلاً أنه قد انتظم في سلك المدرسين أندلسي آخر، هو «الفقيه الحافظ المتقن التاريخي المدرس المحدث أبو العباس أحمد بن محمد القرشي

الغرناتي»، الذي بعدها نزل بجایة، و«انفصل إلى المغرب»، «رجع إلى حاضرة أفريقية ولم ينزل عاكفا على التدريس والتذكير، مشتغلاً بعلم الرواية والتفسير إلى أن مات - رحمه الله»⁽⁴³⁾.

لكن الملاحظة الأساسية هنا أيضاً أنه منها قيل عن المدارس التي أنشأها الحفصيون فإن شاؤها لم يبلغ ما بلغ عند المرينيين، وقد فسر الأستاذ الطالبي⁽⁴⁴⁾ هذا الفرق بكون إقبال الطلبة عليها كان محدوداً بالرغم مما كان يبذل إليهم من منح أحياناً جلبهم إليها⁽⁴⁵⁾. لكن لم يوضح لماذا كان إقبال الطلبة محدوداً؟ إلا يمكن أن يكون السبب هو النفوذ الذي كان يتمتع به الأندلسيون ونظرتهم الخاصة إلى أبناء البلد، في حين أنه بالغرب كانت المدارس المرينية مسيرة من طرف أبناء البلد وبالتالي لم تكن أية عقدة تفصل الطلبة عن أساتذتهم.

ومهما يكن فإن عدد علماء الأندلس بتونس كان مرتفعاً واسعاعهم كان قوياً، فلقد أحصى محمد الحبيب بن الخوجة، اعتناداً بالخصوص على رحلة ابن رشيد، ما لا يقل عن 35 عالماً أندلسيّاً⁽⁴⁶⁾ كلهم دخلوا إفريقياً في القرن 13 / 7 ، وأحصى الأستاذ الطالبي⁽⁴⁷⁾ في عنوان الدراسة للغوري (توفي 704/1304) في نفس الفترة الزمنية، 33 من مشايخ الأندلس من مر بجایة أو استقر بها نهائياً. مصادين التأثير :

النحو : احتل فيه الأندلسيون مكان الصدارة، وقد بزغ فيه على الخصوص :

* أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي، المعروف بابن عصفور وهو أشبيلي (ولد سنة 597/1201 وتوفي بتونس سنة 669/1270)، ومن تأليفه : المغرب والممتن في الاشتقاد، والمغرب في النحو⁽⁴⁸⁾.

* أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلبي (691 - 1216 / 1282)، أخذ عن السلوبيين والأعلم البطليوسى وابن لب، وترك تأليف كثيرة من بينها وشي الحلل الذي تعقبه حازم⁽⁴⁹⁾.

* ومنهم الإمام الناقد واللغوي الشاعر أبو الحسن حازم القرطاجي المولود سنة 608/1211 والمتوفى سنة 684/1285، صاحب المقصورة والميمية النحوية وكتاب القوافي ومنهاج البلاغة وسراج الأدباء⁽⁵⁰⁾.

الأدب : انتقل إلى تونس في هذه الفترة جمع من مشاهير الأدباء والشعراء نذكر من بينهم على الخصوص :

* أبو الحسن عيسى بن أبي محمد بن الحسين ابن دسيم البلنسي المولود سنة 615 / 1218 والمتوفى بتونس سنة 692 / 1283⁽⁵¹⁾.

* وأبو الحسن علي بن أبي القاسم بن زرين المولد بمدرسية، انتقل أولاً إلى سبتة تم إجل بجایة ومنها إلى تونس وأخذ عن ابن نبیل وابن أبي السداد.

* ومنهم أبو العباس أحد بن القاسم بن القصیر الاشبيلي، وهو المعروف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي وبالخصوص مع الوزير ابن أبي الحسين العنسي. له في المستنصر ورجال دولته المدائح الكثيرة⁽⁵²⁾.

* ومنهم الشيخ الكاتب الأديب أبو إسحاق بن حبي⁽⁵⁴⁾.

* ومنهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد 610 / 1286 - 685 / 1213 ، صاحب القدح، والمغرب في حل المغارب، والغصون اليائعة في شعراء المائة السابعة⁽⁵⁵⁾.

* وأبو الحجاج يوسف بن محمد البیاسی (توفي بتونس سنة الله 653 هـ / 1255 م)، صنف بتونس 1248 / 646 كتاب الحماسة⁽⁵⁶⁾.

* كما نبع بتونس في القرن 9 / 15 ، شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير، الذي قدم من مالقة سنة 864 / 1459 - 1460 ، ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفي 899 / 1494)⁽⁵⁷⁾.

غير أن للأستاذ الطالبي رأي في الموضوع إذ يقول : «غير أنه ينبغي أن تؤكد أن هؤلاء الأدباء والشعراء، على نسبتهم في زمانهم وحذفهم في محسنات البديع، لم يقدموا في الحقيقة بجديد، ولم يجذبوا في البلاد نهضة أدبية. ذلك أن الحضارة الإسلامية - العربية قد انزلقت في منحدر الانحطاط في كامل الاصناف، وقدرت روح الابتكار، وغادرها الاهام، وسلبت القوة، فأصبح القوم يتبارون في تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الأقدمين، ويصوغون تحفًا أنيقة رشيقه من محatar الألفاظ غير أنها تحف ترن بالفراغ، وزاهية بالأملق، لالب وراءها ولا طائل، كان الأدب في الرسائل المنمقة، وما يخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا، أدب انحطاط باتم معنى الكلمة، فيه عنوبة الأحلام، وتعاريض الأوهام، وجنة المخدرات. أدب خاصة ترفل في دمقس الألفاظ وحريرها، أو برجوازية أنيقة

بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها، تعيش في جميع الميادين - الاقتصادية منها والفكرية - على رصيد الماضي، فلا تخلق، ولا تبتكر، ولا تغامر، ولا تتغزو أسوافاً جديدة لبضاعة تلبي الرغبات الحيوية، وتغذى النشاط، وتفرض نفسها كما وكيفاً. كان الأدب مرأة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزولت في دفء ترائتها فلا تنشط إلا بمقدار»⁽⁵⁸⁾.

العلوم البحتة والتجريبية :

الطب : سبق أن رأينا أن ميدان الطب احتكره الأندلسيون بالمغرب، والأمر لا يختلف هنا بالنسبة لتونس، فقد تولى زمام قيادة هذا العلم جملة من أطباء الأندلس، ويكتفي أن نلقي مثلاً نظرة على عنوان الدرائية لتأكد من ذلك، ومن بين هؤلاء نذكر :

*) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس (ت 1372/674 - 1373)، يقول عنه الغربني : «... من أهل مرسيه ورد على بجاية في عشر السنين وستمائة مستوطنا، وتبسط للطب طيباً باحثاً جيداً...». وكان - رحمه الله - متولياً لطب الولاية ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها، ورحل إلى حاضرة إفريقيا باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر له بعد أن سمع به وعرف خبره. فحضر مجلسه وسئل فأجاب ووافق طريق الصواب، وانتظم في سلك أطبائه، وكان من جملة جلسائه ...»⁽⁵⁹⁾. وانجب ابن اندراس ابنه، هو أبو يعقوب يوسف (ت بتونس 739/1329)، فبرع أيضاً في الطب.

*) أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة⁽⁶⁰⁾.

*) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخزرجي الشاطبي (ت 631/1252)، تولى غير مرة القضاء إذ يقول الغربني في هذا الصدد : «... تخطط بخطة القضاء في غير ما بلد، وكان أبوه قاضياً وبيتهم بيت علم وقضاء وتوارث سؤدد، ثم قضى ببجاية فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء والعقلاء... ثم انصرف عن بجاية فولى قضاء حاضرة إفريقيا، فكان له فيها الظهور في أحكامه...»⁽⁶¹⁾. ويمكن أن نذكر أيضاً محمد بن عيشون، طبيب ابن اللحياني، وأبا الحجاج يوسف، وكلاهما أندلسيان.

علم النبات :

نذكر أبا العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية المولود سنة 1171/567 ، والذي أقام بعد إقامته مدة بتونس عاد إلى أشبيلية ومات بها سنة 1239/637⁽⁶³⁾ .

وابن البيطار الذي ورد على تونس من مالقة ، له مؤلفات عديدة ، وتتابع طريقه نحو الشرق فتوفي بدمشق سنة 1248/646⁽⁶⁴⁾ .

الرياضيات :

أهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في هذه الفترة هو القلمصادي أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي (توفي بناحية إفريقيا سنة 891/1486)⁽⁶⁵⁾ . بلغت مؤلفاته في الحساب 13 كتابا⁽⁶⁶⁾ ، ألف البعض منها في تونس مثل : «كتشف الجلباب عن علم الحساب»⁽⁶⁷⁾ ، «القانون في الحساب» (كراسة) وشرحه وكتابه «الكليات في الفرائض» وشرحه في نحو أربعة كراسيس⁽⁶⁸⁾ . وقد كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب⁽⁶⁹⁾ الإسلامي في العصر الوسيط .

العلوم الشرعية :

برع الأندلسيون كما هو معلوم أيضاً في العلوم الشرعية ، وقد كانت ضرورية بالنسبة لهم نظراً للفزع الدائم الذي كان يلازمهم خوفاً من ضياع هذا العلم نتيجة التكالب المسيحي على الأراضي الإسلامية . لقد كان العجز المادي وأوضاعه فكان على علماء الشريعة إذن أن يمتحن الناس على الاهتمام بأمور دينهم ، خاصة وأنهم كانوا يربطون جديلاً بين ضياع العلوم الشرعية وضياع الأندلس ، أي أن المسلمين فقدوا الأندلس حيثما أصبحوا يجهلون تطبيق هذه العلوم ، فلا غرابة إذن أن تأتي هذه الفئة من الجالية الأندلسية وهي تحمل معها أفكار محددة لثلا تكرر مأساة الأندلس بتونس .

وثمة ملاحظة أهم وهي أن أفراد هذه الفئة من الجالية الأندلسية سوف تحاول دائمًا أن تظهر بمظهر الورع والصلاح ، وذلك حتى تلغى الصورة التي ألهها سكان

دائماً أن تظهر بمظهر الورع والصلاح، وذلك حتى تلغى الصورة التي ألفها سكان إفريقية عن شعراً وأدباء الأندلس وأئمهم السبب في ضياعها، أي أنهم ي يريدون أن يثبتوا أن هناك أصواتاً كانت تنادي بضرورة الانحدار والجهاد لاسترجاع التغور، فلا غرابة إذن أن نجد عدداً من تولوا منصب القضاء - مثلاً - ذهباً إلى حد التطبيق الصارم لقواعد الشريعة الإسلامية، مما جعل العامة تتعلق بهم وتضرب بهم المثل في إخلاصهم.

هناك ملاحظة أخرى نعزز بها ما أوردنا سابقاً وهي أن المصادر المعاصرة كثيرة ما تحلى أفراد هذه الفئة بكلمة «الصوفي الصالح» مما يدعونا للتساؤل عن سبب تكرار هذه الصورة بالنسبة لهذه الفتنة؟ يرجع ذلك في نظرنا إلى المركبات التي حملوها معهم من الأندلس والتي أثبتت - بالنسبة لهم - ألا جدوى في المغامرة في الحياة العملية وأن من الأفضل العزوف عن كل ما من شأنه يجعلها وجهها لوجه مع الواقع هذه الحياة خوفاً من تكرار التجربة. وهكذا كما قلنا ذلك سابقاً عكس الفتنة الأولى تماماً، فقد كانت تكون من كتاب وأدباء وشعراء من سخروا بكل إمكانياتهم لتكرار التجربة بتونس بمحاسن كبير مما أدى بها إلى الدخول في صراع مرير مع الأهالي انتهى في أحياناً كثيرة بنكبات وما سي على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وعلى كل فسنعرض جملة من هؤلاء دون الدخول في التفاصيل، إذ المقصود فقط هو إعطاء نبذة لأفراد هذه الفتنة.

فمن القراء نذكر :

* أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عتاب الحذامي ، وهو من أهل شاطبة ، ولد بها سنة 1216/613 . وقد أخذ عن جماعة من العلماء قبل وفاته على تونس لقيهم على التوالي بشاطبة وغرناطة ومراكش⁽⁷⁰⁾ .

* أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الانصاري البطري : كان مقرئاً للقرآن واسع الرواية⁽⁷¹⁾ .

* أبو العباس أحمد بن محمد بن لمب الانصاري المرسي⁽⁷²⁾ .

* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الانصاري الأوسي الشاطبي ، ولد سنة 635/1237 أخذ عن كثير من شيوخ الأندلس والمغرب .

ومن الرواة المحدثين :

*) أبو الكرم محمد بن إبراهيم بن محمد الحميري ، ولد سنة 618 هـ ببلنسية ، أخذ عن ابن حمز وعن الحافظ الناقد ابن عسکر المالقي⁽⁷³⁾ .

*) أبو التفci صالح بن محمد بن سليمان البلنسي عرف بابن شوتين وأصله من طرطوشة⁽⁷⁴⁾ .

*) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي ، قال عنه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة : «الشيخ الصوفي الراهن .. أحد الصلحاء الفضلاء الأولياء الاتقياء شاع بين الناس فضلته وعرفوا قدره بالرغم عن خوله وتواضعه»⁽⁷⁵⁾ وهو من أهل بلنسة كان مولده بها عام 10/61213 ، أخذ عن الكلاعي وغيره من علماء المشرق والمغرب .

*) أبو عبد الحق ابن بربطة الأزدي المولود بمرسية حوالي 580/1184 والمتأثر بتونس سنة 661/1262 . أخذ عن ابن المرأة وابن عات والكلاعي وهو الذي ترأس الوفد الملكي الذي قدم إلى تونس سنة 657/1258 مبادعا المستنصر أمير المؤمنين إذ يقول ابن القتفي في هذا الصدد : «وفي هذه السنة (657) وصلت بيعة أهل مكة للمستنصر على يدي الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين ، وكان الواسل بها المحدث الرواية أبو محمد بن بربطة الأزدي الأشبيلي ، وكان في ذلك هناك كبير»⁽⁷⁶⁾ .

ومن المخاطط الفقهاء نذكر .

*) أبو عبد الله ابن الآبار المار الذكر

*) أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن جيش اللخمي ، المولود بمرسية سنة 615/1218 والمتأثر بتونس 685/1268 أخذ عن ابن الولى والرف وابن حمز والوزير سهل بن مالك وابن السفاد وغيرهم ولي قضاء مرسية ، وتنقل بين كثير من مدن الأندلس والمغرب هاجر أولا إلى بجاية ومنها انتقل إلى تونس ، وولى بها القضاء⁽⁷⁷⁾ .

*) أبو البركات موسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد القمجمي ولد بمرسية سنة 610/1213 ، وتوفي بتونس سنة 684/1285⁽⁷⁸⁾ .

*) أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز البلنسي الخزرجي ، ولد ببلنسية سنة 609/1212 وتوفي بتونس سنة 693/1294 ، أخذ عن ابن حمز وابن عميرة والكلاعي وابن السراج وغيرهم . وقد اتخذ لنفسه في بيته مجلسا للتحديث والاقراء فأخذ عنه الكثير منهم : أبو الحسن التيجاني والغربي وابن جابر الوادي

آشي ، وكان مقربا من السلطان إذ قال تعنه ابن القنفذ في هذا الصدد : « . . . وكان ابن الغماز من سعداء الفقهاء ، على أنه لم يقتصر به المستنصر على القضاء بل ناط به أشغالا سلطانية ، وكان ينظر له في كثير من الأمور»⁽⁷⁹⁾ .

ومن الفقهاء المحدثين نذكر :

*) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الأشبيلي المعروف بابن سيد الناس المتوفى بتونس سنة 659 / 1258 - 659 / 1261 . أخذ عنه ابن خروف وابن جير وغيرهما من العلماء وعنه ابن الزبير وابن يكر ، وكان أيضا من جلساء المستنصر ، إذ يقول ابن القن念佛 في هذا الصدد : «وفي هذه السنة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس ، وكان المستنصر رتب لجاليسته أعلاما من الفقهاء والأدباء كالمحدث الحافظ أبو بكر بن سيد الناس المذكور - رحمه الله . . . »⁽⁸⁰⁾ .

* * *

هذه بصفة عامة أهم التأثيرات التي أحدها الأندلسيون في الميدان الفكري والعلمي ، وهي تأثيرات كانت تزداد قوة أو ضعفا حسب الظرفية السائدة آنذاك ، تأثيرات حاول بعض الدارسين أن يوازن بين سلبيتها وإيجابياتها ، فغلب بعضهم الأولى على الثانية ، وغلب البعض الآخر الثانية على الأولى . فالذين قالوا بالأولى اعتمدوا بالخصوص على المكونات النفسية والعقلية التي أقر بها الأندلسيون (الانهزامية والانتهازية) ، والذين قالوا بالثانية أخذوا بالجانب الامع من الوحدة الأندلسية بالغرب العربي ألا وهو ميدان الفنون بمعناه الواسع ، إذ يعتمدون على استمرارية التأثير بالنسبة لهذا الميدان سواء في البناء أو اللباس أو الموسيقى .

وبالنسبة للموسيقى - مثلا - نلاحظ أن التأثير كان أعمق وأخلد مما يدعوه للبحث عن مراحل هذا التأثير.

فممن لهم اليد الطولى في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى تونس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي (460 - 529 / 1067 - 1134) ، ذلك أنه هاجر أشبيلية حوالي سنة 489 / 1096 ، أي بعد سقوط طليطلة ، واتجه أولا نحو الإسكندرية قبل أن يستقر بالمهدية ، حيث لقي في البلاط الزيري أحسن قبول ، وبث الألحان

الأندلسية ويروى لنا ذلك المقرى فيكتب : «وكان أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين . وله في ذلك توأليف شهد بفضلها ومعرفته . وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية قال ابن سعيد وإليه نسب إلى الآن»⁽⁸¹⁾ . وقد لعب أبو الصلت بإفريقية دوراً شبهاً بذلك الذي لعبه من قبل زرياب بالأندلس⁽⁸²⁾ .

وعندما قدمت أفواج اللاجئين هياكل للألحان الأندلسية قاعدة أوسع ، فخرجت بها من البلاط إلى بيوتات الخواص وإلى الفنادق البورجوازية عامة ، ذلك أن هذه الفنادق البورجوازية الأفريقية كانت شديدة الاعجاب بالحضارة الأندلسية وكانت تقلدتها في الأدب والشعر ، فزادت إلى ذلك الموسيقى لما تهافت لها الفرص على أوسع نطاق⁽⁸³⁾ .

وشاع الفن الموسيقي الأندلسي خاصة في المدن التي استقر بها الأندلسيون استقراراً كثيفاً ، وجل تلك المدن على السواحل . ومن مجلة هذه المدن بجاية التي كانت المرحلة الأولى التي نزل بها الأندلسيون اللاجئون إلى إفريقية ، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنهما نهائياً كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان الدراسة للغوري . ونحن لا نشك في أن استيطان الأندلسيين الكثيف بجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه أشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها إلى الطرب ، فإن الحسن الوزان الذي زار إفريقية في الربيع الأول من القرن السادس عشر يصف أهلها هكذا : «والبيجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص ، لا سيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد»⁽⁸⁴⁾ ، ويقول في أهل دلس : «وهؤلاء السكان ذوي شاشة ومرح ، يحسنون تقريباً كلهم العزف على العود والقيثار»⁽⁸⁵⁾ . فكل هذه الصفات تناسب تماماً الأندلسيين ومن تأثر بعادتهم وأدواتهم من أهل المغرب .

إن هذه الموسيقى التي طرقت باب إفريقية على يد أبي الصلت (توفي 529 / 1134) ، وذاعت في أيام ابن سعيد (610 - 685 / 1213 - 1286) ، وعمت شيئاً فشيئاً المدن لما وفر لها اللاجئون الأندلسيون من أسباب الانتشار هي ما نسميه اليوم بالملوّف .

في الميدان الاجتماعي :

إن الحالية الأندلسية بتونس - كمثيلتها بالمغرب - كانت تشعر بوجود خصائص معينة حضارية واجتماعية تفصلها عن بقية السكان مما حال دون انتشارها في مجتمع الأفريقي. لقد كانوا يشعرون أنهم في بلد انتقلوا إليه اضطراراً لا اختياراً، وأنهم في مجتمع أقل منهم تحضرًا، وأنهم يجب أن يحصلوا فيه على الرتب العليا في سلمه، وهذا ما يفسر لتهافهم على المناصب وبقاءهم أقلية متميزة لها سيادتها الخاصة، لقد عرفت تونس - كباقي البلدان الإسلامية - أقليات، لكن الأقلية الأندلسية كان لتصورها طابع خاص يميزها كلية عن الأقليات الأخرى، وذلك بفعل المركبات النفيضة والحضارية التي حملها معهم الأندلسيون لقد احتفظ هؤلاء بذاتيهم بعد مرور عشرات السنين من هجرتهم، فبقاء أندلسيين في كل شيء، وليس فقط في أسمائهم التي استمر تداولها إلى يومنا هذا شعورياً ولا شعورياً.

ويستنتج كل ذلك بسهولة ما أورده المؤرخون المعاصرون، فنذكر - مثلاً - أن عبد الباسط بن خليل أورد في كتابه باسم في حوادث العمر والتراجم إشارات عديدة إلى ذلك، فلقد نزل هذا الرحالة المصري بتونس في 22 ذو القعدة 866/18 غشت 1462، أي بعد قرنين من قدوم جالية شرق الأندلس ثم غربها، وقبل هجرة جالية غرناطة التي لم تسقط بعد. وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن، التي تعاقبت خلالها ثانية أجيال، فإنه قد أتيحت لعبد الباسط الفرصة كي يلاحظ أن العنصر الأندلسي قد احتفظ بذاته وكل ميزاته بإفريقية وسحل لنا تلك الملاحظات في الروض باسم. أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه يوم الأحد 27 ربيع الأول 867/20 دجنبر 1462 التاجر المعظم، الخواجا المكرم، الحاج أبو القاسم البنيوي الغرناطي الأندلسي، نزيل تونس وكبير التجار بها⁽⁸⁶⁾. ولا شك - كما يفهم من السياق وتاريخ الحصول - أن هذا التاجر أقام «الضيافة» بمناسبة رجوع الحبيب من مكة، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الأصدقاء، ولا شك أيضاً أنه كان ذا ثروة طائلة، ومتزلاً اجتماعية رفيعة، إذ قد أقام حفله بحدائقه «رأس الطابية» من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرجهم⁽⁸⁷⁾. ولا حاجة إلى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأنى إلا لأشخاص خواص، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التي اسْتَطاعَةَ أن تحرزُ عليها الحالية الأندلسية في المجتمع الأفريقي. ولقد استدعاي الحاج أبو القاسم البنيوي إلى حفله الذي أقامه بمنزه الحفصيين - بينما كان السلطان

المتوكل على الله عثمان (839 - 1435 / 893 - 1488) قد أشرف على العودة إلى تونس قادما من حرب تلمسان - «جامعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج منهم، من أهل الأندلس وغيرهم»⁽⁸⁸⁾. كان إذن هناك «أهل الأندلس»، معروفة بسياهم، وهناك غيرهم. ولقد أعجب عبد الباسط خاصة بأهل الأندلس، أعجب بظرفهم وذكائهم، مما دعاه أن يعد اليوم الذي قضاه معهم «يوما معدودا من الأعما، سالما من الأغيار، اجتمع فيه عدة من ظراء أهل الأندلس وأعيانها، من طلبة علم وتجار، كلهم أهل ذكاء»⁽⁸⁹⁾. ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الأندلس كانوا يمثلون أغليمة المدعوين إلى الحفل، مما يؤكّد ما قدمته من أن الجالية الأندلسية بقيت، بعد تعاقب ثمانية أجيال، عائلة كبرى لم تعرف صلات الرحم التي تربط بين أفرادها الفتور. ويظهر هذا (الاعتزاز الأندلسي) أيضاً في أسلوب الحفل الذي أقامه الحاج أبو القاسم البيولي لأصدقائه. ذلك أن هذا الحفل كان «أندلسيّا». كان أندلسيّا في اختيار حديقة «يجول فيها الماء جولانا غريباً»، ونحن نعلم مدى شغف أهل الأندلس بالطبيعة، وبالليلة الباردة، وبموسيقى النسيم. وكان الحفل أيضاً أندلسيّا في المأكل التي قدمت للمدعوين. فعبد الباسط يروي أنهم «هيأوا من جلة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مأكلي الأندلس». وصفته جبن طرى يدعك بالأيدي حتى يصير في قوام عجين الزلايبة بهذه البلاد أو أغاظ قواما منه بيسير، تم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وش باقة، ثم يجعل عليها قطعة من الجن المدعوك ويجمع حتى يصير الجن حشاها، ثم يبسط قليلا، ثم يلتقي في الطاجن وهو على النار بالدهن، فينقى، ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعماً ومعه اليشير من الكمون، وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض الجماعة من ظرائفهم وحيث كان القوم (ظراء أذكياء) لم يخل حفلهم من أستاذ للشعر، لاسيما وقد حضره شاعران أندلسيان، وهما محمد الحير الملاقي وأحمد الخلوف.

في الميدان الاقتصادي :

تعتمدنا أن نترك الميدان الاقتصادي إلى الآخرين، لأن التأثير الأندلسي كان فيه ضعيفاً، ولكن فقط لأن الوثائق تعوزنا كثيراً في هذا الميدان، فالمتصادر لا تثير إلا لما لها هذا التأثير، وكما قال الأستاذ الطالبي : «فنحن نتوjosn هذا التأثير من دون أن تستطيع أن تلمس لمساً حسياً ومفصلاً مقداره وزنه، أو تحدد بدقة مواطنه»⁽⁹⁰⁾. وسنحاول أن نبني بعض الملاحظات علنا نستطيع أن نأخذ صورة تقريبية عن هذا التأثير الاقتصادي.

الللاحظة الأولى : كانت تونس في هذه الفترة تعرف فراغاً ديمغرافياً، ولاشك أن قدوة أيدي عاملة جديدة ساهمت في إعادة التوازن إلى اقتصاد المنطقة، نعم لا نعرف حجم هذا الفراغ الديمغرافي ولا الميادين التي تأثر بها، كما أنها لا نعرف حجم الهجرة الأندلسية ولا نوعية الأيدي العاملة التي أتت مع المهاجرين، ولا الامكانيات التي أتوا بها معهم، لكننا مع ذلك نتسق مع منطق الأشياء نفترض مساهمة هؤلاء في إعادة التوازن خاصة وأن التجربة المولالية والتي ستدرس بعذارة من طرف الباحثين تؤيد وجهة نظرنا.

الللاحظة الثانية : رأينا أن فئة من هؤلاء المهاجرين كانت تبحث عن سبل الارتزاق أما بالانخراط في صفوف الجيش أو في خدمة البلاط أو الاستغلال بالتعليم فأين ذهب باقي الفئات، خاصة وأننا نعلم مدى براعة الأندلسين في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وبعد أن ثبتت الدراسات التي أنجرت حول الموضوع ما المحننا إليه.

لقد ثبت أن عدداً من الأندلسين استقروا بالمناطق الشمالية الساحلية الآمنة حيث تعدد المجاري المائية، لا نفترض أن هؤلاء استقروا أساساً قرب المناطق الزراعية لأجل استغلال خبرتهم في الزراعة، واستقرارهم مدة طويلة بالمنطقة يدل على تقبل السكان لهم. كما ثبت أن عدداً منها استقر منهم بالمدن الكبرى، بمحاجة وتونس على الخصوص - لا نفترض أيضاً أن هؤلاء اشتغلوا بعدد من الصناعات وطوروها خاصة وأن الأفارقة كانت تستهويهم متطلبات الحضارة الأندلسية.

الللاحظة الثالثة : نصل أخيراً إلى الميدان الذي بدأت تسعفنا فيه - إلى حد ما - المصادر، لا وهو ميدان التجارة، وربما برع فيه الأندلسون أكثر من غيرهم، خاصة التجارة الخارجية إذ إن خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم لأن يلعبوا الدور الخامس فيها، وقد أورتنا - سابقاً - نصاً لعبد الباسط بن خليل يشير فيه إلى الثروة الطائلة التي حصل عليها الحاج أبو القاسم، البيبولي وإلى وصوله إلى رتبة كرتبة «كبير التجار» مما يدل على أن ميدان التجارة هيمن، عليه الأندلسون. وخاصة وأن هؤلاء كانوا «منظمين» في إطار (جماعات)، ففي إشارة للغوري يوضح فيها أن أباً بكر محمد بن حمز ((ت 655/1257)) :

«كان على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية»⁽⁹¹⁾ ، ولا شك أن نجاحها يرجع إلى تنظيماتها ، وهي تنظيمات سبق أن تعودوا عليها وهم بالأندلس .

* * *

هذه بصفة عامة أهم الميادين التي بُرِزَ فيها التأثير الأندلسي ، وهي ميادين تنوع فيها حجم هذا التأثير ، فقد بدا واضحاً في بعضها وغامضاً في آخرها . لكن على العموم نستطيع أن تسجل في الهاية - نهاية هذا البحث عن الجالية الأندلسية بتونس - أن تأثيرها كان قوياً ، وأنه لا يقل عن تأثير الهجرة الثانية التي سُوفَ تأتي بعد الطرد النهائي سنة 1609 - أي الهجرة المورسکية - بل يتتجاوزه في ميدان السياسة والثقافة ، فالدور الذي لعبه أندلسيو هذه الفترة يفوق بكثير الدور الذي سيلعبه مورسكيو القرن السابع عشر ، لسببٍ وحيدٍ وأساسيٍ وهو أن هؤلاء كانوا يجهلون العربية - لغة التخاطب الثقافي والسياسي - وهو جهلٌ يتتجاوز الحدود اللغوية ، إلى جهل بالحضارة العربية الإسلامية ككل ، وذلك بفعل الدراسات الطويلة والعنيفة التي مورست عليهم وهم بإسبانيا ، والتي كانت ترمي أساساً إلى إدماجهم في المجتمع الإسباني بسياته الأوروبية المسيحية

هذا ما يتعلق إذن بالتجربة الأندلسية بتونس ، وقد آثروا أن نقدمها على التجربة الأندلسية بالجزائر نظراً لأهمية الأولى وغموض الثانية فالتجربة الأندلسية بالجزائر في العصر الوسيط تبدو بسيطة إذا ما قورنت بمتطلباتها في كل من المغرب وتونس ، ولكن مع ذلك سنحاول أن نعطي حوالها بعض الإيضاحات حتى نستطيع أن نصل إلى الأسباب التي جعلت التجربة الأندلسية بالجزائر بهذا الشكل .

الجالية الأندلسية بالجزائر :

إن الوجود الأندلسي بالجزائر في العصر الوسيط يبدو صعيفاً إذنما قورن بمتطلبه في كل من المغرب وتونس ، فالعقائد التي صاحبت الوجود الأندلسى في القطرين الآخرين تكاد تخفي تماماً ، إذ ان الجزائر في الحقيقة في هذه الفترة لم تكن إلا ملحاً من فشل في إحدى القطرين ، أو كمحطة انتقال من قطر لأخر⁽⁹²⁾ . ولعل ذلك يرجع أساساً إلى أن الامارة الزيانية نفسها لم تستطع أن توفر ل نفسها المجال الجغرافي

الضروري لحياتها، إذ أن جزءاً كبيراً من الشرق الجزائري (قسطنطينية، وعنابة، وبجاية، وسكيكدة، وتقرت) كان تحت نفوذ الحفصيين، واكتفت هي بالجزء بالغربي من الجزائر متاخنة كقاعدة لها تلمسان، في حين الوسط الجزائري منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، مما أهله لأن يكون منطقة صراع دائم بين القوتين، خاصة بعد ظهور إمارات محلية صغيرة^(٩٣). ولم يكن التناقض مقتضاً على الزيانيين والحفصيين، بل تدخل المرينيون في اللعبة أيضاً، تارة ضد الزيانيين المجاورين، وتارة ضد الحفصيين فقد وصلت جيوش المرينيين - كما هو معلوم - إلى تونس والزاب وقسطنطينية، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدينة ومليانة وتلمسان^(٩٤). وقد لخص الحسن الوزان هذه الوضعية قائلاً : «وقد استقر الملك في بني زيان تلاتمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، - أي بي مرين - الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصدر ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو العرار إلى المغارب عند جيراهم الأعراش، وتعرضوا أحياناً أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس (يعني الحفصيين...)»^(٩٥).

وقد كانه لكل ذلك نتائج خطيرة على جميع الأصعدة، فعلى الصعيد السياسي حرمت هذه الوضعية الإمارة الزيانية من البروز كإمارة مستقرة تتمتع بالاحترام اللازم من طرف جيراها (يتعلّق القضاء على عدد من أطر الدولة)، وعلى الصعيد البشري حرمت الإمارة من قاعدتها البشرية الأساسية (يتعلّق هجرة السكان إلى القطرين المجاورين)، وعلى الصعيد الاقتصادي أدت إلى الضعف المستمر للقاعدة الاقتصادية المزيلة أصلاً (يتعلّق الاعتماد على التجارة مع السودان، وعلى التجارة مع الخارج انطلاقاً من وهران التي كانت تتمتع بشيء استقلال ذاتي)، فأمام هذه الصورة، إذن، كان الأندلسيون يفضلون الاستقرار بمكان يستطيعون فيه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والاقتصادية ويسخالون من خلال استعراضنا للفصول هذه الصورة أن نلقي بعض الضوء على هذا الوجود الأندلسي بالجزائر، آملين أن نلمس من خلال استعراضنا بعض مراحل تطورها بعض الضوابط التي كانت تحكم في سلوك الأندلسيين بهذه المنطقة.

أولاً : الصورة إلى غاية القرن السابع الهجري :

تبدأ الصورة في الجزائر بنفس الصورة - تقريباً - التي انتدأت بها في المغرب.

ذلك أن الخلافة الأموية بقرطبة كانت تبحث لها عن قاعدة (أندلسية) تقف بها في وجه المخططات الفاطمية، فكان أن وجدت وهران.

تجديد عمران مدينة وهران :

يابعاً من قرطبة⁽⁹⁶⁾ جدد تعمير المدينة سنة 290 هـ / 903 م⁽⁷⁹⁾ من طرف أندلسيين، هما : محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، وجماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران، وذلك بمساعدة العشائر المحلية القرية منها كنفرة ومسفن من إزداجة⁽⁹⁸⁾.

وهناك ثلاثة عوامل - على الأقل - دفعت هذه الجالية الأندلسية لتجديد تعمير المدينة.

١ - عامل طبيعي : توفر المدينة على مرفاً طبيعياً هاماً يجعل السفن يمكنها عن العواصف، ويساعد على رسوها، ويقول ابن حوقل في هذا الصدد :

«... ولدينه وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلاً في جميع نواحي البربر - سوى مرسى موسى - فقد اكتفته الجبال ولله مدخل أمن...»⁽⁹⁹⁾.

- توفر المدينة على سهول واسعة خصبة مع توفر المياه العذبة بها، وذلك ما أكدته الأدريسي قائلاً : «... وشرب أهلها من وادٍ يجري إليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها موجود...»⁽¹⁰⁰⁾.

٢ - عامل تجاري : كانت الجالية الأندلسية ترمي بهذا العمل إلى ضمان منفذ تجاري للبضائع الأندلسية داخل القطر الجزائري والسودان، وكذلك تصدير البضائع الجزائرية والسودانية إلى الأندلس، يقول ابن حوقل في هذا الصدد :

«... وهي (وهران) فرضة (محط السفن) الأندلس، إليها ترد السلع، وهنها يحملون الغلال...»⁽¹⁰¹⁾، ويقول الأدريسي أيضاً في هذا الصدد : «... وبها (وهران) أسواق مقدرة وصنائع كثيرة، وتجارة نافقة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس، وسعة البحر بينهما محياناً... ومراتب الأندلس إليها مختلطة...»⁽¹⁰²⁾.

هذا، إذن، ما يتعلّق بالوجه الأول للصورة (الناحية السياسية والاقتصادية)، فكيف يبدو الوجه الثاني للصورة (الناحية الاجتماعية والعلمية)؟ اجتماعياً: إذ ما حاولنا أن ننطلق من الصورة التي يرسمها لنا الوزان عن الحياة الاجتماعية في تلمسان - مثلاً - وكيف يقارنها بمثيلتها بفاس فإننا لنا نجد عناه كثيراً في استجلاء معاملها إذ نجد بصفة عامة أن تلمسان ظلت محافظة على طابعها المغربي الأصيل، فهو يذكر - مثلاً - في مجال العمارة: «إن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس»⁽¹⁰⁹⁾، كما يذكر في مجال التصرفات المعاشرة للسكان أن سكان تلمسان أكثر سخاءً من سكان فاس⁽¹¹⁰⁾. وواضح أن الفرق بين المدينتين يرجع بالأساس إلى الأساليب العمرانية والمعاشية الجديدة التي دخلت مع الأندلسيين إلى فاس⁽¹¹¹⁾.

علمياً: لا تختلف الصورة هنا عن ساقتها أيضاً، فقد ظلت الجزائر في هذه الفترة بمنأى عن المؤثرات الأندلسية التي رأيناها بالنسبة للمغرب وتونس، وظلت تتراجع باستمرار بفعل الأوضاع التي أوضحتها سابقاً، ويكتفي أن نلقي نظرة على ما كتبه العبدري - وقد زار المنطقة - لتأكيد من ذلك، فقد كتب عن تلمسان عند زيارته لها ما يأتي: «... وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضط أنهاره فازدحم على الشهداد... وأما الفقه عندهم فطول الأغتراب...»⁽¹¹²⁾، ويقول عن مليانة: «... وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية...»⁽¹¹³⁾، ويدرك عن الجزائر: «... فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب. وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة. وأديب يؤنس غرية فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاؤل تحصيل ببعض الأنونق»⁽¹¹⁴⁾.

قد يتساءل البعض لماذا هذا الرابط الجديدي بين انعدام المؤثرات الأندلسية ودخول النشاط العلمي بالمنطقة؟

إن الباحث لا يزعم أبداً أن أي ازدهار علمي بالمنطقة كان رهيناً بقدوم (العلم الأندلسي) إليها، لكن حاولنا أن نبين فقط أنه كان بالإمكان أن تكون الصورة مغايرة تماماً لما رأيناها في حالة ما إذا لو استقرت شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة، فقد رأينا الدور العلمي الذي لعبه الأندلسيون في كل من المغرب وتونس.

كيف تجلّى الصورة في القرن الثامن الهجري :

الملاحظة الأساسية هنا أن صورة التأثير الأندلسي ستبدو واضحة أكثر نتيجة استقبال الإمارة الزيانية بحالات أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد من الشغور الأندلسية وانتظاظ الساحتين المغربية والتونسية بالأندلسين، فجدوا في البحث عن (أماكن شاغرة) لاشتمار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في القطر المجاور.

وقد ذهب جورج مارسي⁽¹¹⁵⁾ G. Marçais وراشيل أريي⁽¹¹⁶⁾ R. Arié بقصد الحديث عنه التأثيرات الأندلسية التسرية إلى مملكة بني عبد الواد - إلى أن بلاط تلمسان فقد - في بداية القرن الثالث عشر الميلادي تحت حكم أبي حمو موسى الأول - طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي .

وتطرق الأستاذة راشيل أريي بعد ذلك إلى التأثير في المجال السياسي فأوضحت أن أربعة من وزراء الأمير الزياني كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلة ابن الملاح من قرطبة)، وأن أكبر أمير زيري (أبو حمو موسى الثاني) كان ذا ثقافة أندلسية، وأنه كان يختار مساعديه الرئيسيين من بين أفراد حاشيته الأندلسية، وذكرت في هذا المجال يحيى بن خلدون (من أصل أشبيلي)، ومحمد بن يوسف القبيسي الأندلسي الذي خلد الأحداث الكبرى التي شهدتها عصر الأمير الزياني.⁽¹¹⁷⁾

كما أن وليام مارسي W. Marçais لاحظ أن الاشعار المتداولة إلى بداية القرن العشرين من طرف فتيات تلمسان تذكّرنا في نسقها بالرجل الأندلسي⁽¹¹⁸⁾ .

وقد تعمد الباحث إبراد أقوال الباحثين الفرنسيين حتى نتمكن من إبداء ملاحظاتنا حول ما أورده .

الملاحظة الأولى : ذهبت الأستاذة آريي - ومعها مارسي - إلى أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي ، ولكنها لم تذكر مجالات هذا التأثير، فهل يكفي أن يحيط الأمير الزياني نفسه بأربعة وزراء أندلسين وبشاعر أندلسي لتنسب

إلى الجالية الأندلسية بالجزائر ما سمته (بالعمل التحضرىي) L'action civilisatrice⁽¹¹⁹⁾ ، معرضة عن الدور المغربي بتلمسان وما قام به ملوك بني مرين هناك .

الملاحظة الثانية : لقد حاول جورج مارسي أن يستخلص - من خلال اشعار معينة قال عنها أنها ذات نسق أندلسي - نتائج بعيدة قد تؤدي إلى عكس ما هدف إليه الباحث الفرنسي .

نعم ان الرواية الشفوية في هذا المجال أسلوب من الأساليب التي لا غنى للباحث عنها، لأنها تمكنا من تفسير بعض القضايا التي نعثر عليها في الوثائق المكتوبة. لكن يجب الحذر في مثل هذه الحالة قبل الأدمام على أي استنتاج من شأنه تشويه الحقائق، فالاشعار - مثلا - التي لاحظ الأستاذ مارسي أن فتيات تلمسان ينشدونها، اشعار مر عليها وقت طوبل ولاشك أن هناك تغيرات قد دخلت عليهما بفعل الاحتكاك بالمؤثرات الداخلية والخارجية والأمر يتطلب هنا تسجيل هذه الاشعار ومقارنتها بنصوص زجلية أندلسية مكتوبة حتى تتمكن من تحديد درجة التأثير. وحتى ان تأكينا من حصول هذا التأثير، فإن هذا - في نظرنا - لا يدعو أن يكون جزئية صغيرة لا تسمح لنا بإصدار أي حكم عام من مظاهر حضارية أندلسية في كل من المغرب وتونس .

الملاحظة الثالثة : ان الأستاذة أربى لم تستطع أن ثبت وجود أقلية أندلسية متباشكة، لها تأثيرها السياسي والاقتصادي المعين . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المصادر المعاصرة نفسها لم تشر إلى وجود مثل هذه الأقلية، ذلك أن أفراد هذه الجالية يتعاملون فرادى مع السلطة. ان التجربة الأندلسية بالجزائر لم تستطع أن تنفذ إلى الأعمق - كما وقع بالنسبة للمغرب وتونس - لأن أفراد هذه الأقلية لم يجدوا قاعدة أندلسية قوية يرتكزون عليها، فكان بذلك دورهم محدودا .

الجزائر من خلال الكتابات الأندلسية :

لعل الصورة تبدو جلية أكثر إذا ما حولنا تبع ما كتبه الأندلسيون الذين زاروا المنطقة ، وهم أما أوضحاو رأيهم في كتاباتهم أو أعرضوا عن ذلك . والتفسير في مثل

هذه الحالة الأخيرة يتحمل أكثر من معنى وسختار - لإبراز نوعية هذه الكتابات - ثلاثة شخصيات لا تخفي أهميتها.

أولاً : إبراهيم بن الحاج التميري .

قام برحلة سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ - ١٣٥٥ وزار خلاطها تلمسان ومليانة ،^(١٢٠) ولكنه لم يذكر أي شيء مهم عنها فلم يذكر - مثلاً - أنه التقى بشخصيات أندلسية معينة أو سمع بها، مما يدل أن المنطقة لم تكن - في رأيه - المكان الملائم له ، في حين أفاد في الحديث عن أندلسى التقى به في منطقة صغيرة بالغرب (أنفاس) ، إذ يقول : «الشيخ الفقيه الجليل الأستاذ المقرئ الناقد المتزن النحوي العارف العدل الشهير أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن علي الأموي المعروف بالرقاص .

أصل سلفه من لورقة وخرج منها جده إبراهيم بن علي لما استغلب عليها وكان سلفه يعرفون بها ببني الرامي واستقر جده إبراهيم المذكور بغرناطة وأقرأ بها القرآن وبها توفي ، وانتقل ولده علي إلى فاس وبها توفي واستقر ولده إبراهيم بفالقة وفها ولد صاحبنا أبو الحسن بين عام حسنة وسبعين وعام عشرة . . . »^(١٢١) ، إلى أن يقول : «كان لقائي بهذا الفاضل بفالقة وهم استفدت منه وعرفت معارفه وكان له اعتقاد في جنبي وذلك في عام ستة وثلاثين وسبعيناً ثم لقيته بسبعة عند قドوم مولانا عليهما ثمن لقيته بأنفاس وهو اليوم يقرئ بمدرستها التي بناءاً مولانا - أيده الله - بالجامع الأعظم منها ، ويقرئ اليوم تفسير الكتاب العزيز والموطأ وابن الحاجب الفقهي والرسالة وتسهيل الفوائد والجمل والكراس الجزولي .

وقرأ عليه بأنفاس الحديث . . . »^(١٢٢)

وقد أتيحت له الفرصة - مرة ثانية - في إطار مهمة دبلوماسية لزيارة تلمسان سنة ٧٦٣ هـ ، وقد كان القصد من هذه المهمة طلب مديد المساعدة لملكه غرناطة اثر اشتداد الضغط المسيحي عليها^(١٢٣) . غير أن التشاوئ واليأس في الحقيقة كانا يسيطران عليه ، إذ أنه كان ينوي فعلاً الخروج من الأندلس ، لكن ليس إلى تلمسان ولكن إلى المغرب لخدمة بني مرين ، فلا عجب أن يردد في آخر رحلته قول صاحبه إلى الحسن الرقاص وهو بأنفاس :

إذا كنت في شبر من الأرض مكرما
ونسلت به عزا و كنت به صدرا
فعد عن المشوى وإن كان مسقطا
فما أضيق المشرى وما أوسع الشبرا⁽¹²⁴⁾

ثانياً : خالد بن عيسى البلوي

خرج البلوي من بلده قرطبة بالأندلس سنة 736 هـ، وأول مدينة صادفته من مدن الجزائر هنین، ثم انتقل منها إلى تلمسان⁽¹²⁵⁾، ولم يذكر من الأندلسيين إلا قبر أبي مدين الذي ذكر أنه زاره مرتين⁽¹²⁶⁾، ووصل بعد ذلك إلى الجزائر التي مدح أهلها وطبيعتها. لكن البلوي يصل إلى ما كان يتخوف منه الأندلسيون بالجزائر فيذكر في هذا الصدد : «... فدخلنا في أمر عظيم ، وطريق غير مستقيم ، وعذاب يوم عظيم ، نصعد على التهائم وننفور في النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمالوف ولا بالمعهود . ولا كان مسلكا إلا للذئاب واللصوص والأسود ، إلى شعراء بالخوف مشعرة ، وأرض خالية مغفرة ، وجبال منخرقة في الجو وعرة ، تقطع الأسباب ، وتحل الأسباب ، وتذكر الضراط والميزان والحساب ... فيقينا نكابد عظيم ذلك الأمر ، ونسير ولا نفارق ساحل البحر ...»⁽¹²⁷⁾ . وبطبيعة الحال لن يروق هذا الوصف للأندلسيين الذين كانوا يبحشون عن أماكن استقرار ، مما يجعلنا نميل إلى أن الكتابات الأندلسية - في هذه الفترة الحاسمة - ساهمت في تهيئة الأندلسيين نفسياً لعدم الاستقرار المكثف بالمنطقة .

ثالثاً : يحيى بن خلدون

تحتختلف شخصية يحيى بن خلدون عن سابقيه في شيئين :

أولاً : تختلف عنها في أن عائلة ابن خلدون استقرت بالغرب العربي منذ وقت غير قصير، إذن فقد خبر أفرادها سلوك المغاربة تجاههم وبالتالي فإن الفروق بينهم وبين المغاربة لم تكن بنفس الحدة بالنسبة للأندلسيين الطارئين .

ثانياً : دخل يحيى بن خلدون ميدان التجارة العلمية فمارس مهام سياسة بالفعل ، وكان له فيها تصرفات معينة ، في حين أنه لم يدخل سابقاً في أي تجربة في هذا الميدان من شأنها أن تبرز لهم سلوكاً معيناً .

وستحاول من خلال استعراضنا لراحل هذه التجربة أن نبين ملامح الصورة التي رسمتها هذه الشخصية ومقارنتها بالصورة التي سبق أن رسمت من طرف أندلسيين سابقين في هذا الميدان كأخيه عبد الرحمن وابن الخطيب.

التجربة :

لقد شغل يحيى بن خلدون مناصب سياسية وإدارية في خدمة الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي خدمة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، ثم في بلاط الأمير عبد العزيز المرنيسي، ثم عاد أخيراً إلى خدمة أبي حمو الثاني بتلمسان، حيث قتل في رمضان سنة ٧٨٠ هـ وهو لا يزال في مقتبل عمره، وفي بداية مرحلة الانتاج الفكري .

وكانت السنوات السبع التي قضتها بتلمسان أزهى أيام هذه الفترة الهمة من حياته، فكان التأليف الوحيد الذي انتجه يتناول تاريخ الدولة العبد الوادية.

نشاطه قبل دخوله في خدمة أبي حمو موسى الثاني :

نجده أولاً يقوم بخدمة الأمير أبي عبد الحفصي لمساعدته على امتلاك إمارة بجاية. ولاشك أن السلطان أبي سالم المرنيسي عينه في هذا المنصب لما يعلم فيه من الدهاء لاتصالاته بعرب المنطقة⁽¹²⁸⁾. وقد قرر الأمير الحفصي مساعدة السلطان أبي حمو الثاني، فأرسل يحيى بن خلدون إلى تلمسان ليقوم بهذه المهمة، وفعلاً أنجز هذه المهمة بمهارة⁽¹²⁹⁾.

وقد أعاد الأمير الحفصي الكرة مرة ثانية فذهب بنفسه صحبة يحيى بن خلدون إلى بلاط أبي حمو الثاني، لكن الأمير إسحاق الحفصي فطن لذلك فأخفق هذه المساعي⁽¹³⁰⁾. وعندما خاب أمل يحيى بن خلدون والأمير أبي عبد الله في نجدة أبي حمو، اتجهت انتظارهما مرة أخرى إلى قبائل الدواودة، وفعلاً فقد تمكّن من استرجاع إمارة بجاية سنة ٧٦٥ هـ⁽¹³¹⁾.

لكن لم تلق إمارة أبي عبد الله النجاشي المرجو، وترجع أسباب ذلك إلى سوء معاملة الرعية وحتى لا حلافه من العرب، وإلى أصراره على مناهضة ابن عمه أبي العباس، أمير قسطنطينية، اقتحمت جيوش هذا الأخير إمارة بجاية سنة ٧٦٧ واستولت عليها وقتلت الأمير عبد الله الحفصي، وألقى القبض بعد ذلك على يحيى بن خلدون وحجزت أمواله، لكنه تمكن من الفرار والالتحاق ببلاط أبي حمو الثاني^(١٣٢).

تلك كانت المرحلة الأولى من تجربة يحيى بن خلدون وهي تجربة فاسية، لكن طموحه الأندلسي دلل له كل الصعب وكرر التجربة مع إمارة الزيانية.

في بلاط الأمير أبي حمو الثاني

من أهم العوامل التي دعت الأمير الزياني إلى استدعاء يحيى المشاكل السياسية الخطيرة التي كان يواجهها من جراء الفتن التي أحادثها، في المنطقة الشرقية، ثورة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني، فكان القضاء على منافسه هذا يتطلب الحصول على مساعدة عرب رياح وخاصة قبيلة الدواودة السالفة الذكر.^(١٣٣) وفعلا فقد أرسل الأمير الزياني خديمه يحيى إليهم ونجح في مهمته^(١٣٤). فكان لذلك أحسن الوقع في نفس الأمير الزياني وعيشه كاتبا له، وقربه إليه وجعله من مستشاريه، وعندئذ طاب المقام ليعي بتلمسان واستقر هناك^(١٣٥). وقد مكنت هذه الإقامة يحيى من الاتصال بالشعراء والأباء والعلماء الذين كان يزخر بهم بلاط أبي حمو الثاني مما أفاده في تكوينه العلمي^(١٣٦). غير أن الأمر لم يستقر للأمير الزياني مما جعل إمارته تشتعل مرة أخرى بالفتن والاضطرابات إلى أن استولى عبد العزيز المريني على تلمسان في سنة ٧٧٢ هـ، فقرر يحيى الالتحاق بالبلاط المريني^(١٣٧).

في البلاط المريني :

التحق في هذه الآونة لسان الدين ابن الخطيب بالبلاط المريني بتلمسان فكانت فرصة ليعي للاستفادة منه ما كان له أكبر الأثر في تكوينه العلمي. وقد سارت الأمور على أطيب حال بتلمسان تحت ظل السلطان عبد العزيز المريني إلى أن توفي أخيرا سنة ٧٧٤ هـ^(١٣٨)، وعندئذ انتقل البلاط المريني إلى فاس فاتجه على أثر

ذلك يحيى وابن الخطيب إلى العاصمة المرينية، والظاهر أن يحيى لم يجد أية صعوبة في الحفاظ على مكانه بال بلاط المريني.

لكن الفتن والاضطرابات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط المريني حالت دون بقاء يحيى بفاس خاصة بعد قتل ابن الخطيب في سجنه، بعد أن اتهم بالزنقة وحوكم وعلب. وهكذا التحق مرة ثانية ببلاط أبي حمو الثاني بتلمسان^(١٣٩).

عودته

بعد فراق دام أربع سنوات، لم يجد يحيى بن خلدون بدا من الرجوع إلى بلاط أبي حمو الثاني، معتزفاً بزنته، طالباً العفو والصفح، وما ساعد على ذلك أن الأمير الزياني كان في حاجة إلى مستشار مخلص يساعدته على حل المشاكل الخطيرة التي كانت تواجهه إمارته. لكن الأمور لم تدم على هذا الشكل طويلاً، إذا أصبح البلاط الزياني منذ أوائل سنة ٧٧٩ هـ مسرحاً للمناورات، وقد كان يحيى نفسه ضحية لهذه المناورات إذ أودت بقتله في سنة ٧٨٠ هـ^(١٤٠).

هكذا نلاحظ، إذن، أن نفس الصورة التي رسمت من طرف ابن الخطيب وابن خلدون تتكرر بالنسبة ليعيى، وهي صورة لا يمكن فهم ملامحها إلا من خلال الإطار الأندلسي الذي سبق أن أوضحتناه.

شخصيات أندلسية بالمنطقة :

تنوعت اهتمامات الشخصيات الأندلسية التي استقرت بالمنطقة، فهناك شخصيات آثرت الميدان العلمي، مفضلة الابتعاد عن كل (مشاكل الدنيا) لأن (أمور الآخرة أهم وأنجح)، وهو اهتمام تطور من مجرد اهتمام بالعلم إلى زهد وتصوف، في حين آثرت شخصيات أخرى المغامرة في الميادين السياسية والعسكرية، وكان لبعضها سلوك معين وستعرض بعض الشخصيات التي من شأنها أن تزيد من توضيح صورة هذا الوجود الأندلسي بالمنطقة.

* أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي :

اشبيلي الأصل، ذكر يحيى بن خلدون أنه : «كان أديباً بارعاً في الكتابة، ساعراً مجيداً، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفاً متقدماً، فسراً الكتاب العزيز، وشرح الأسماء الحسنة، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتباً في أصول الفقه، ولله في التصوف نظم حسن كثير في الرهد وسبيل الخير والوعظ وتزله الباري سبحانه وتعالى»^(١٤١).

* عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي :

ولدها السابق، قال عنه يحيى بن خلدون : «عالم متقن، ذو علم بالوثائق، وخط بارع، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وأمامه رحمة الله عليه»^(١٤٢). كما ذكر أنه : «هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم هذا، صاحب الأشغال العالية الآن بباب مولانا أمير المسلمين أبي حمو أいで الله، رجل خير، فاضل، ذو معرفة بالفرائض، وبصر الحساب والهندسة حج وخطب نائباً بجامع فاس الجديد، فاستجيدت خطبه»^(١٤٣).

* أبو الحسن ابن الصيقيل :

هو يحيى بن عيسى بن علي بن محمد بن أحمد المرسي، ذكر يحيى بن خلدون عنه أنه «كان راوية للحديث عدلاً صالحاً»^(١٤٤).

* أبو مدین شعیب :

هو شخصية صوفية مشهورة توسيعها في ذكر مناقبها كتب التراجم، لكننا سنقتصر على ترجمة يحيى بن خلدون له لأنها تمثل رؤياً أندلسية لشخصية أندلسية كما سيتأكد ذلك فيما بعد، وهكذا فقد قال عنه : «الشيخ الصالح قطب العارفين وشيخ المشائخ أبو مدین شعیب بن الحسين الانصاری، مشئوه قطیانة من قرى اشبيلية، واجاز البحر إلى المغرب . . . واستوطن بجبلة فانتشر بها خبره وعلا في مقام الولاية صيته . . . فلما بلغ تلمسان أعجبته خارجها قرية، فسأل عن اسمها فقيل : العباد، فقال أي موضع هو للرقاد، فمرض يومئذ ومات، ودفن هنالك»^(١٤٥).

*أبو عبد الله الحلوى :

قال يحيى بن خلدون عنه : «الشيخ السولي أبو عبد الله الشورذى الاشبيلي المعروف بالحلوى نزيل تلمسان ، من كبار العباد العارفين»^(١٤٦) . واسترسل بعد ذلك في ذكر بعض مناقبه .

*أبو بكر ابن خطاب الغافقي :

هو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي ، نزيل تلمسان من أهل مرسية ، ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه «كان من أربع الكتاب خططاً وأدباً وشعراء ، ومعرفة بأصول الفقه ، كتب بغزارة عن ملوكها ، وقفل إلى مرسية ، وقد احتلت أمرها ، فارتحل إلى تلمسان ، وكتب بها عن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان ، وتوفي بها يوم عاشوراء سنة ست وثلاثين وستمائة»^(١٤٧) .

*أبو بكر بن سعادة الاشبيلي :

ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه : «كان مجوداً للقرآن ، ضابطاً ، محدثاً ، نقاداً ، على الرواية ، نزل تلمسان وعمرها ، وتوفي في رجب سنة ستمائة»^(١٤٨) .

*أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبل :

شيخ عبد الرحمن بن خلدون ، وقد أكد أصله الأندلسي قائلاً : «أصله من جالية الأندلسية ، من أهل آيلة ، من بلاد الجوف منها ، أجاز أبوه وعمه أحمد ، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان ، وولده في جندهم»^(١٤٩) . وقد كان أبوه إبراهيم فائداً بهنيناً من قبل الزيانيين ، فلما ملكها المرينيون اعتقل ، وتحول ابنه أثر ذلك إلى بني مرین حيث صار قائداً لجند الأندلسيين بتاوريرت . لكن ذلك لم يرق له واتجه إلى الحج^(١٥٠) . وقد رجع إلى تلمسان بعد أن صادق ذلك مهلك السلطان المريني يوسف بن يعقوب وخلاص أهله من الحصار . وذكر تلميذه عبد الرحمن بن خلدون أن «هاته انبعثت إلى تعلم العلم . وكان ماثلاً إلى العقليات»^(١٥١) . وقد أورد أبو حمو صاحب تلمسان - بعد أن استقرت له الأمور - أن يستخدم الأبل في «ضبط

أمواله ومشاركة عماله»⁽¹⁵²⁾ لكن الشيخ الابلي تفادى ذلك، ففر إلى المغرب واستقر مدة بتونس، ورجع إلى تلمسان بطلب من أبي عنان المريني - كان قد ملك تلمسان من بني عبد الواد - الذي «نظمه في طبقة أشياخه من العلماء»⁽¹⁵³⁾.

* أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي :

ذكر صاحبه عبد الرحمن بن خلدون أنه أقام مدة بتلمسان، لكنه لم يذكر نشاطه هناك⁽¹⁵⁴⁾.

* عائلة ابن الملاح :

ذكر يحيى بن خلدون أن الأمير الزياني أبي حوب بن أبي سعيد «القى تقاليد الوزارة والحجابة إلى محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ولده محمد الأشقر، ثم ولده إبراهيم وعمه علي بن عبد الله»⁽¹⁵⁵⁾. وذكر أحدهم من «بيت سراوة من أهل قرطبة، احترافهم السقاكة، أولوا مانة فيها ودين»⁽¹⁵⁶⁾.

استخلاص :

لاحظنا أن جل الشخصيات الأندلسية التي تعرضنا لها ذكرها يحيى ابن خلدون في كتابه بغية الرؤاد، مما يدعونا إلى البحث عن الأسباب التي قد تكون دفعته إلى أن يخصص لها هذا الحجم من الكتاب.

نلاحظ أنه فاتح القسم الأول من كتابه بقصيدة لفقهاء أندلسيا - وقد نص على ذلك صراحة - هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغرى الأندلسى ، يمدح فيها تلمسان⁽¹⁵⁷⁾ ، ثم انقل بعد ذلك مباشرة إلى الفصل الثاني حيث استعرض مجموعة من الشخصيات الأندلسية المستقرة بالجزائر⁽¹⁵⁸⁾ . إن كل القرائن تفيد - بالإضافة إلى كوبه كان يرمي إلى الحصول على رضى الأمير الزياني أبي حمو الثاني - كان يريد تقديم (أوراق اعتقاده الأندلسية) لخدمته، إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى التعرف على إمكانات الجالية الأندلسية السياسية والعلمية بالخصوص، وبالفعل فقد استخدم عدد من الأندلسية كوسطاء بين الأمير الزياني وعرب المغرب الأوسط

الثائرين . ولاشك ، من جهة ثانية أن الأمير الزياني كانت لديه صورة خاصة عن اندلسي المغرب الذين كانوا يتهالكون على البلاط المريني ودورهم في الصراع الدائم بينه وبين هذا الأخير فأراد إذن يحيى بن خلدون أن يمحو هذه الصورة بذكر عدد من الصالحاء والزهاد والمتصوفة وهو يرمي بذلك إلى شيئاً :

أولاً : أن هناك فئة من الأندلسيين زهدت في الدنيا وأعرضت عن السياسة والمال وبالتالي فهي لا ترغب إلا في الاستقرار في أطمئنان بالمنطقة ، وبالتالي فهي لن تتدخل لتأييد هذا التأثير أو ذاك سواء كان من داخل المنطقة أو خارجها بل سوف تلتزم الحياد الكلي إزاء جميع الأطراف .

ثانياً : إن الحصول على تأييد هؤلاء الزهاد والمتصوفة معناه الحصول على تأييد العامة ، لما تكتبه لهم هذه الأخيرة من تقدير واحترام .

* * *

وبعد ، هذه جوانب من أهم التطورات التي عرفتها الساحة الأندلسية بالغرب العربي ، ركزنا فيها جهودنا على المغرب الأقصى باعتباره المطلق والمهدف ، وقارناه بعد ذلك بالتجربة الأندلسية في كل من تونس والجزائر . وقد لاحظنا من خلال كل ذلك مدى حجم وتعقد التجربة في كل من المغرب وتونس وبساطتها بالنسبة للجزائر لعوامل سبق أن أوضحناها .

وعلى كل فإننا نلاحظ ثلاثة أنماط من السلوك الأندلسي بالغرب العربي :

سلوك فئة العلماء :

حاولت هذه الفئة إبراز (العلم الأندلسي) ومدى إشعاعه على الساحة الفكرية بالغرب العربي . وقد تفرع سلوك هذه الفئة إلى قسمين : فئة حاولت الارتقاء منه ، وذلك عن طريق الدخول إلى بلاطات المغرب العربي أو عن طريق التعليم في المساجد والزوايا . وفئة أخرى عزفت عن ذلك ، واتجهت كلية إلى التفرغ للتعليم وقد تطور ذلك - كما قلنا - إلى زهد وتصوف ، وذلك نتيجة التجربة المريية التي اجتازوها في الأندلس والتي خلقت في أنفسهم اليأس والتشاؤم كما خلقت في أنفسهم كذلك قناعة مطلقة بـلا جدوى من المقاومة ، ناسين أن الأندلس قد سقطت وهي تغص بالعلماء والأدباء والشعراء .

سلوك فئة الصناع والحرفيين :

هؤلاء ، لكونهم كانوا يكثرون فئة وضعية في الأندلس نفسها ، فإنهم لم يطمحوا في المغرب العربي إلى مناصب سامية أو قيادية ، بل كان كل همهم ضمان موارد عيشهم . لكن هذه الفئة - كما أوضحنا ذلك سابقا - وجدت نفسها وجهاً لوجه مع صناع وحرفيين تقليديين منافسين مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي ، غير أن حدته كانت تتضاءل باستمرار مع مرور الزمن .

سلوك فئة العسكريين والسياسيين :

هذه الفئة هي التي ستدخل في صراع حاد بالفعل مع المغاربة ، إذ أتى أفراد هذه الفئة وهم يحملون (أوراق اعتناد أندلسية) تبرز ماضיהם العريق في السياسة والقضاء والحسنة ، فكانوا بذلك دائمًا يطمحون إلى الوصول إلى مناصب قيادية . وإذا ما حاولنا استعراض المراحل التي كان يخطوها هؤلاء للوصول إلى البلاط ، فإننا نجد أنها كانت تجري على الشكل الآتي :

المراحل الأولى : الدخول في اتصالات مع بлатطات المغرب العربي عن طريق وسطاء أو بصفة مباشرة ، وهي مرحلة غالباً لم تكن فيها مشاكل ، لأن أمراء المغرب العربي كانوا في حاجة إلى الاسترشاد بذوي الرأي ، نظراً لمشاكلهم الداخلية والخارجية .

المراحل الثانية : الممارسات السياسية بالفعل ، أما كوزراء أو مستشارين أو حجاب ، وقد حقق بعضهم نجاحات باهرة وعبروا بذلك عن كفاءتهم ومقدرتهم ، لكن طابع الاستحواذ على السلطة هو الذي كان يسود سلوكهم .

المراحل الثالثة : بدأت النخبة المغربية التقليدية داخل البلاط تشعر أنها همشت وأن مقايد الأمور أصبحت تفلت من يديها من هنا بدأت المؤامرات والدسائس تحاك ضد هذا أو ذاك ، أو هذه الفئة أو تلك ، فكان الصراع عنيفاً بينها ، وغالباً ما كان ينتهي هذا الصراع بفشل الفئة الطارئة ، فكان مصير أفرادها إما القتل أو الإبعاد .

ويرجع هذا الفشل - أساساً - إلى أن الأندلسيين كانوا يحققون نتائج إيجابية بالنسبة لهم - في إطار بنية سياسية تقليدية منظمة لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها ،

إذ كانوا يقومون بدراسة هذه البنية ويركزون فيها على مواطن الضعف لاستغلالها. لكن عندما ت تعرض هذه البنية - الهشة أصلاً - لاحتلال في هيكلها (نتيجة الفوضى التي كانت تعم أقطار المغرب العربي بفعل تدخل القبائل) فإن المبادرة إذ ذاك تخرج من يد الأندلسيين لتصبح في يدي الأقوى.

* * *

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نؤكد أن هذه التجربة الأندلسية بالمغرب العربي كانت قائمة في ظل معطيات خاصة تميز بالخصوص بكون المنطقة كانت تشكل مجالاً جغرافياً موحداً، فالحالية الأندلسية كان بإمكانها أن تنتقل بين أقطار المغرب العربي بدون حواجز تذكر، وذكريات الأندلس وأمجادها كانت مازالت حية في الأذهان، إذ كان الأندلسيون باستمرار ينديون حظهم رغم كل ما بذله المغاربة لتسهيل ظروف إقامتهم، ولعل (العلم الأندلسي) كان يدوّن وفي كل الواجهات. لكن الوضعية ستختلف تماماً في المرحلة الموالية (المراحل الحديثة)، إذ ستتصبح هناك حدود بين أقطار المغرب العربي، بفعل الاحتلال التركي لكل من تونس والجزائر، والأمل فقد نهائياً باسترجاع الأندلس فكل التغور الأندلسية الآن قد سقطت، وإسبانيا أصبحت امبراطورية قوية على الساحة العالمية لها وزنها السياسي والاقتصادي الكبير الذي تحسب له ألف حساب.

هوامش

(*) نشر هذا البحث بمجلة المناهل (المغرب) العدد 34 ، يوليور 1986 ، وقد أعيد نشره بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 - 43 . 1987 .

(**) هناك ملاحظات :

أولاً : سبق للباحث أن قام بدراسة حول موضوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى ، وقد نشرت ضمن أعمال المؤتمر الثاني حول الموريسكيين ، المعقد بتونس في شهر شتنبر من سنة 1983 :

«Evolution de l'Etablissement des minorités andalouses au Maroc» in Actes du 2e symposium International du CIE M sur :

Religion, Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 2 . 139 - 154 - Tunis, 1984.

ثانياً : سنقتصر في هذا المقال على الفترة ما قبل السادس عشر.

(1) La berbérie orientale sous Hafside, 2 . 370 371 et 383-389

(2) «المجراة الأندلسية إلى إفريقيا في القرن 7 / 13 » مقال بمجلة :

Les cahiers de Tunisie, 1er et 2e trim. 1970, PP 129-136

(3) «المجراة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين» ، مقال بمجلة الأصالة الجراوية، عدد 26 ، سنة 1975 ، ص. 46 - 90 .

المقري، نفس المصدر والصفحة.

(4) انظر الآيات عبد - المقري ، 4 : 352 .

(5) م. الطالبي المصدر السابق، ص ص 48 - 49 .

(6) انظر البيت عبد - المقري، نفس المصدر والصفحة

(7) انظر الآيات عبد - المقري ، المصدر السابق، 4 : 464 .

(8) م. الطالبي ، المصدر السابق، ص ص 49 - 51 .

(9) المصدر السابق ، ص 51 .

(10) ابن خلدون، العر، 6 : 579 ، 580 ، 581 ، 595 و 611 ، 614-615 .

(11) المصدر السابق ، ص 601 - 604 .

ملاحظة :

لم يستطع الأسطول الذي أرسل به أبو زكرياء مشحوناً بالطعام والأسلحة فك الحصار على بلنسية، فاستطاع المد بدانية، وسقطت عاصمة ابن مرذيش. ذلك أن المملكة المغربية كانت أضعف من أن تستطيع تجدة الأندلس، لقد كانت محبوبة على مساملة نصارى إسبانيا وصقلية وشراء صداقتهم بالمال وأتباع التنازلات، فيما كان النصارى يسترجعون عواصم الأندلس الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، كان ملوك بي حفص يعادنهم ، ويضخرون المجال لتفاقد محاربهم وقاتلهم ، ويسمحون لرهانهم يفتح مدارس (studium arabium) يريدون أن يجعلوا منها مراكز تشير إلى المسيحية ، وربما لما بعضهم، كابن اللحاني (711 - 717 - 1317)، إلى الأيمان بأنه يرغب في التصر

(ch.E.Dufourcq, l'Espagne et le maghrib aux XIIe siècle, p. 106 - 110, 488 - 494)

وكانوا يعترفون للملوك نصارى إسبانيا ، في رسائل تطفح باليد بسيادتهم على ما تقلعوا عليه من ديار الإسلام ، وعلى العموم فإن الملكة كانت «تشكوه في كل المستويات انخفاضاً خطيراً في الوعي السياسي». م. الطالبي، المصدر السابق، ص 53 .

(12) المقال السابق الذكر، ص ص 129 - 130 .

(13) رسائل ابن عميرة، مخطوط م. ع. بالرباط، عدد ك 232 ص 3 .

(14) يقصد بها سبعة.

- (15) يقصد سجلها.
- (16) ابن عميرة، نفس المصدر والصفحة.
- (17) انظر م. الطالبي المصدر السابق، ص. 54
- (18) انظر العبر، 6 : 711، 787 .
- (19) انظر ابن خلدون، المصدر السابق، ص 683 .
- (20) المصدر السابق، 711
- (21) المصدر السابق، 684 - 683 .
- (22) انظر م. الطالبي، المصدر السابق، 56
- (23) انظر ابن خلدون المصدر السابق، 56
- (24) انظر م. الطالبي، المصدر السابق، ص 57
- (25) ابن خلدون، المصدر السابق، 627 .
- (26) المصدر السابق، 628 - 627 .
- (27) المصدر السابق، 704 .
- (28) المصدر السابق، 667 .
- (29) المصدر السابق، 684 - 683 .
- (30) المصدر السابق، 705 - 704 .
- (31) المصدر السابق، 719 ، 705 .
- (32) المصدر السابق، 770 ، 758 - 782 .
- (33) المصدر السابق، 756 .
- (34) المصدر السابق، 655 .
- (35) نفس المصدر والصفحة
- (36) م. الطالبي المصدر السابق، 61 .
- (37) المصدر السابق، 63 .
- (38) المصدر السابق، 64 .
- (39) نفس المصدر والصفحة
- (40) المقدمة، 1040 - 1039 .
- (41) المصدر السابق، 751 .
- (42) ابن خلدون، العبر 6 ، الغربيي، عنوان الدراسة، ص 294 .
- (43) أحمد الغربيي، عنوان الدراسة، ص 347 - 348 .
- (44) المصدر السابق، ص. 67 .
- (45) هذا ما فعله - مثلاً - الأمير أبو زكريا بن السلطان أبي إسحاق (1279 - 1273) عندما أسس بتونس في ولاية أبيه المدرسة المغربية انظر الزركني، تاريخ الدوليين، ص 40 - 41 .
- (46) المصدر السابق
- (47) المصدر السابق .
- (48) أ. الغربيي، المصدر السابق، 317 ، وم. الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، ص 134 .
- (49) أ. الغربيي، المصدر السابق، 345 ، والعبدري، رحلة، 44 - 43 ، وم. الحبيب بن الخوجة، المقال السالف الذكر، 134 .
- (50) م. الحبيب بن الخوجة، نفس المقال والصفحة.
- (51) نفس المصدر والصفحة
- (52) نفس المصدر والصفحة .

- (53) نفس المصدر والصفحة
 (54) نفس المصدر والصفحة
 (55) نفس المصدر والصفحة
 (56) م. الطالبي، المصدر السابق 69.
 (57) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر ص. 20 - 22.
 (58) المقال السابق، ص. 70.
 (59) عنوان الدراسة، 76.
 (60) م. الطالبي، المقال السابق، 70.
 (61) عنوان الدراسة، 116.
 (62) المقال السابق، 72.
 (63) محمد الحبيب بن الحوجة، المقال السابق، 135.
 (64) نفس المصدر والصفحة.
 (65) خصص الأستاذ محمد أبو الأجنان له ترجمة مطولة أثناء تقديميه لرحلة القلصادي انظر - متلا -
 ص 30 - 56.
 (66) انظرم. السوسي، عالم رياضي أندلسي، مقال بمجلة حوليات الجامعة التونسية، عدد 9، 1972
 ص 43 ويعدها.
 (67) انظرم أبو الأجنان، المصدر السابق، 35.
 (68) نفس المصدر والصفحة.
 (69) محمد الطالبي، المقال السابق، 71.
 (70) م. الحبيب بن الحوجة، المقال السابق، 131.
 (71) نفس المصدر والصفحة.
 (72) نفس المصدر والصفحة.
 (73) المصدر السابق، 132.
 (74) نفس المصدر والصفحة.
 (75) نفس المصدر والصفحة.
 (76) الفارسية، 120.
 (77) محمد الحبيب بن الحوجة، 132.
 (78) المصدر السابق، 132.
 (79) الفارسية، 151.
 (80) المصدر السابق، 123.
 (81) نفح الطيب، 2 : 105 - 106. وابن سعد الذي يذكر لنا استار الآلحان الأندلسية التي أدخلها أبو
 الصلت إلى إفريقيا ولد سنة 610/1213 وتوفي سنة 685/1286
 وانظر أيضا حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 2 : 227 - 231.
 (82) م. الطالبي، المقال السابق، 72.
 (83) المصدر السابق، 73.
 (84) وصف إفريقيا، 2 : 51.
 (85) المصدر السابق، 2 : 42.
 (86) الروض الباسم، 20.

(87) نفس المصدر والصفحة

فيما يخص حدائق رأس الطابية - المكان مازال يعرف إلى اليوم بهذا الاسم بضاحية باردو، انظر ابن خلدون، العبر، 6 : 629 ، والزرتشي، تاريخ الدولين، 33 ، والعبدري رحلة، 40 ، والذي أنشأ قصر رأس الطابية وحدهاته، وجلب إليه مياه زغوان من المستنصر (647 - 675 / 1249) ولقد ربط المستنصر قصة تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين واستأثر بكمال مياه زغوان، إلا القليل منها الذي حول نحو جامع الريوة. وفي ذلك يكتب العبدري «وأما الساقية المحلوية من ناحية زغوان فقد لستأثر بها قصر السلطان وحثائه إلا رشحاه سب إلى ساقه حامع الريوة يرتفق منها في أنابيب من رصاص ويسقي منها العرباء ومن ليس في داره ماء ويكتف عليها

الإذدام». الرحلة، 40

(88) الروض الباسم، 20

(89) المصدر السابق، 21

(90) المقال السالف الذكر، 82

(91) عنوان الدراسة، 287.

(92) نستثني - طبيعة الحال - بعض الشخصيات العلمية والسياسية التي أتت للاستقرار بالمنطقة، لكن تأثيرها هي الأخرى مع ذلك كان صغيراً إذا ما قورن بتأثير الشخصيات العلمية والسياسية الأندلسية التي استقرت في كل من المغرب وتونس

(93) كانت هذه الامارات تحفظ بعيادها أحياناً، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تتبع الأقوى.

(94) انظر عبد الماسط بن حليل، الثغر باسم، موضع متفرقة وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجرائر النقافي، 1 . 28 - 29

(95) وصف إفريقيا 2 - 8

(96) أسس عبد الرحمن الداخل الأموي في عهد الخليفة الأموي أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي.

انظر محمد بن عبد الكريم، الملحق الثاني الذي وضعه لكتاب التحفة المرصبة، ص. 314.

(97) انظر محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، 313.

(98) أبو عبد الله الككري، المغرب، 70

(99) المسالك والممالك، 1 . 77 .

(100) نزهة المشتاق، 57.

(101) المصدر السابق، نفس الصفحة

(102) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(103) وصف إفريقيا 2 : 3

التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي (*)

- تأصيل تاريخي -

يعتبر التواصل الثقافي أهم مظهر من مظاهر وحدة المغرب العربي، فإن عرفت التجارب الوحدوية سياسياً نقلبات عديدة تبعاً للظروف السائدة آنذاك، إلى أن انتهت إلى ما انتهت إليه، فإن التواصل الثقافي ظل قائماً، ليعزز الشعور بالانتماء إلى حقل ثقافي واحد.

وقبل الانتقال إلى صلب الموضوع نبني بعض الملاحظات حول الشخصية الثقافية المغربية :

- كان للشخصية الثقافية المغربية من الوجود الذاتي ما جعلها تتمكن طوال العهد القديم من التميز ورفض أي شكل من أشكال الاندماج.

- لم تستطع مع ذلك تجاوز مستوى المقاومة والرفض والدفاع عن الهوية الذاتية، ولم تبلغ من القوة ما يجعلها ترتفع إلى مستوى الابداع خلال العهد القديم.

- استطاع المغرب أن يكون له شخصية ثقافية طاغية إلى الابداع والابداع مع مجيء الاسلام الذي زاد بصفة عامة من تأكيد الاتجاهات الوحدوية سواء في ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الثقافة، ذلك أن الاسلام أوجد في عين المكان الادوات الكفيلة باغناء الشخصية الثقافية وتوحيدها على نطاق المغرب العربي، ومن بين هذه الادوات نذكر :

1 - الدولة : أحل الاسلام مفهوم الدولة في المغرب ك فكرة وبنية شمولية جديدة تناويء كل البنيات التجريبية القديمة.

2 - الأمة : كونت الأمة بحكم طبيعتها ووظيفتها اطاراً توحيدياً ضم سائر المسلمين، ونظرة إجمالية إلى التاريخ تبين كيف أن فكرة الأمة لعبت دورها القوي المتواصل في توحيد أقطار المغرب العربي .

- 3 - المسجد : قام المسجد بمختلف أشكاله وأحجامه بدور كبير كأداة تعليم وتربيه ونشر للثقافة ، وهي أداة لا تتجه لطبقة خاصة من المجتمع ، بل إنها مؤسسة شعبية تتصل بعامة الناس على الدوام ، وتبلغ التعاليم نفسها في كل مكان ، مما يؤدي إلى بروز إطار فكري واحد .
- 4 - الاقتصاد : كان من نتائج وصول الإسلام إلى المغرب تنشيط الحركة الاقتصادية وتحريك تيارات جديدة ربطته بالشرق وأوروبا وأفريقيا ، وكانت هذه الوحدة الاقتصادية أساساً لوحدة ثقافية ، كما تجلّ ذلك في حركة المرابطين .
- 5 - دور التراث الأندلسي في توحيد المجتمع الثقافي المغربي : رغم التأثير القوي الذي أحدثه التراث الأندلسي في توحيد أقطار المغرب العربي ، فإنه مع ذلك لم يحظ بعد بدراسة كافية ^(١) ، لقد كان عدد من علماء الأندلس يتلقون باستمرار بين أقطار المغرب العربي ناشرين معارفهم ، مما أدى إلى تكثير تراث أندلسي واحد في الأقطار الثلاثة وكان هذا التراث بالفعل عامل تقارب بين أقطار المغرب العربي في توحيد تصوراتها وأدواتها واهتماماتها في ميادين الفكر والثقافة ومن أبرز الآثار التي يمكن ايرادها في هذا الصدد إلى جانب الفكر والعلم والأدب : الهندسة المعمارية الأندلسية ، والموسيقى الأندلسية التي كان لها انتشار كبير فيسائر أقطار المغرب العربي .
- 6 - هناك أدوات أخرى مهمة في مجال النمو الثقافي كان لها دورها أيضاً في مجال التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي ، ذكر من بينها : المدينة ، والرباط ، والزاوية .

أولاً : التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال الفترة الوسيطية

من أولى المحاولات التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد محاولة المولى ادريس الأول الذي طرح مشروعه ضخماً لتوحيد «دار الإسلام» ، واستطاع أن يكون وحدة سياسية تضم المغرب الأقصى والأوسط ولولا معارضة بي العباس لامكن أن يوجد الغرب الإسلامي برمه . غير أن التجربة لم تستمر طويلاً لكنها ستبز بقوة مع المرابطين .

كان المشروع الوحدوي المراطي حاضرا على المستوى الرسمي والشعبي على السواء.

فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المراطية مشروع الوحدة على رأس برنامجهما السياسي، ووظفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق وحدة المغرب العربي، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر المسيحي المبعث من صقلية.

أما على الصعيد الشعبي فإن هاجس الوحدة كان حاضرا شعورا ومارسة فعلى الرغم من العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار الغرب الإسلامي، فإن الزخم الشعبي كان يتتجاوز الاطارات الضيقية، إضافة إلى أن المؤرخين والجغرافيين المعاصرين أو الذين أتوا بعدهم لا يعترفون بالحدود الفاصلة بين دول المغرب⁽²⁾.

ونذكر في هذا الصدد تبادل الرحلات، ومنح الإجازات، وحرث مثال نسقه في هذا الصدد تمثيله شخصية أبي عمران الفاسي الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغاربية، فهو مغربي أصله من فاس، ومع ذلك فضل الاستيطان في القيروان، وعنه أخذ الناس في أقطار المغرب العربي كما تتوضح ذلك المصادر التاريخية.

وهناك مثال آخر : فقد قدم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل ابن يوسف التنجوي ، واستقر في سجلهاة للتدرис بها، غير أنه تعرض للمضايقة والطرد من طرف فقهاء المراطين، لانه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول، ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضل الاقامة في فاس والاستقرار في مغربه الكبير⁽³⁾ ، ويترجم ابن القاضي لمحمد بن داود بن عطية (ت 525 هـ) فيذكر أن أصله من إفريقية (تونس) غير أن هذا الأصل لم يحصل دون توليه القضاء بتلمسان، ثم اشبيلية، ففاس⁽⁴⁾.

وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الوحدة المغاربية، يتجلّ ذلك بالخصوص في تبادل الزيارات بين المتصوفة، بل منهم من فضل الاقامة في البلد الذي رحل إليه⁽⁵⁾.

من ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة لذلك، إذ لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، ويتجل ذلك بالخصوص أثناء مواجهة الخطر المسيحي، ففي سنة 521 هـ - مثلا - شكل أهل المهدية وفدا لمقابلة حاكم بجاية من آل حماد وهو يحيى بن عبد العزيز، لطلب المساعدة للتصدي للغارات المسيحية.

ومن الملاحظات التي يمكن أن نبداها حول المشروع المرابطي هو أنه كان يتسلح بآيديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهبًا وعقيدة وطنية، وبذلك أصبح خطاب آيديولوجيا وحدوية.

لقد ظلت فكرة الوحدة حاضرة في نفوس المغاربة، ويكتفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لتأكد من ذلك، ولنأخذ على سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد (ت 520 هـ) يقيم في الأندلس. ورغم ذلك فقد كان يمطر بوايل من طلبات الافتاء في شأن نوازل كان مجدهما القيروان وسبعة ومراكب وبيجاية وغيرها من مدن الغرب الإسلامي.

ونختم كلامنا حول التجربة الوحدية المرابطية بأنها مثلت التجربة الام، وبذلك ساهمت في تعبيد الطريق أمام التجربة الموحدية التي استفادت من هذه التراكمات الأولية.

II

بدل القادة الموحدون جهودا سياسية كبيرة لتوحيد أقطار المغرب العربي، وقد كان صدى هذه الجهود الوحدوية في البداية كبيرا، إذ تجمعت المصادر التاريخية على أن شعوب المغرب العربي تجاوالت معها إلى حد بعيد، فعندما وصل عبد المؤمن بن علي إلى تونس : «خاطبه أهل مدينة قابس بالتوحيد... فبعث بمسكر ضخم... فلما وصلوا على ثانية أميال من قابس بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج إلى الموحدين وتلقاهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجماعة...»⁽⁶⁾ ، كما أن «عرب افريقية والزاب والقيروان... أجابوا إلى الطاعة على حكم الاستطاعة...»⁽⁷⁾ ، لكن السؤال الذي يبقى مطروحا : كيف ابتدأت هذه التجربة بهذا النجاح الباهر، وانتهت في الأخير بإخفاق يؤكد المؤرخون على أنه كان فاسيا لأنه كان بمثابة سقوط من أعلى إلى أسفل.

لمعرفة أسباب نجاح هذه التجربة يجب أن نعرض إلى حواجزها :

- رغبة الموحدين في نشر مذهبهم ، فقد كان المهدى بن تومرت يعتبر المغرب العربي كمجال واحد لدعوته ، وحافظ على هذا الارث خلفه عبد المؤمن بن علي .
- عزم الموحدين على الوقوف في وجه كل أعدائهم ومناوئتهم من بني غانية ، وقبائل عربية أخرى ، حتى تقوم الدولة على أساس متينة ، وبذلك لم يتركوا أي فرصة للدعاية التفكيكية .
- إنقاذ إفريقية والمغرب الأوسط من محاولة التوسيع النورماندي أكسب الموحدين في نظر شعوب أقطار المغرب العربي شرعية وهيبة لا تنكر .

تلك بصفة عامة أهم الأسباب التي جعلت التجربة الموحدية تجربة رائدة منذ البداية وتحقق ما عجزت عن تحقيقه دول سابقة .

لكن كانت هذه التجربة تحمل معها في نفس الوقت عوامل صعدها ، فبدل أن يسلك الموحدون سياسة فيها ترضية لسائر الأطراف المغاربية فقد أخذوا بسياسة مننية على السلطة والاستبداد والاستئثار بوظائف الولاية ، وبذلك أحدثوا أسباباً للقلق والتوازن أدت في النهاية إلى حدوث اشتباك كبير داخل (الإمبراطورية الموحدية) بظهور دوبيلات صغيرة في أقطار المغرب العربي غير أنها نجد في الحقيقة أن هذا الفشل لا يهم إلا الجانب السياسي من التجربة ، أما الجانب العلمي فلم يمس ، بل ظل التواصل الثقافي مستمراً ، كما يتجلّ ذلك من خلال التنقلات العلمية التي عرفها هذه الفترة ، والتي تبرز بوضوح الطابع الفكري الوحدوي لدى أقطار المغرب العربي .

III

عرف المغرب في عهد بني مرين اتساعاً في الرقعة المغارافية ، وذلك نتيجة تدخله المستمر في الأندلس ، ونتيجة أوضاعه الداخلية من جهة أخرى ، فبرزت بذلك إمارة بني عبد الواد بتلمسان ، وإمارة الحفصيين بتونس ، ولكن ظل التواصل الثقافي مع ذلك مستمراً ، وهكذا نجد العلماء يجسدون من خلال رحلاتهم وأسانيدهم ومورياتهم ومناظراتهم العلمية تلك الصلات القوية التي كانت قائمة بالفعل بين علماء المغرب العربي .

وقد شجع بنو مرين كثيرا من بيوتات المغاربة الأوسط والأدنى على الهجرة إلى المغرب الأقصى ، وجعلوها كتابا وحجابا ، وأدرك أبناء هذه البيوتات جاما عظيما ، ومن بين هذه البيوتات بيت بني التميمي وقد اشتغل أبناؤه لدى الحفصيين والمربيين ، ومن أفراده أبو الحسن علي بن إبراهيم التميمي التونسي ، ومن أفراد هذا البيت أيضا أبو الفضل محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله التميمي ، ولـي الحجابة للدولة المربيية .

ومن هذه البيوتات أيضا بيت الكانى ومن أفراده الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يوسف بن الفقيه الكاتب أبي الطيب الكانى ، كانت له عالمة المتوكل عبد الله بن منصور المربي .

هكذا فتح سلاطين بنى مرين أبواب المناصب العليا في وجه القادمين من المغاربة الأوسط والأدنى ، لكن كانت عناية ملوك بنى مرين بعلماء المغرب العربي أكبر ، فقد أم علماء تلمسان والقيروان وبجاية وغيرها من الحواضر بلاط أبي الحسن ثم بلاط أبي عنان .

ويتجلى هذا التواصل الثقافي أيضا من خلال التواصل الاستنادي الذي تؤكده فهراس العصر ، ففي فهرسة السراج - مثلا - نجد أسانيد التلمسانيين والقيروانيين والسبتيين والفالسيين وغيرهم ، ونفس الشيء نقوله بالنسبة لفهرسة المتصوري ، وفهرسة ابن غازي

ويتجلى هذا التواصل الثقافي كذلك في الرحلات ، فنذكر في هذا الصدد ملء العيبة ابن رشيد ، ومستفاد الرحلة لأبي القاسم التجيبي ورحلة العبدري ، ورحلة ابن بطوطة ورحلة أبي عبد الله المقربي نظم الثنائي ، حيث يستعرض المقربي الجد رحلته عبر مراكز المغرب الثقافية فيذكر الاعلام الذين أخذ عنهم أو تذكرة منهم انطلاقا من تلمسان ، وبجاية فتونس ، تم المغرب حيث دخل فاسا ولقي بها عددا من الشيوخ .

كما نشطت المراجعات والمناظرات في هذا العصر نشطا كبيرا ، وكان يشارك فيها علماء من فاس وتلمسان وتونس .

ونشير في الأخير بمناسبة الحديث عن هذا التواصل الثقافي إلى «الحملات الثقافية الرسمية» التي كان يقوم بها بعض سلاطين بني مرين، فقد استتصحب السلطان أبي الحسن المريني معه إلى تونس علماء من تلمسان وفاس، ونفس الشيء فعله السلطان أبي عنان المريني^(٦).

ثانياً : التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال العصر الحديث

عرف المغرب العربي خلال القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر تدهوراً سياسياً واقتصادياً وفكرياً خطيراً، تجلّى بالخصوص في عدّة مظاهر :

- سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس (غرناطة) سنة 1492 ، بل وتتبع المسلمين بشمال أفريقيا ، مما أدى إلى احتلال عدد من الشعوب بأقطار المغرب العربي.
- التدهور السياسي الخطير نتيجة الصراع حول السلطة.
- التدهور الاقتصادي نتيجة لانعدام الامن والاستقرار.

- وقد كان المغرب أحسن حظاً من جاريه ، فقد واجه المسيحيين ، وواجه الأتراك ، ولذلك أصبح ملاذاً للمضطهددين سواء من طرف المسيحيين أو الأتراك ، ودخل المغرب في هذه الفترة أقوام كثيرون أفراداً وجماعات وقد كان السعديون يعون جيداً الدور الوحدوي المنتظر منهم كما يتجلّى ذلك في الأحداث الآتية :

- محاولة السعديين الوصول إلى وهران بعد توحيد المغرب الأقصى وتحرير عدد من ثغوره ، وذلك لتخلص هدا الثغر من يد الإسبان.
- مشاركة عبد الملك السعدي في الجيش العثماني التونسي الذي تمكّن من هزم الإسبان سنة 1574 بحلق الوادي .

- تطلعت شعوب أقطار المغرب العربي إلى المغرب الأقصى باعتباره القوة المستقلة الوحيدة بالمنطقة ، كما يتجلّى ذلك في كتاب النّفحّة المسكية لابي الحسن علي التمجردي .

- التنسيق في عمليات الجهاد البحري بين مدن سلا ، والعرائش ، وبجاية وحلق الوادي ، وغير ذلك .

لقد سعى السعديون إلى توحيد الغرب الإسلامي، انطلاقاً من كونهم أحق بالخلافة من غيرهم لشرف نسبهم، كما يبرز ذلك مؤرخوهم.

أما من حيث التواصل الثقافي فنذكر هجوة عدد من العلماء الجزائريين أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من بينهم :

- عبد الله العناي : فقيه، أديب، مشارك في مختلف العلوم، استقر بوادي درعة، وقد آثر السعديين في المراحل الأولى لإقامة دولتهم، كما عمل على مساعدة الأندلسين بالجزيرة، فجمع أموالاً طائلة حملها في البحر لاغاثتهم، لكن السفينة غرقت.

- أحمد بن يحيى الونشريسي، الفقيه المالكي الكبير، انتقل من تلمسان إلى فاس، فأعطي كراسى الفقه في القرويين وغيرها، وفتحت له خزائن الكتب العامة والخاصة، ولاسيما خزائن آل الغردقى التي استمد منها أصول كتابه المعiar المغرب. وقد خلفه بعد موته في كراسى التدريس بالقرويين ابنه عبد الواحد الونشريسي الذي أصبح شيخ الجماعة بفاس، ولعب الأدوار السياسية الشهيرة بين الوطاسيين والسعديين.

- أحمد شقرور بن أبي جمعة الوهرياني، فقيه مشارك، اندمج كالونشريسي في صفوف علماء فاس، وكان له تلاميذ كثيرون.

وفي القرن الهجري العاشر ذكر :

- علي بن عيسى الراشدي، اتم دراسته بالقرويين، ثم أرسنده إليه كرسى القراءات والسيرة النبوية بمسجد الشرفاء.

- أحمد بن محمد بن جيدة الوهرياني، تلميذ الشيخ السنوسى، تولى كرسى الإمام ابن غازى.

ومن تونس نذكر محمد بن أبي الفضل ابن خروف، وهو عالم متخصص في العقليات، أسره الأسبان في الحملة الكبرى التي شنوها على تونس وطال أسره إلى أن افتداه ملك فاس أحمد الوطاسي، وعاش ابن خروف مدرساً في القرويين. ونشير إلى أنه في هذه الفترة أيضاً وقعت هجرات معاكسة من المغرب إلى الجزائر وتونس قام بها علماء وصلحاء من مختلف مدن المغرب.

خلاصة :

تلك كانت نظرة تأصيلية تاريخية للتواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال فترات معينة من تاريخ المغرب، ورأينا فيها دور الثقافة في تحدي عراقيل الوحيدة، فيما أجرد بنا اليوم أن نعطي لهذا العامل ما يستحقه من الاهتمام، لكننا من جهة أخرى لا نزعم أن الثقافة وحدها تكفي لتحويل الشتات إلى وحدة والشام، فلابد من إرادة سياسية، ولابد من دعائم مادية تتمثل في تنمية العلاقات الاقتصادية وإيجاد البنية التحتية التي تبني الربط والاتصال.

هو امش

- (*) أعد برسم الجامعة التبتوية بمراكش، 1990، وقد نشر بالمجلة التاريخية المغربية، تونس العددان 57-58، 1990.
- (1) انظر محمد رزوق : «الجالية الاندلسية بأقطار المغرب العربي»، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 - 43 ، 1987.
- (2) انظر في هذا الصدد ما يقوله - مثلا - صاحب الحلل الموشية، وما ي قوله البكري في كتابه المغرب
- (3) ابن الزيات، الشوف، ص: 98
- (4) جملة الاقتباس، 1 : 255
- (5) انظر - مثلا - ابن قفذ، انس الفقير، ص: 94
- (6) ابن صاحب الصلاة، التعريف، ص: 19 - 55 .
- (7) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، 417
- (8) ابن خلدون، التعريف، ص: 19 - 55 .

من جذور الدولة العصرية بالمغرب محاولة بنا الدولة الحديثة خلال القرن التاسع عشر نموذج (*)

تشكل المحاولة التي قام بها المغرب خلال القرن 19 لبناء دولة الحديثة نموذجاً متميزاً يطرح معه الكثير من التساؤل حول الأسباب التي أدت إلى وقوع هذه الاصلاحات في هذه الفترة بالضبط، وحول نوعية الاصلاحات المقترنة والتحول الحاسم الذي طرأ على بعض العقيديات آنذاك وكذا إدراك قيمة الآخر الغالب بدل البحث عن إصلاح ذاتي محض، أي أن المفهوم الأوروبي أصبح الآن هو المستهدف.

وقبل الانتقال للتعرف على المبادرة المغربية سنحاول أن نتعرف على أصول الدولة الحديثة في أوروبا من خلال ثلاثة معايير تساعدنا على المقارنة (١) :

- المعيار الأول : استمرارية في الزمان والمكان بجماعة بشريّة ما لكي تحول إلى دولة . فالعيش والعمل معاً في مكان معين وطوال أجيال عديدة تستطيع جماعة بشريّة ما أن تنتج النهاذج التنظيمية الأساسية لتنشيد دولة ما . فهذه الأخيرة ترتكز على مؤسسات دائمة ومن الصعب إقامة مثل هذه المؤسسات إذا كانت الأرض التي تقوم عليها تتغير باستمرار، أو إذا كان تلامح الجماعة يتغير باستمرار كذلك ولذلك فإن البدو الحقيقيين لا ينشئون دولاً ، فمن الضروري أن تصبح نسبة معينة من السكان حضريّة لكي تتمكن من الوصول إلى مستوى معين من التنظيم السياسي .

- المعيار الثاني : يجب أن تقوم مؤسسات سياسية غير شخصية تعزز الشعور بالهوية السياسية للجماعة . وتميّز هذه المؤسسات بمكانتها وسلطتها داخل المجتمع ، فهي التي تخسّد فكرة سيادة الدولة على الجميع .

- المعيار الثالث : وهذا المعيار الأخير هو الأكثر أهمية، فمشاعر الولاء التي كان يحس بها الناس في الماضي نحو العائلة، أو الجماعة المحلية، أو المنظمة الدينية، قد انتقلت الآن لصالح الدولة. وفي نهاية هذا التحول يعطي المواطنون الصدارة لمصالح الدولة. ويعتبرون صيانتها بأنها الخير الجماعي الأعلى. وبقراءتنا لهذه المعايير يتبيّن لنا بوضوح لماذا تأخر بناء الدولة الحديثة بالغرب، فكل معيار من هذه المعايير نجد نقىضاً له في الجانب الآخر، فقد ظلت البداوة طاغية على المغرب لفترات طويلة من تاريخه - كما لاحظ ذلك ابن خلدون -، والقبائل تتنقل باستمرار مما كان يعوق قيام كيان حضري يفك سكانه في تنظيم ما ، والمؤسسة السياسية كانت شخصية ، مرتبطة بشخص معين ، سرعان ما تسقط سقوط الشخص المذكور، ومشاعر الولاء تجاه الدولة كانت ضعيفة نسبياً وغير قادرة ، في حين كانت قوية تجاه مؤسسات دينية (الزوايا) أو ثبات معينة (العلماء ، أو المتصوفة) . . .

وهكذا حينما حاولت الدولة أن تقوم باصلاحات معينة وجدت معارضة قوية تحبس فترات تاريخ طويل من الجمود الفكري .
ظروف التفكير في بناء الدولة الحديثة :

ظهرت فكرة تحدّث الدولة بمختلف مرافقها كضرورة ملحة إثر انهزام المغرب في معركة أسلی ضد فرنسا (1844) وفي حرب تطوان ضد الإسبان (1860)، فانكشف بذلك صعفه وتخلّفه وعجزه عن حماية نفسه⁽²⁾ . وهكذا فالتفكير في هذه العملية كانت نتيجة ضغط خارجي وظروف إجتماعية واقتصادية صعبة ، وليس نتيجة لتطور داخلي فكري أو اجتماعي أو اقتصادي ، وهذا الأمر خطورته ، إذ أن الاصلاح سيتجه بنظره إلى الجانب الآخر القوي للاقتباس منه ، وهذا شيء جديد وقع خلال القرن 19 لماذا ؟

سيتضح لنا ذلك من خلال استعراضنا لأحداث معينة هائلة ، فقد غزت العالم الإسلامي قوات أوروبية خلال العصر الوسيط ، واعقب ذلك ردود فعل إصلاحية ظلت دائرة داخل المنطق المعمود للإصلاح الإسلامي الذائي ، دون التفات إلى ما عسى أن يقتبس من الآخر المتفوق من أمثلة تفوقه وتصلح لأن تؤخذ ضمن مشروع إصلاح مقترح . وهكذا فقد وضع الغزالي مشروعًا للإصلاح ضمن كتابه أحياء علوم الدين ، وقد وضعه أثناء الحملة الصليبية الأولى التي انتهت باحتلال

أراضي إسلامية بها فيها القدس، ومع ذلك فقد بقى الغزالي يعمل على القوى الإسلامية الداخلية (الشيعة خاصة والاسئلة بالأشخاص) ولا يقول شيئاً عن القوى الأجنبية الغالية، فالإصلاح ذاتياً يكون حسب المنطق المهدود: أي إرجاع الحافر إليه إلى خلل داخلي حل بالأمة وتفسير هذا الخلل بالخلاف، أي إفراق المسلمين فرقاً متصارعة، والتهامس الحل في توحيد الدهن والسياسة، وطريق هذا كله العودة إلى الإسلام الأصيل.

ونفس الرأي نجده بالغرب خلال القرن السادس عشر، عند محمد ابن يحيى بن النازري (توفي سنة 920 هـ / 1514 م -) - مثلاً - في العهد الوطاسي - وقد عاصر سقوط غرناطة سنة 1482 ، وسقوط عدد من الشعور الغربية بأيدي البرتغال - ، إذ يقول في مشروعه : « . . . واجتهدوا في جمع كلمتكم ينجح رأيكم وتظفروا - إن شاء الله - بطلبتكم . أما سمعتم قول مولانا « جل وعلا وهو أصدق القائلين » : فاتقوا الله، وأصلحوا ذات البين بينكم وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين » ، وقال عزوجل : « ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم » ، « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أنحويكم . . . »⁽³⁾ . في هذا الخطاب كما نرى الحاج على الوحدة باعتبارها الحل الوحيد لمواجهة الغزو الأجنبي دون الالتفات إلى الغير العالب رغم أن أوروبا كانت تعيش آنذاك هضتها في مختلف الميادين، أي أن مشروعه يبقى في إطار الاصلاح الذاتي دونها حاجة إلى الغير.

غير أنه في القرن 19 صار الاقتناع بأن الخطاب الاصلاحي التقليدي لم يعد كافياً لمواجهة الطواريء، وبالتالي لا بد من الالتجاء إلى التحديد، لكن هذا الأخير كان يطرح ضرورة تجاوز التنظيمات السلفية التقليدية واللجوء إلى الابتکار والخلق، وبالتالي قد يثير المعارضة لدى العلماء، فانتجاً السلطان إلى هؤلاء للمحصول على رخصة شرعية تمنحه حرية العمل في هذا التحديد، غير أن ما يثير الانتهاء هو طبيعة الأجوية التي قدمها العلماء حول تحديث الجيش خلال القرن 19 ، فقد استفسر كل من السلطان عبد الرحمن وخليفه محمد الرابع وخليفة الحسن الأول العلماء عن حكم هذا التحديد وصورته ولكنهم بدل أن يركزوا في أجوبتهم على الجيش وتحديثه وطبيعة هذا التحديد ركزوا فيها على تقديم مخطط واضح ومفصل لتحديث الدولة بمختلف مراقبتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث جعلوا قضية تحديث الجيش جزئية أدخلوها ضمن القضية الكلية الأساسية وهي ضرورة الاصلاح الكلي

للبلاط وإنقاذها من الانهيار. وهكذا جاءت الأوجبة التي قدموها حول تحديد الجيش عبارة عن كتب ورسائل وبحوث تمثل عروضاً مفصلة هامة جداً حول طبيعة هذا الاصلاح والتحديث.

وقد شملت هذه الأوجبة المحاور الآتية :

- الجيش : قدم مجموعة من العلماء مشاريدهم لتحديد الجيش كعنصر هام من عناصر بناء الدولة الخالصة لواجهة التدخل الأوروبي بالمغرب. ومن بين الرسائل رسالة سماها صاحبها : رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف⁽⁴⁾ ، وما يدل على وعيه الكبير بالمخاطر الفرنسي قوله : «بان النصارى ملكوا الجزائر ووصلوا إلى وهران وتلمسان . . . وإلى تافنا . . . وطمعوا في الوصول إلى مدينة فاس التي هي دار ملكك وملح حكمك . . .»⁽⁵⁾ ، وبخثه على الجihad (بمفهومه الواسع أي التحديث) والا فإن مصير المغرب سيتهي لـ ما انتهت إليه الجزائر حتى.

هناك كتاب آخر في موضوع تحديد الجيش وضعه محمد بن عبد القادر الكردودي (ت. 1268 / 1852) اسمه كشف الغمة في بيان ان حرب النظام حق على هذه الأمة.⁽⁶⁾ ابدى إعجابه الشديد بالتنظيم العسكري الأوروبي : «اعتنى الروم لوقتنا هذا بأمر الصنف وبالغوا في ترتيبها وتسويتها بها لا مزيد عليه»⁽⁷⁾ . وكذلك الجواب البسيط⁽⁸⁾ ، وهو جواب عن أسئلة للأمير عبد القادر الجزائري المتعلقة بالجهاد والمشاكل المالية كالضرائب والاعانات المفروضة على القبائل وموقف القبائل من الفرنسيين، وهي للإمام على بن عبد السلام التسوي وهو من الكتب السياسية الهامة التي تعرضت لضرورة الاصلاح الكلي، وهو يؤكد على ضرورة تحديد الجيش ويقدم تصوراً طبيعياً لهذا التحديث، وأكّد على ضرورة إصلاح وضبط القبائل وتوجيهها على المستوى الداخلي في حين حدد علاقة الدولة بالتدخل الأجنبي حيث أفتى بجواز عقد الهدنة والصلح مع الدولة المسيحية رغم تدخلها في البلاد اذا عجزت الدولة عن صدّها بالقوة ورأى في المهاينة مصلحة للأمة.

وهناك كتب ورسائل أخرى لداعي لاستعراضها لأنها تسير في نفس الاتجاه.

- الشوري : طبيعة المؤسسة السياسية القائمة ارتأى العلماء أيضاً أن تحديد الدولة يتركز أساساً، على قيام نظام يعتمد الشوري أساساً، لأنهم يعبرون أن تقدم أوروبا راجع أساساً إلى تنظيم الجهاز السياسي

المعتمد على النظام النيابي، وهكذا سجل الصفار محمد بن عبد الله⁽⁹⁾ أثناء زيارته لفرنسا زيارته للبرلمان، وبحث في نظامه واحتياضاته وأعصابه، وتشريع القوانين، وكذلك نظام الصحافة.

أظهر محمد الكردوبي السالف الذكر - إعجابه الشديد بالنظام النيابي الأوروبي : «قلت والروم (الأوروبيون) لعهدنا . . . فيها بلغت قصوراً الشورى على أربعين رجلاً، فلا يرمي أمر عندهم إلا تأن صدر عن رأيه واستشارتهم، وتسمى هذه الجماعة بالكرطبي . . .»⁽¹⁰⁾.

كما دعى الغالي بن محمد الحسني الأدريسي العمراوي اللجائي (ت 1289 / 1872) السلطان محمد الرابع في كتابه مatum الكفرة بالستان والحسام في بيان ايجاب الاستعداد وحرب النظام⁽¹¹⁾ إلى ممارسة حق الشورى مبيناً ببيانات القرآن والأحاديث النبوية ضرورة ضبط المصالح السياسية للأمة بواسطة «نظام الشورى» النظام النيابي

- السلطة :

يسجل العربي المشرفي أن أغلب الذين بعثهم السلطان محمد الرابع إلى أوروبا عادوا يستعظمون وينهون بضبط الأحكام ونفوذ الكلمة⁽¹²⁾.

وهكذا فقد توجه العلماء إلى السلطة التنفيذية انطلاقاً من السلطان إلى الوزراء والقواعد والعمال، إذ أكدوا على التربية السياسية للسلطان نفسه، وهاجموا بعض الوزراء والولاة للتسلط الذي كانوا يفرضونه على الشعب، مثل الغالي اللجائي - السالف الذكر - في كتابه مatum الكفرة . . . الذي ألح على ضرورة التربية السياسية للسلطان وما يجب أن يكون عليه من عدل واستقامة وصبر وثقة بالنفس وعفو وسخاء.

ونفس الشيء نجده عند محمد الفلاق السفياني (ت 1312 / 1875) في كتابه تاج الملك المتذكر ومداده من خراج وعسكر⁽¹³⁾ ألفه بطلب من السلطان محمد الرابع ، اذ ركز بالخصوص على العدل والاستقامة والشورى وعلى السياسة التي يجب

أن يتوفّر عليها الملك من دهاء وحكمة وصبر مندداً بالاستبداد والظلم والطغيان، كما تعرّض لضرورة استقامة الوزراء وإصلاح العمال.

- العلوم التقنية :

أصبح هناك اقسام جازم بالنسبة لفئة معينة من العلماء بضرورة الاستفادة من المخترعات العلمية الحديثة، فينوه العربي المشرفي بالمتكررات في المواصلات البرية والبحرية وبالطبعه والأدوات المنزلية وبخصوص لذلك الباب السادس من كتابه نزهة الأ بصار⁽¹⁴⁾ وهو يذيل عرضه للمخترعات بهذه الفقرة : . . . وكلما فعلوه

وآخر عروه فيه مصلحة للمسلمين، وقد عم نفعه وبعد المشرفي نشير الى الشيخ إبراهيم التادلي الرباطي، وكان لا يرى حرجاً في تعلم مباديء بعض اللغات الأجنبية الحية⁽¹⁵⁾.

ويعرف أحد الناصري قراء كتابه بما صارت إليه أوروبا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع آلات الحربة وثير إنتباه شعبه إلى مدى تقدم الغرب : « إن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علينا منكراً، وظهر ظهوراً لا كفاء له واسرعت أحواله في التقدّم والزيادة إسراعاً متضاعفاً كتصاعد حبات القمع في بيوت الشطرنج . . . ». ⁽¹⁶⁾

وفعلاً توجّهت عدة بعثات علمية إلى أوروبا، فقد بعث الحسن الأول - مثلاً - عدة بعثات منها : بعثة مكونة من 15 طالباً إلى إنجلترا وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا وبروسيا وذلك سنة 1291 / 1874 وبعثات أخرى في سنوات 1876 / 1879 . . .

كانت هذه الجهود في مجموها ذات أهمية كبيرة ولكن ولم تستند إلى عدد كبير من الخبرجين مسؤوليات عامة في نطاق تخصصهم إذ ظل التخطيط والتوجيه والرواتب المغربية وفقاً على العسكريين والأوربيين، أضعف إلى ذلك أن الوظيفة العمومية لم تكن منظمة ولا الرواتب قارة أو كافية، ولم تكن هناك تنظيمات توحد شمل المهندسين والتقنيين الوطنيين، فحالما يعودون إلى أرض الوطن يتوزعون بين المدن ويتركون لشأنهم، ومع الأيام يذب اليأس إلى نفوسهم ويتنهى بهم الأمر إلى

مارسة حرف بعيدة عن تخصصهم . ويرجع سبب فشل هذه المحاولة الى ان المجتمع نفسه لم يكن منظماً لذلك ، لذلك لم يستطع استيعابهم خاصة ان الامر يعصف باستقلال البلاد ؛ ويستند أنصار هذا الرأي الى اعتبار ما صارت اليه الدول الاخرى التي قادتها عمليات الاصلاح الى الواقع في شرك الحكم الأجنبي . وهذا رأي توافق عليه وتستغله الدول الاستعمارية نفسها التي كان همها اضعاف الدولة المغربية في حين كان الاصلاح الاساسي الاول يكمن في تقويتها حتى تكونه قادر على مواجهة التوغل الاستعماري ودفع خطره عن البلاد .

وعلى كل فتatk محاولة عرفها المغرب خلال فترة معينة لبناء دولته الحديثة ، لكن حالت ظروف داخلية وخارجية دون هذه المحاولة وجعلته يرسب تحت نير الاصلاحات الشكلية ابان فترة الحماية . وقد كان رد فعل المغاربة قوياً واستطاعوا في كثير من الأحيان الانتباه الى التوابيا الحقيقية من وراء «حركة الاصلاح» هاته ووعوا في نفس الوقت جيداً قيمة التنظيم السياسي والاداري والاقتصادي للمجتمع وأنه السبيل الوحيد والأساسي لبناء دولتهم الحديثة .

هو امش

- (*) أعدد برسم الدولة التي انعقدت بالجزائر في موضوع : «تكوين الدول المعاصرة بالغرب العربي». وقد نشر بالمجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد 8-7 / 1988
- (1) انظر جوزيف شتراير، *الأصول الوسيطة للدولة الحديثة*، ص 9 - 14
 - (2) بدا واضحًا أنه متى خلص ليس فقط عن أوروبا ولكن حتى عن بعض الأقطار العربية كمصر أو الإسلامية كتركيا، فبدأ يرسل بعثاته إلى هناك لأجل التكوين.
 - (3) كتاب الجهاد ص. 139.
 - (4) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1623 د
 - (5) المصدر السابق، ص. 11 - 12
 - (6) طبع على الحجر بفاس سنة 1303 / 1886
 - (7) المصدر السابق، ص. 6.
 - (8) طبع على الحجر بفاس في نحو 80 صفحة.
 - (9) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 113
 - (10) كشف الغمة . . . ، ص 46.
- ملاحظة : الكرطي : يقصد به الكورطيس Cortes وهو مجلس البرلان الإسباني كما هو معروف
- (11) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 1030 .
 - (12) الحسام الشرفي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : 2276 ك ص. 321
 - (13) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 2502
 - (14) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 579 د، ص. 527 - 528
 - (15) انظر محمد المنوفي، *ظواهر يقظة المغرب في العصر الحديث*، 1 : 252 - 253
 - (16) الاستقصا، 9 : 208

العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر

العهد السعدي الأول نموذجا (*)

ان أهم شيء يمكن ملاحظته ونحن بقصد الحديث عن العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر هو التقارب الذي كان يقع باستمرار بين المغرب والاسبان نتيجة الصقسط التركى مما سيؤثر عمليا على قضيتي أساسيتين ظلتا محور الأحداث طيلة هذه الفترة وهما قضية التغور المحتلة، وقضية المورسكيين.

- ١ -

بمجرد وصول محمد الشيخ السعدي الى فاس بدأت تبدو في الأفق ملامح السياسة الإسبانية تجاه المغرب، فقد كان الإسبان يترقبون التعاون النام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك^(١) وهمئون انفسهم لهذا الظرف الجديد، خاصة انهم يعلمون ان هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتي أساسيتين : التغور المغربية المحتلة والقضية المورسکية .

فيها يتعلق باللغور المحتلة تشير الوثائق الإسبانية إلى ان السلطان السعدي ساع في بناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية، خاصة أنه يملك موانيء مهمة على المحيط مثل العرائش والمعمورة وسلا وأسفي ، وإمكاناته بناء السفن في مدينة فاس وحملها الى المعمورة عن طريق وادي سبو، ولن يجد صعوبة في ذلك لأن التجارة الاجنبية والفرنسيين خاصة يمكنهم ان يزودوه بمختلف المواد اللازمة لذلك^(٢)

القضية المورسکية : كان مورسكيو غربناطة يتقطرون باستمرار على فاس للانضمام الى محمد الشيخ ، وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للإسبان في الصميم، وذلك بالهجوم عليهم في معاقلهم الرئيسية بالمغرب^(٣) خاصة أن صدى انتصارات محمد الشيخ قد تدعى الحدود ليصل إلى مورسكي إسبانيا نفسها، إذ كان لهم أمل

قوي في أن يأتي الشريف السعدي لخلاصهم على أساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى شعروا باقترابه من إسبانيا⁽⁴⁾.

وقد كان رد فعل الإسبان على مستويين :

- مستوى تدعيم الشغور سواء منها الإسبانية أو البرتغالية، وذلك نتيجة تحوف الإسبان من الخطر المغربي، واعتبار الشغور البرتغالية حزام أمن متقدم للدفاع عن شبه الجزيرة الأيبيرية، وتقنون من مراقبة الملاحة في المضيق، وعرقلة الاتصال بين المغاربة ومورسكي غرناطة، والحد من نشاط مجاهدي ططوان وسلا والعرياش⁽⁵⁾.

- على المستوى التجاري : صدر في 29 مارس 1549 أمر ملكي من شارل الخامس يمنع كل العلاقات التجارية بين موانئ الأندلس وموانئ سلا والعرائش وغيرها من الموانئ الخاضعة للحكم السعدي⁽⁶⁾ وقد برر هذا القرار بعدة أسباب، منها :

1 - الاتجاه في القمح يؤدي إلى نقصه بإسبانيا وغلاله.
 2 - تصدير الأثواب والأغطية إلى المغرب يؤدي إلى وفرتها بكثرة وإنخفاض ثمنها، مما يؤدي إلى صعوبة افتتاح الأسرى، لانه يتم على أساس هذه السلع ، وقد سبق في الماضي ان اغرقت أسواق باديس بالأثواب الإسبانية فرخص ثمنها وتأثرت عملية الأفتكاك بذلك ، بحيث وصل ثمن الاسير الذي كان يفتلك سابقا بعشر دوكات إلى مائة وخمسين دوكا.

3 - ستسمح التجارة مع المغرب بتهريب الأسلحة
 4 - حرية التجارة تمكن المغاربة من الاطلاع على تحركات الأسطول الإسباني وعلى الأوضاع داخل إسبانيا.

5 - المورسكيون الذي يتعاطون التجارة مع المغرب «يعودون» إلى دياناتهم الأولى بمجرد التحاقهم بالمغرب⁽⁷⁾.

لكن الأطماع التركية في المغرب افشلت جميع الجهود، واضطربت محمد الشيخ إلى التقرب من الإسبان، بل وطلب المساعدة منهم لمواجهة الأتراك.⁽⁸⁾

وقد أرسل حاكم وهران فعلا إلى فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تبني حملة مشتركة إسبانية مغربية ضد الأتراك⁽⁹⁾.

وقام العثمانيون بأول رد فعل على التقارب السعدي الإسباني، إذ شددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الإسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة للتجددات المتواصلة التي كانت تبعثرها إسبانيا للمدينة المحاصرة.

وقد أرسل الاتراك اثر هذا سفيرا إلى الشيخ يدعونه بالمساعدة لمحاربة المسيحيين شريطة ان يعترف بالسيادة العثمانية^(١٠) وهذا ما يوضحه المؤرخ المجهول قائلاً : «... وفد عليه رسول السلطان سليم صاحب اصطنبول وهو لسعده بملكه وهنئه به ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والخدمة والمليل اليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم . وقد كان ظهر ذلك مع آخر ملوك دولتهم أبي حسون الذي أعطاه أربعة آلاف من جيش الجزائر ودخل بها فاس فسكت عنه ولم يجده بشيء وبقي عنده الى أن طال جلوس الرسول فطلب منه ان يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ : سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان الغرب لا بد أن ينماز عك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه : إن شاء الله ويأتيك الى مصر ...»^(١١).

وأثر هذا الرد أرسل السلطان التركي قوات الى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب ، لكنهم عدلوا عن ذلك نتيجة التقارب السعدي الإسباني^(١٢)

ونتيجة لهذه الظروف : ظروف التقارب المغربي الإسباني ، وتحت ضغط التجار الإسبان ، وخاصة تجار المدن التي تعتمد اعتماداً أكبر على التجارة مع المغرب مثل : قادس ، ومالقة ، وابشبيلية ، فقد صدر مرسوم يسمح بالتجارة مع المغرب لكن في حدود معينة^(١٣) :

- 1 - ألا يسمح بالتجارة مع بادس أو الجزائر إلا بواسطة تصريح خاص.
- 2 - يجب أن يتم التبادل بالنسبة لاسبانيا انتلاقاً من موانيء الأندلس ومالك غرناطة ومرسييه.
- 3 - لا يسمح بتصدير أو الاستيراد إلا البضائع المرخص بها.
- 4 - يمنع دخال البضائع التالية إلى إفريقيا : الذهب والفضة والأسلحة أو أية بضائع أخرى ممنوعة حسب القانون.
- 5 - يشترط على من يذهب إلى المغرب أو الاتجار به ما يلي :
 - أن يكون مسيحياً قدِيماً.

- ألا يكون من أصل مغربي أو يهودي .
- ألا يكون غير مشكوك في تعامله مع المغاربة .
- ألا يكون من الفئات التالية : الضباط ، الصناع في مجال الخشب ، والحديد ، والسفن ، والبارود . . .
- 6 - لا يمكن التجار في المغرب أكثر من سة ، ولا بد أن يقضوا بعدها شهرين على الأقل بإسبانيا
- 7 - تسجل البضائع في الموانئ عند التصدير والاستيراد ، وتؤخذ حقوق الجمارك مسبقا قبل الذهاب ، كما تؤخذ أجراجرة المراقبين .
- 8 - عند اخمام المراقبة والتفتيش يركب المعنيون بالأمر في السفن ولا يغادروها أبدا قبل الإقلاع .

والواقع أن تعدد هذه الشروط تدل على تخوف الإسبان من أن يكون هذه العلاقات التجارية مع المغرب نتائج في المجال السياسي غير النتائج التي كانوا يهدفون إليها ، لأنهم دائمًا كانوا يفرقون بين مصلحة التجار ومصلحة الدولة ، لأن مصلحة التجار الإسبان كانت لا تسير دائمًا مع مصالح الدولة

وفعلا إذا حاولنا أن نقوم بهذه العلاقة فإننا سوف نلاحظ أن هناك حوانب إيجابية وسلبية بالنسبة للإسبان :

- فيما يتعلّق بالحواب الإيجابية نذكر ما يلي :
- اسدى التجار الإسبان خدمات عديدة لدولتهم ، فبواسطة هؤلاء كانت تحصل على ما ت يريد من معلومات عن أحوال المغرب ، كما أن التجارة أخذت كخطاء لتحركات الجواصين والمبوعين السريين الإسبان⁽¹⁴⁾ .
- كما كان بعض التجار يعملون على افتتاح الأسرى⁽¹⁵⁾

أما الحواب السلبية بالنسبة للإسبان فهي متعددة ، نذكر من بينها .

- استغلال عدد من التجار الإسبان لهذا القرار لبيع الأسلحة ، والمواد المنوعة للمغرب⁽¹⁶⁾ .
- استغلال عدد من المؤرثيين لهذا القرار للفرار إلى المغرب ، بل ومحاربة الإسبان أنفسهم في عقر دارهم⁽¹⁷⁾ .

- 2 -

ازداد تقارب المغرب من الإسبان، بل من دول أوروبية أخرى⁽¹⁸⁾ إثر التجاء الأتراك إلى اغتيال محمد الشيخ⁽¹⁹⁾ فقد انتهج ابنه عبد الله الغالب نفس سياسة والده، ويتجلّ هذا بالخصوص في نقطتين :

- احتلال بادس : إذ أطلق يد الإسبان فياحتلاتها خاصة إنها كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته له ضد محمد الشيخ ، ولأنها كانت مثار رعب وخوف بالنسبة له ، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد « . . . وكانت عمارة أهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسي بادس ومسافري أهل الجزائر لا يرکبون إلى المشرق أو المغرب إلا من بادس ولا تنقطع معها عارة الترك في كل أوان فما هم مولايا عبد الله منذ ذلك وقت منه وخفف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب إلى سلطان النصارى واتفق معه أن ينحني له الادلة من حجرة بادس وبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية . . . »⁽²⁰⁾ .

بالإضافة إلى هذا فإن الإسبان كانوا يدركون فعلاً الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزرية ، فهي أقرب نقطة مغاربية إلى جبل طارق ومالة ، وكانت مصدر قلق بالنسبة لهم إذ كانت مقراً للمجاهدين البحريين الذين كانوا يلتحقون خسائر فادحة حتى بالسفن التجارية الإسبانية.⁽²¹⁾

- موقف عبد الله الغالب من ثورة المورسكيين بغرناطة (1568) :

يقول المؤرخ المجهول وهو بتصدي الحديث عن ثورة المورسكيين بغرناطة : « . . . فصغاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم ينشدونهم الله في الأغاثة وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنّه هو القريب إلى أرضهم . . . فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا مع النصارى ليثقب بهم في قوطم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصارى ترافق عما وعدهم به من الأغاثة وكذب عليهم غشاً منهم ولذين الله عز وجل ومصلحة ملكه الرائل . . . » .⁽²³⁾

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للمورسكيين في ثورتهم يذكر نفس المصدر : «... وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات...»⁽²⁴⁾.

وهكذا فقد التجأ السلطان السعدي إلى التقارب في سياسته مع الإسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، إذ كانت علاقته مع الإسبان تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الاطماع التركية أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة : اما التنازل عن نقط معينة للإسبان وغيرهم أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك.

- 3 -

سوف تتكرر الأحداث بنفس النسق تقريباً في عمل أحمد المنصور الذهبي فقد واجه الأتراك بعنف وهو في أوائل حكمه.⁽²⁵⁾ بل وأعطيت الأوامر إلى علوج علي قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب، وقد وصل القائد بالفعل إلى الجزائر في يونيو 1981 بينما كان المنصور يرابط بقواته جراة عند نهر تانسيفت.⁽²⁶⁾ وهذا ما جعله يتربّع أكثر من الإسبان، بل ويعدهم بالتنازل عن العرائش⁽²⁷⁾.

وسيكون لهذا التقارب أيضاً تأثير على القضيتيين الأساسيةين :

الثغر المحتلة : ألح العلماء على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل تحرير الثغر المحتلة، فهذا الشيخ، رضوان الجنوي - مثلاً - يذكر في رسالته موجهة للمنصور : «... وإلى هذا فالله، الله في الحزم وامضاء العزم وهو ما ظهر لرعايتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلاً وسبعة فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وذلان بها أمكن الله منهم، ولا أظن - نصركم الله - مثل هذا يخفى عليكم حتى تحتاج أن نذكركم به ...»⁽²⁸⁾.

لكن المنصور لم يستطع أن يفعل أي شيء يؤدي به إلى الارقاء بين أحضان الأتراك، لهذا فضل التريث والمناورة.

- أما فيما يتعلق بالقضية المورسکية فمن الطبيعي أن يكون أيضاً تأثير لهذا

التقارب على المورسكيين بإسبانيا، ففي صيف عام 1580 اكتشفت مؤامرة مورسكسية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين أفشوا سرها للإسبان⁽²⁹⁾ فتحالف المورسكيين مع الاتراك، كان يجعله دائياً حذراً منهم.

وخلاصة القول : لا يمكن فهم العلاقات المغربية الإسبانية خلال هذه الفترة إلا من خلال العلاقات المغربية التركية كعنصر مؤثر فيها بدليل أن هذه العلاقات ستعزز وجهة أخرى حين اختفاء التهديد التركي للمغرب ، وحين هزيمه الإسبان في معركة الارمادا ضد الانجليز في 10 غشت 1588 .

إذ سيلتجيء المنصور إلى التحالف مع هؤلاء ضد الإسبان ، وسوف يسعى جاداً لتحرير الثغور المغربية ، وتقديم المساعدة للمورسكيين داخل المغرب وخارجـه .⁽³⁰⁾

هو امش

(*) اعد برسم الستة التكريمية للأساذ محمد حجي (كلية الآداب بارباط، 1990) وقد ستر بمحلة المنهل العدد 38، سنة 1989، ص 184 - 193.

- (1) تكشف التقارير والرسائل التي بعثها حاكم وهران الإسباني الكونت الكروبي إلى حكومته عن أن محمد الشيج كتب إلى ماش الحرائر واقترح عليه القيام بعمليات مستردة لفتح وهران والمرسى الكبير، وأنه بعث بهدايا إلى درعوت باتنا يقترح عليه كذلك الدخول في حرب ضد إسبانيا
انظر : المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، إسبانيا السلسلة الأولى . 1 . 246
(2) المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، إسبانيا ، السلسلة الأولى ، 1 . 242
(3) انظر محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص 164
(4) نفس المصدر والصفحة .

R Ricard, les places portugaises du Maroc et le commerce d'Andalousie in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales 1983, Alger, T VI page 131.

- (5) المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، إسبانيا ، السلسلة الأولى ، 1 / 214
(6) المصدر السابق 1 . 57
(7) المصدر السابق 1 . 270
(8) المصدر السابق 2 . 2
(9) المصدر السابق 2 . 181
(10) المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، إسبانيا ، السلسلة الأولى ، 2 . 42
(11) لأن تحفظ الإسبان ظل قائما رغم الظروف المستحدثة .
(12) المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، إسبانيا ، السلسلة الأولى ، 1 . 307
(13) المصدر السابق 4 : 46
(14) المصدر السابق 5 : 86
(15) المصدر السابق 5 : 87
(16) محمد رزوق ، المصدر السابق ، 88 - 89
(17) تراجع عن تحرير المخطبة (الحديقة) بعد أن اقترب المجاهدون من تخلصها من أيدي البرتغال ، كما تنازل للفرنسيين عن القصر الصغير .
(18) أبو القاسم الرياني ، الزجان المغرب ، مخطوط لخزانة العامة بالرباط رقم 658 د ، ص 347
(19) تاريخ الدولة السعودية ، ص 36
(20) انتظر الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، 254 - 253
(21) مارمول كاريغال ، إفريقيا ، 2 : 243 - 240 .
(22) عن تفاصيل هذه التوراة ، انظر . محمد رزوق ، المصدر السابق 92 - 103 .
(23) تاريخ الدولة السعودية ، ص 37 - 38 .
(24) المصدر السابق ، 38
(25) انظر محمد رزوق ، المصدر السابق ، 187 - 178
(26) عبد العزيز الفتتالي ، منهل الصفا ، ص 61 .
(27) كان الإسبان يدركون جيدا الأهمية الاستراتيجية لهذا المقهى الهام بالإضافة إلى أنها كانت كمنطلق للعمليات الجهادية التي كان يقوم بها المحاهدون البحريون ضد السفن التجارية الإسبانية
انظر المصادر غير المشورة لتاريخ المغرب ، الأرضي المحفضة ، السلسلة الأولى ، 194 - 191 . 1 .
(28) أحمد الرياني ، مخطبة الأخوان ، مخطوط لخزانة العامة بالرباط رقم 154 ث ، ص 423 - 424 .
(29) محمد رزوق ، المصدر السابق ، 181
(30) المصدر السابق ، 186 - 187 .

دو، الكناشات في الكتابات التاريخية المغربية (*)

كثيراً ما ردد الباحثون انتقادهم للوثائق الرسمية من حيث أنها لا تفي في معرفة ملامح الحياة العامة، وأنها تقتصر فقط على علاقات السكان بالدولة. وأشاروا الانتباه إلى صرورة البحث عن مصادر أخرى لاستجلاء تلك الملامح، واتجه نظرهم في هذا الشأن إلى الوثائق الخاصة التي تحتفظ بها بعض الأسر، وهي تتكون من عقود الانكحة، والطلاق، والخلع، وملكية الأرض، ووالرهان، والبيوع وجرائم الشركات وضوابط عدد من المعاملات المتعددة الوجوه كشركات الفراص، والسلم، والسلف وغيرها. وقد سبق أن أكد جاك بيرك - مثلاً - على أهمية هذه الوثائق الخاصة ولاحظ مدى حرص ناس جبال الأطلس على كتابة معاملاتهم، كما سبق أن استغلها في أبحاثه في منطقة سكساوة. (1)

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نعثر فيها على إشارات تاريخية هامة تتعلق بالمواليد والوفيات والقحط والمجاعات، والأوبيعة وتاريخ تعيينات حكام القبائل أو صراعات الجماعات إلى غير ذلك من الأحداث المحلية وحتى العامة في بعض الأحيان وغالباً ما نجد هذه الوثائق عند ورثة القواد والشيوخ والطلبة والمرابطين والقضاء والعدل والكتاب المخزنين وحفظة وثائق القبائل وأعراها. وقد كان عدد من الروايات والأسرحة في الماضي مستودعاً أميناً للوثائق، ولو لا التفريط في بعض وداع هذه الروايات لكان بمتناهية أرشيف محل.

وسوف نحاول أن نتناول بالدرس نوعاً واحداً من هذه الوثائق الخاصة، ألا وهو الكناشات، لتبين الدور الذي يلعبه هذا النوع من الوثائق في الكتابات التاريخية المغربية خاصة أن المغرب يتتوفر على رصيد مهم منها موزع بين المخزائن الخاصة والعامة. (2) وقد أكد ذلك أيضاً محمد المختار السوسي بقوله : « وما أكثر أمثال هذه الكناشيش عند العلماء» (3)، وذكر عبد السلام بن سودة أنه كان يتتوفر على أزيد من أربعين كناشاً في خزانته الخاصة. (4)، ووصف أزيد من 56 كناشاً في كتابه. (5)

مفهوم الكناشة :

الكناشة مذكورة يسجل فيها الشخص ما وقع له من الأحداث، أو كان شاهد عيان على وقوعها، كما يدون فيها ما نظمه من الأشعار، أو ما راج بينه وبين أقرانه من مساجلات أدبية، أو مناظرات علمية إلى غير ذلك... وكثيراً ما توجد للفرد الواحد عدة كنانيش لسعة اطلاعه ووفرة مباحثه⁽⁶⁾، وما يدل على اهتمام المغاربة بهذه الكنانيش أن كثيراً من العلماء لا نجد لهم تأليف في موضوع معين ولكن نجد لهم عدة كنانيش تضم خلاصة أبحاثهم.

وتنتشر هذه المذكرات بالشرق أيضاً، غير أنهم يطلقون عليها في الغالب اسم آخر (التذكرة)، مثل تذكرة ابن خلدون، وتذكرة ابن مكتوم وتذكرة الصافي.⁽⁷⁾

وهكذا فقد أصبح لفظ كناشة اسم مغرياً صميماً، كما يشير إلى ذلك شارح القاموس بقوله : «... ومنه الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر، تقييد فيها الفوائد والشوارد للضبط، هكذا استعمله المغاربة، واستعمله شيخنا محمد بن الطيب الشركي»⁽⁸⁾.

كما أكد ذلك دوزي أيضاً : «والكناشة عند المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد»⁽⁹⁾.

ولم يستعمل هذا اللفظ (كناشة) أيضاً في الأندلس، وإنها يذكر لسان الدين ابن الخطيب اسم الكناش - بالتذكير - للدلالة على موضوعين من مؤلفاته.⁽¹⁰⁾

ظهور الكناشة بالغرب :

لا يعرف - بالضبط - تاريخ ظهور هذه المذكرات بالغرب، وأقدم كناشة مذكورة كانت لعبد الرحمن الجادري (ت. 818 / 1415 - 1416)، إذ وقف عليها أبو حامة محمد العربي الفاسي (ت. 1052 / 1642) وأفاد منها في بعض مؤلفاته.⁽¹¹⁾

ومن المؤكد أن هذه التسمية بدأت تنتشر منذ الفترة الوطاسية، وهكذا استعمل اسم الكناش عنواناً للترجمة الذاتية التي كتبها لنفسه أبو العباس أحمد زروق (ت. ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ - ١٤٩٤) ^(١٢) ويأتي بعده عبد الواحد النشرسي، إذ ورد على أنه خلف عدد من الكناشين ^(١٣)، وكذلك الشأن بالنسبة لعبد الرحيم سقين (ت. ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩) [.]

الكناشات في العهد السعدي :

يعتبر العصر السعدي فترة انتظام أكثر لهذه المذكرات، وهكذا فإن المنجور يشير في طالعة فهرسته ^(١٤) إلى مجموعة من كناشيه، كـأـنـأـمـدـبـاـباـالـتـنـكـتـيـ يـصـفـ الـكـنـاشـاتـ مـنـ بـيـنـ مـصـادـرـهـاـ مـؤـلـفـاتـهـ ^(١٥) وـنـشـيرـ أـيـضـاـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ إـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ قـاسـمـ الـقـصـارـ الـقـيـسـيـ (ـتـ.ـ ١٠١٢ـ /ـ ١٦٠٤ـ)ـ الـذـيـ كـانـ كـثـيرـ التـقـيـدـ فـيـ بـطـاقـاتـ تـرـكـةـ مـنـهـ أـعـدـاـ وـفـيـرـةـ،ـ وـصـارـتـ بـعـدـ وـفـاتـهـ تـبـاعـ بـالـأـرـطـالـ ^(١٦)ـ وـمـعـتـذـيـ حـدـوـ الـقـصـارـ نـخـبةـ مـنـ طـلـابـهـ،ـ مـنـهـمـ عـبـدـ الرـحـمـانـ الـفـاسـيـ ^(١٧)ـ،ـ وـأـبـوـ حـامـدـ مـحـمـدـ الـعـرـبـيـ بـنـ أـبـيـ الـمـحـاسـنـ يـوسـفـ الـفـاسـيـ،ـ وـكـانـ لـهـ مـنـ الـاعـتـنـاءـ بـتـقـيـيـدـ شـوارـدـ الـفـوـائـدـ مـاـ لـمـ يـكـنـ لـغـيرـهـ،ـ حـتـىـ أـنـهـ يـكـونـ رـاكـبـاـ فـيـ السـفـرـ فـيـنـذـكـرـ مـسـأـلـةـ يـبـدوـ لـهـ فـيـهـ جـدـيدـ،ـ فـيـوـقـفـ فـرـسـهـ حـتـىـ يـسـجـلـ مـاـ عـنـ لـهـ فـيـ الـوقـتـ ثـمـ يـتـابـعـ السـيرـ ^(١٨)ـ،ـ وـيـقـولـ عـنـ الـحـسـنـ الـبـيـسـيـ أـهـ كـانـ مـنـ دـأـبـهـ مـتـىـ لـقـىـ اـنـسـانـاـ يـسـأـلـهـ مـنـ أـيـ بـلـدـ هـوـ؟ـ وـمـنـ بـلـدـ مـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ وـالـصـلـاحـ وـالـأـعـيـانـ،ـ وـيـقـيـدـ ذـلـكـ كـلـهـ ^(١٩)ـ.

وقد عرف العصر العلوي نفس الاهتمام بهذه الكناشات ^(٢٠) .

بعض مميزات هذه الكناشات :

- تسجل فيها المقيدات بدون انتظام ، إذ يدون فيها صاحبها ما يهمه حسبياً اتفق له ، وهذا لم تكن مبوبة في الغالب ، وقليل منها يصدر بفهرس للكشف عن الموضوعات ، وقد يتداول كتابتها أكثر من واحد.
- من حيث الخط : خطها على العموم من النوع السريع الدقيق المدمج ، وفي غالب الأحيان تكون هذه الكناشات بخطوط أ أصحابها.
- من حيث موضوعاتها : تعكس في الغالب اتجاه أصحابها ، فيغلب - الفقه على مقيدات الفقيه ، والأدب على مقيدات الأديب ، والتصوف على مقيدات المتصوف ، والتاريخ على مدونات المؤرخ وهكذا

- غالبية هذه المدونات لا تحمل اسم صاحبها أو أصحابها بطريقة واضحة، وإنما يستخرج ذلك عرضا من ثنيا المقيّدات، أو بواسطة مقارنة الخط.
- من مزايا هذه الكناشات أنها قد تتعود بإفاداتٍ تاريجية متعددة، وربما تكون غير معروفة بالمرة، فتكتشف عن معلوماتٍ جديدة: في موضوع الترجمٌ أو أحداثٍ مجهولة يجيئها شاهد عيان، أو افتباياتٍ من مؤلفاتٍ صارت ضائعة، وأحياناً يقع العثور على حقائق لم تكن إذاعتها ميسورة في حياة مدونها، هذا إلى أن عدداً من هذه المقيّدات يستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها كلاً أو بعض.

هل يعتمد المؤرخ كل ما ورد في هذه الكناشات؟

إذا كان من وظيفة المؤرخ لا يحمل أي مصدر يمكنه من الاستفادة في التاريخ لقضية من القضايا التاريجية، فإن هذا يجب لا يجره إلى الأخذ بكل ما وجد بين يديه ويعتمده في صياغة رأيه تجاه الموضوع المقترن بل لا بد أن يضع أي شيء يتم بين يديه تحت ميزان النقد والتحميس. كذلك الشأن بالنسبة للكناشات فيجب أن تخضعها لمعايير معينة تساعدنا على الخروج بتصور واضح حولها،⁽²¹⁾ وهذا ما نلاحظه بالفعل عن مؤرخي المغرب القدامى، إذ لم يكونوا يعتمدون إلا على الكناشات الموثوقة بصحتها لاثبات حقيقة أود شبهة، فالافرانى يصنف كناشة أبي زيد التمناري ضمن مصادر كتابه صفوة من انتشر (ص 228)، ومحمد بن الطيب القادري يسجل انه رجع الى كثير من الكناشيش الموثوق بها،⁽²²⁾ فهو ينقل - مثلاً - عن كناشة أبي العباس أحمد بن أبي عسرية الفاسى،⁽²³⁾ ويقول أبو الربيع الحوات عن كناش محمد العربي القادري : «طالته وقیدت منه في هذا الموضوع وغيره . . .»،⁽²⁴⁾ كما استفاد من هذه الكناشات أيضاً عدد من مؤرخي القرن الحالى مثل ابن زيدان ، ومحمد الكانوى ، ومحمد بن علي الدكالى ، والعباس بن ابراهيم ، ومحمد المختار السوسي ، ومحمد داود . . .

نماذج من موضوعاتها :

- كناشة محمد بن قاسم الزجالي الفاسى (ت 1072 / 1552)⁽²⁵⁾ وهي ملأى بالقصائد والمقطوعات لادباء من العصر السعدي فضلاً عن أشعار من الفترة الوطاسية ، وبعض هذه الأدباء لا يعرف إلا من خلال هذه المجموعة ، وتبدو أهمية هذه المجموعة إذا لا حظنا أن ترجمة صاحبها في المصادر المعروفة لا يتعدى بضعة أسطر⁽²⁶⁾ في حين تسد هذه الكناشة بعض الفراغ في حياته فتذكر أساتذته وتشير إلى رحلته الدراسية إلى القاهرة ، وبعض من أخباره بصفة عامة .

تقع هذه الكناشة في 96 صفحة مكتوبة بخط صاحبها - على الأرجح - وهو خط مغربي دقيق منهج ، ليس في بدايتها مقدمة ولا في نهايتها خاتمة ، وليس فيه أيضا ما يدل على النقصان . وتشتمل هذه الكناشة على نحو ألف بيت من مختلف بحور الشعر المعروفة ، قصائد وموشحات في عصر أحمد المنصور الذهبي ، وهم على الشكل الآتي :

ملكان - وفقيهان - وأربعة عشر مشاركا في علوم مختلفة إلى جانب الأدب والشعر - وأربعة عشر أدية صرفا ، من بينهم أدباء مغمورون أو مجهولون تماما⁽²⁷⁾ . - كناشة في شؤون بحارة العدويين ،⁽²⁸⁾ إبتداء من شعبان 1183 / 1769 .

وهي تشتمل على لوائح بأسماء بحارة مدینتی الرباط وسلا وما يتقاضونه من الأجور، وهو أمر بالغ الأهمية إذا علمنا أن المصادر التاريخية تغفل عن ذكر عموم البحارة وتكتفي بذكر قادتهم المشهورين فقط ، ولا يتعرض في الغالب لا جورهم⁽²⁹⁾ . - كناش «مرسى العرائش» ابتداء من تاريخ 3 رجب 1334 .⁽³⁰⁾ . - ثلاثة كنانيش لمرسى الصويرة تهم الفترة المتساوية ما بين 1318 و 1319 .⁽³¹⁾

ومن الكناشات المهمة كذلك كناشة الطيب بوعشرين يتراوح تاريخها بين أعوام 1276 إلى عام 1261 هـ .

وهي تشتمل على 114 ورقة متوسطة الحجم ، وتتضمن من مجلة ما تتضمن :

- تقاييد لخلافات بعض القواد
- أسماء قواد نواحي زعير ودرعة وزمور وغارة والريف وبني زروال.
- عملية احصاء المزروعات بشرق مدينة فاس.
- تقاييد امكاس الموازين والأبواب .
- ما تدفعه قبائل الحوز من القمح إلى المراسي.
- رسالة في موضوع رفع الحظر عن تسويق الصوف والحبوب إلى الخارج .⁽³²⁾

وبعد هذه نظرة سريعة عن الكناشات ودورها في كتابة تاريخ المغرب حاولنا إشارة الانتباه إلى أهميتها ، ونعتقد أنه من الضروري إحصاؤها وتجميعها وفهمها الموجودة منها في المكتبات العامة ، ومحاولة جلب ما هو عند الخواص ليوضع هو الآخر رهن إشارة الباحثين ، وأرى من جهة أخرى أنه آن الأوان لنوجيه الباحثين الشباب إلى مثل هذه الوثائق الخاصة عوض توجيههم لدراسة مواضيع تقليدية قتلت بحثا ، بل وتكرر ما سبق أن درس .

هو امش

- (*) اعد برسم الندوة التي نظمت بالحائز (نوفمبر 1988) في موضوع : «المصادر والوثائق الخاصة» - Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut-Atlas in A.E.S.C 1953 PP 289 - 314
- (1) محمد المنوفي، «الكتابات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية»، مقال مجلة المناهل، الرباط، مارس 1975، ص 210.
- (2) سوس العالة، ص. 219.
- (3) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، 2 - 462 .
- (4) المصادر السابقة، 2 - 461 - 470 .
- (5) وقف عبد السلام بن سودة على أزيد من عشرة كنائش للحافظ أبي عيسى المهدى بن الطالب اظر المصادر السابق ، 2 - 462 .
- (6) هناك لائحة مفروضة لهذه التذكرة عند حاجي حلبة في كشف الظنون، 1 . 394 - 383 .
- (7) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، 4 : 347 .
- (8) ذيل المعاجم العربية، 2 : 294 .
- (9) هنا : أرجوته الالمية في أصول المقهى الحال المرقوم، في المعلم المنظومة. ورسالة مثل الطريقة في ذم الوثيقة.
- (10) انظر تقاضة البراء، ص 187 - 188 .
- (11) شرحه على دلائل الحبرات للجزولي، مخطوط بالجزائر العامة بالرباط، رقم 1532 ، ص 113 .
- (12) قام بتحقيقه أحيرياًباحثي الدكتور علي فهمي ختيم وقد صدر بلبيسا في بداية الثمانينيات.
- (13) فهرس أحمد المجرور، ص 50 .
- (14) فهرس أحمد المجرور، ص 10 .
- (15) نيل الابتهاج، ص 361 .
- (16) محمد الأفراني، صحفة من انشر، ص 18 .
- (17) محمد الأفراني، المصادر السابق، ص 71 .
- (18) المعاصرات، 72 .
- (19) انظر محمد المنوفي المصادر السابق، ص 200 - 201 .
- (20) للقدماء رأي خاص في موضوع القلم من الحواشي والطرر المدونة على هامش الكتب. فالشهاب القرافي يمنع بالمرة اعتقاد هذه التعليقات الكتبية بهامش المؤلفات، لكن ابن فرجون يجلل نظرية سائر التصانيف» تبصرة الحكماء، 1 : 59 .
- (21) شر المثاني، 1 : 323 .
- (22) شر المثاني، 3 : 158 .
- (23) السر الظاهر، المزمعة 18 ص 3 . طبعة حجرية.
- (24) يوجد الأصل في ملك الاستاذ محمد الفاسي، وتتوارد منها مصورة بالجزائر العامة بالرباط عدد 67 .
- (25) انظر مثلاً - تشر المثاني، 2 : 127 .
- (26) انظر مزيداً من الإضاح عن هذه الكاشة، محمد حجي، كاشة أدبية مغربية ضمن أعمال ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى، ص 281 - 295 .
- (27) الاصل بالمكتبة الناصرية بسلا، ومنه مصورة بالجزائر العامة بالرباط رقم 1409 في 160 لوحة .
- (28) استقادي بدورنا من هذه الكاشة عند إعدادنا لأطروحتنا حول الاندلسيين وبهادهم البحري بالغرب .
- (29) الجزانية الصبيحية بمدينة سلا، دون رقم .
- (30) نفس الجزانية .
- (31) انظر مزيداً من الإضاح عند محمد المنوفي، المصادر السابق، ص 209 - 210 .

**ملحق لبعض الكنانيش الموجودة
بالخزانة العامة بالرباط**

* * *

اسم الكناشة	مؤلفها أو جامعها	رقمها
كتاشة السودية	محمد بن محمد بن سودة (ت. 1122/1710 د)	163
كتاشة البرنسى	إبراهيم بن محمد البرنسى (ت. 1130/1717-1718 د)	1056
كتاشة الحافسى	أحمد بن محمد بن عاشر عبد الرحان السلوى (ت. 1750-1749/1163 د)	1044
كتاشة العيلالي	محمد بن العربي بن أخذ	911 ك
كتاشة بنيس	محمد بن أخذ الفاسى (ت. 1213/1799 د)	3303 ك
كتاشة المنجرة	أبرىكر بن محمد الحسنى (ت. 1824/1240 د)	464 ك
كتاشة الغردبس	عبد العزير	1081 ك
كتاشة السريفي	أحمد بن عبد السلام	1182 ك
كتاشة السرغيني	محمد بن المعطي المراكشى (ت. 1296/1878 د)	491 ك
كتاشة ابن حلون	محمد المدنى بن علي (ت. 1298/1880 د)	29 ك
كتاشة الصقلي	محمد بن أحمد الحسينى الفاسى	480 ك
كتاشة ابن الفقيرة	عبد الواحد بن محمد الانصارى	158 د
كتاشة بشقرن	عالل بن أحمد	469 ك

العلاقات العربية الأفريقية في القرن السادس عشر^(*) (الوجود المغربي بالسودان الغربي كنموذج)

إن العلاقات العربية الأفريقية ينظر إليها اليوم بطراً خاصة منبثقة من المكونات السياسية والاقتصادية والثقافية التي يعيشها كلاً الطرفين. إننا اليوم حينما نظر إلى هذه العلاقات نظر إليها على أنها علاقات جديدة منبثقة أساساً من علاقات مصلحية بين الطرفين، فالعالم العربي يعرّض مساعدته على أفريقيا مقابل مواقف معينة لهذه الأخيرة تجاه القضايا العربية، وهذا فعلاً ما تشجع عليه الدوائر الاستعمارية لأنها هي نفسها يمكن أن تستغل هذا العامل لصالحها. فلم يلتفت بعدها، إلى الجوانب الأخرى غير الاقتصاد لبعث هذه العلاقات وخاصة دراسة التراث العربي بأفريقيا، فهذاالت بصمات الوجود العربي بأفريقيا موجودة إلى يومنا هذا. وماراً الأفارقة ينظرون نظرة خاصة إلى العرب مؤهلها التعاطف والتضامن. إنما نقصد من كل هذا الرجوع إلى التاريخ لاستخلاص التجربة، ولدراسة الوسائل التي استخدماها العرب لتركيز وجودهم بأفريقيا. إن العرب القدامى استطاعوا بإمكانياتهم الضعيفة أن يركزوا وجودهم بأفريقيا وإلى يومنا هذا، في حين ظل الاستعمار هامشياً رغم ضخامة وسائله وطول فترة، لأن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء المنطقة، فهم يتاجرون وينشرون الإسلام واللغة العربية، ولم يطبع أي هدف على الآخر، في حين كان للاستعمار هدف واحد فقط هو الاستغلال الاقتصادي للمنطقة مما نفر منه الأفارقة. وحذار أن نقع في نفس الخطأ فنهملتراثنا الفكري هناك لنركز في إقامة هذه العلاقات على الجانب الاقتصادي فينظر إلينا الأفارقة ببعض النظرة التي كانوا ينظرون بها إلى المستعمر القديم.

وعلى كل فاننا ستعرض لتجربة من التجارب التاريخية التي مرت بها العلاقات العربية الأفريقية ألا وهي تجربة الوجود المغربي بالسودان الغربي وهي تجربة تميز بتدخل المكونات الاقتصادية والفكرية لتفرض نموذجاً خاصاً من نماذج العلاقات الأساسية بين الشعوب.

١ - دوافع فتح السودان : الجهاد كعامل أساسى لتركيز الاسلام هناك
تعددت العوامل التي أدت بالغرب إلى فتح السودان ، وهي تتراوح بين العوامل
الاقتصادية والدينية والدولية ، لكننا سوف نقتصر في هذا العصر على جانب الجهاد
لأنه يبرز أهمية الدور المغربي في إنقاذ السودان ، وذلك ما سنحاول أن نبرره في النقاط
الآتية :

- قامت الدولة السعودية على الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي ، ومن هذا المنطلق
كانت عملية فتح السودان من ضمن المهام المنوطة بها دينياً ووطنياً .
- كانت هذه العملية كرد فعل مباشر ضد سقوط الأندلس ، وما كان يعانيه من
تبقي من المسلمين هناك ، لذلك فلا غرابة أن نرى وقوف الأنجلسيين المطرودين
والغاربة صفاً واحداً لفتح السودان ، لتركيز الاسلام به .
- الوجود الأجنبي بالسواحل المغربية ، وتطلع أوروبا المسيحية إلى جولة انتقامية
فوق البر الأفريقي .
- المستعمرات البرتغالية تجاه ساحل السنغال ، والمركز الاسباني في جزر
الكناري يحملان أحاطار الاحتلال الأوروبي لأراضي واقعة في بلاد الاسلام
وستوجب حمايتها والجهاد من أجلها .

وبالاضافة إلى ذلك فقد كان أحد المنصور الذهبي (1578 - 1603) يهدف
من وراء ذلك أيضاً إلى استغلال خيرات السودان للجهاد في إسبانيا وإرجاعها إلى
حظيرة العرب كما تدل على ذلك إشارة مؤرخه عبد العزيز الفشتالي في تبريره
لاستغلال خيرات السودان : (... للاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين
والاجلاب عليه بحول الله في عقر داره ...)^(١) . والجدير بالذكر أن فكرة فتح
السودان لم تكن لتنقل بسهولة لدى مستشاري المنصور ، وذلك لسببين :

- ١ - عامل طبيعي ويتمثل في الصحراء القاحلة التي سوف تعرّض الجيوش كما
صرح بذلك مؤرخه : (اعتراض المفاوز البيد ، والمجاهل والقفار ، التي لا تشتمها
الرفاق القلائل ، إلا بعد عصب الريق ، واللافلات من مخالب المملكة ...)^(٢) .
- ٢ - لم تفكرا أيّة دولة من الدول السابقة في غزو السودان بالرغم مما اتصف به
بعضها من : (وفور الأجناد وامتداد ظل السلطان ... ولو كان ذلك في طرق
إمكانهم لكان همّهم الذي يسع إليه هو ابتدارهم ...)^(٣) .
لكن المنصور استطاع أن يقنع مستشاريه مركزاً على نقط عدة منها :

- تفوقه العسكري وما يتتوفر عليه الجيش المغربي من أسلحة فتاكه خلافاً لما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التي لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الراحة وعصائب الرماة الناشبة . . .) ⁽⁴⁾.

- توفر المغرب على قواعد الانطلاق نحو السودان في كل من توات وتيكورابن .
- توفر المنطقة على موارد اقتصادية ضخمة . وقد اتخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان ، ويقطعون الفيافي والقفار للوصول إليه مثلاً يمكن الاقداء به ، (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون إليها يعبرونها بأوقدار البضائع الثقيلة ، وأهمال الماء الجمّة بين صدر وورد) ⁽⁵⁾.

وفعلاً فقد نسب الإسبان إلى السواحل الغربية لبلاد السودان لاستغلال خيراتها ، خاصة وأن هذه الأخيرة اضطربت فيها الأحوال بانهざم البرتغال في وادي المخازن وزوال أمبراطوريتهم . وحسب الرسالة التي وجهها الإسباني Moura Mignel إلى Melchoir de Petoney فإن جزيرة Arguine القريبة من الريأس الأبيض ، عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي والمناطق الأفريقية المجاورة لها بلاد غنية بالقمح والشعير والماشية والفاواه ومعادن الذهب وأن أهالي المنطقة يجلبون ذهب بلادهم إلى المغرب أو تموكتو ، فلو قام فيليب الثاني ملك إسبانيا وأرسل سفناً محملة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والأجراس والثياب والمرايا وغيرها لمبادرتها مع الأهالي بالذهب لعاد ذلك بالنفع العميم على إسبانيا بدلاً من ترك هذه الخيرات للمنصور . وقد استولى الإسبان فعلاً على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة ⁽⁶⁾ ، الأمر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور في غرب أفريقيا وببلاد السودان ، ومن العوامل التي جعلته يعجل بالتدخل العسكري في السودان قطع الطريق على الإسبان : (وهو الآن - أيده الله - لهذا المهد من عام سبعة وتسعين وتسعمائة وافق على قدم الأبهة والاستعداد . . . من جهاد المشركين وإغراء أرضهم في الجنوب بعساكره الأمامية . . .) ⁽⁷⁾.

- توحيد المسلمين بغرب أفريقيا :

كان المنصور يرمي بهذا الفتح إلى تجمع كلمة المسلمين في غرب أفريقيا ، وتوحيد قواهم للوقوف صفاً واحداً أمام التهجمات الخارجية التي يمكن أن يقوم بها الإسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يترصّدون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الاستراتيجية التي تحكم في طريق الهند البحري :

(وقد صدنا بها يحصل من ذلك صرف إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق ما نظرناه العلي من العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتنيناها للذب عن كلمة الإسلام وحياطة البلاد والعباد...).^(٨)

وفعلاً فقد أشرف المنصور بنفسه على الحملة، إذ في مطلع شهر محرم لعام ٩٩٩ هـ أخذت الحملة طريقها نحو السودان بقيادة جعفر باشا^(٩) ، وقد جعل له خدمته هيئة استشارية علياً من كبار القواد . (وشد مولانا الإمام... أزر ملكه...) نتقات من كفاته . أولى الدهاء والرأي وذوي النجدة في مضائق الحرب يرجع إليهم في خص ربيده الآراء و مجال المفاوضة).^(١٠)

وقد كانت بلاد السودان حلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العاشر للهجرة (٩٠٠ هـ - ٩٩٩ هـ / ١٥٨١ - ١٥٩١) تعيش أوضاعاً داخلية سيئة كما أكد ذلك المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي . (ثم دللو نعمة الله كفرا، وما تركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا وارتکبوها جهراً) (١١) ومنذ أن وصلت الحملة المغربية إلى (كارابار) على نهر النيل، جددت نداءات الأمان للسودانيين :

(واعتقدوا مع ذلك كل من أمستموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الأقطار السودانية . . . فقد أمناه، ومن أجرموه فقد أجرناه) (١٢) . غير أن تساؤلات عديدة تطرح نفسها ونحن نصدّق تقويم العمل المغربي بالسودان، ويمكن تلخيصها فيما يأتي :

- ١ - مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة.
- ٢ - وما مدى عدالة حكمهم.

كان نداءات الأمان وحسن المعاملة كبير الأثر في تعامل الفئات المختلفة من العامة في السودان مع الفاتحين : (وأخذوا في التمهيد، وتسكين الشارد، وتأمين الطريد، وبسط المدر، وخفض الجناح، حتى اطمأن الفوس المستنة في مجال القلق، واستقررت الأفتدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملا أحشائهم، وأزاغ أبصارهم، وأشكت لرجبه مسامعهم، من أجل حدة الدولة، وثقل الوطأة، وجلال السلطان) (١٣) . ويتالي الأيام ازدادت الصلات بين المغاربة والسودانيين، وتعددت مجالات تعاونهم . (وانحشرت عالم من دهائهم لمشاهدتها، وارتاع لها أقاصيهما وأدائهم) (١٤) .

وإلى جانب الفئات الشعية هناك العديد من حكام المناطق الدين رحوبا بالفاتحين وتعاونوا معهم : (وجاز هو على حاله إليهم ومعه جنكي عبد الله بجيشه سلطان ماسته سلطان سنقر بوب ول بجيشه) ⁽¹⁵⁾ .

وأيد الفاتحين أيضاً عدد من العلماء السودانيين وفي مقدمتهم فاضي ثبوكتو عمر ابن محمود بن عمر، خطيب كاعو محمود رامي ، (وهو شيخ كبير يومئذ) . وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام وأصافهم ضيافة فاخرة كبيرة ⁽¹⁶⁾ .

أما عن مدى عدالة الحكم المغربي في السودان ، فاعتادا على ما أورده المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي في (تاريخ السودان) ، فإن سلوك أغلبية المسؤولين المعاربة كان محمودا : فعدم رفع عبد الله بن شين المحمودي ستوكوه إلى المنصور في شأن إبل له صادرها جودر (ووافقوا ببابل عبد الله بن شين المحمودي فأحد منهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب إلى الأمير مولاي أحمد في مراكش استكاء بما له منهم من الطلم) . وكتب له أن يعطوه ما أخذوا من إبله . ⁽¹⁷⁾ .

وسوف نعرف على عدتهم أكثر عندما يلقي نظرة على المجهودات التي بذلها المعاة لتطوير المنطقة اقتصاديا .

2 - الآثار الاقتصادية للوجود المغربي في السودان :

ليس هنالك من سهل إلى إنكار التطور الذي عرفته الحياة الاقتصادية في إقليم السودان منذ وصول المغاربة وإلى الوقت الذي حل فيه الجيش الفرنسي في تلك الربع. لقد أثر الوجود المغربي في السودان على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنوية للاقتصاد السوداني مما أدى إلى أحداث تغيير حドري في كمية ونوعية الانتاج وفي التصنيع والتجارة وساهمت ظروف الأمن والتنظيم الاداري الجديد والقوانين التجارية في تطوير ونمو اقتصادي كبير.

كان الأثر الأول للوجود المغربي في السودان هو الوحدة الادارية بين أقاليم السودان ، ففي عهد الأسکي الحمسة السابقين للحكم المغربي كانت أمراطورية انسويني إلى وحدها الاسکي الحاج محمد قد تفرقت إلى ممالك وإمارات وأقاليم

إقطاعية، وحتى في فترات السلم والأمن التي كانت تسود تلك الأقاليم في بعض الأحيان، فإن القيد التعسفية التي كانت تفرض على التجارة جعلت انتقال السلع بين جهة وأخرى يكتنفه التعقيد. وتمثلت تلك القيد في فرض الضرائب عند أبواب المدن وأخذ الضرائب، والآثارات الباهظة لخزائن الحكم. ويفضي إلى تحقيق الوحيدة التي حققها المغاربة عودة الأمن والنظام واحتفاء قطاع الطرق الذين كانوا في السابق يواليون السطوة على القوافل البرية والسفين التجارية. والأثر الثاني للحكم المغربي كان تزايد إقبال التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب، فالأوضاع خلقها الزراع المستمر على مناحم الملح انعكست بشكل سلبي على التواصل التجاري بين الجانبين ومع اختفاء ذلك الزراع وأسبابه والأوضاع التي تجت عنده أخذت التجارة في الاتساع والنمو وبدأ الحديث عن القوافل التي تضم آلاف الجمال التي كانت تقطع الصحراء من الجهتين.

والأثر الثالث : تمثل في استيلاء السلطان على مناجم الذهب والملح والنحاس باعتبار أن حكم الشرع فيها يقضي بملكية السلطان لها، ونحن وإن كنا نجهل - بمقتضى ما بين أيدينا من وثائق - الطريقة التي كانت تدار بها تلك المناجم المحروسة بالجيش، فإننا نجزم بأن أمر الاستئجار والنقل والبيع قد شهد تبدلًا جوهريًا، ونستدل على ذلك من ارتفاع قيمة الذهب، والأثر الرابع تحول المعاملات في الحملة عن المقايسة إلى التعامل النقدي ، وهو أمر أثر بكيفية ملحوظة على النمو الاقتصادي في السودان. فذهب السودان لم يكن يذهب كله إلى خزائن السلطان بل كان القسم الأعظم منه يدخل دار السكة في تبوكتو ويضرب مثاقيل ودنانير لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال .

الأثر الخامس : هو إدخال الموارizin والمكاييل والمقياس إلى السودان على يد المغاربة وقد أدى ذلك إلى وحدة المعايير السودانية وخضوعها جميعاً للدقة المطلوبة في ميدان التجارة والمعاملات الأخرى وإلى كبح الغش والتسلس وإسقاط الوساطات والمزيدات التي كانت إحدى عيوب التجارة السودانية القديمة .

والأثر السادس : تنظيم الأسواق المحلية على شاكلة ما كان يوجد في المغرب الشمالي، فيما كانت الأسواق الكبرى تعقد كلها قدمت قافلة أو همت قافلة بالتجهيز إلى الشمال، وكانت الأسواق الصغرى عبارة عن اتصالات بين القبائل للمقايضة ،

أصبحت هناك أسواق يومية في كل المدن الكبرى، وأسواق أسبوعية في القرى تعقد فيها البيوع على أساس التعامل النقدي بضمانة أكيدة وموثقة من بيت المال بتبوكتو.

والاُثر السابع : ظهور الصناعة التحويلية والكمالية على نحو لم تعرف له السودان نظيرًا من قبل ، ولقد كان للأعداد الكبيرة من الصناع المهرة الذين صبّهم جؤزه معه إلى السودان أو الذين تواجدوا بعد ذلك إلى البلاد الأُثر محمود في خلق صناعات جديدة وتحسين الصناعات البدائية التي كانت معروفة قبل مجيء المغاربة إلى السودان .

والاُثر الثامن : تتمثل في نقل بذار وزرروعات جديدة إلى السودان بما في ذلك أنواع من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر، وكذلك في تحسين المزروعات التي كانت موجودة عن طريق تنظيم الدورة النباتية ، واختيار الأماكن الصالحة لكل بذلة واستخدام السماد الحيواني المركب ، وضمن هذا المجال أيضًا ذكر الأعمال الهامة في ميدان الرى وشق القنوات وتحويل روافد نهر النيل التي أنجزها المغاربة ولم تمر على محبيهم إلى تبوكتو سوى بصعة أشهر

هذا ما يتعلّق الآن بالآثار الاقتصادية فهل حدثت آثار فكرية موازية لسائلتها؟ ذلك ما سنحاول أن نتعرف عليه في العنصر المولى .

3 - الآثار الفكرية للوجود المغربي بالسودان :

كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية ومخالف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي ، ولم يكن بجهود الدعاة والوعاظ ولا حلقات العلم في الجماعات من هدف سوي تعريف السودانيين بالأداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة ، ولم تعرف الشعوب التي أسلمت عفًّا الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب لأن المذهب المالكي كان مند عهد المرابطين هو المعتمد بكيفية تكاد تكون شمولية .

ويمكّنا أن نتصوّر ثلاث مراحل عرت حلالها الثقافة الإسلامية العربية إلى المجتمعات السودانية .

المرحلة الأولى : نهض بها الدعوة وسط القبائل والمساجد في المدن واستمرت حتى أواسط القرن الرابع عشر، وكان ما نتج عن تلك المرحلة تعليم سواد الناس العادات والمعاملات والسلوك الديني.

المرحلة الثانية : امتازت بتوسيع العلاقات المغربية والمشرقية مع السودان وانتقل خلاها علماء الفقه والحديث، وجماعة من المهندسين المعماريين إلى مناطق متباعدة في السودان، وأدت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون العربية وخلق مدرسة إسلامية سودانية وبصفة خاصة في مجال علوم الدين من فقه وحديث ومسائل ونوازل.

والمرحلة الثالثة : تبدىء منذ أواخر القرن السادس عشر وقد وسعت المجالات السابقة وصلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وأفاق تمثلت في فنون أدبية أكثر عمقاً وإشراقاً وإبداعاً كالفلسفة والمنطق والتاريخ وأداب الرحلات والشعر.

ويمكن القول بكل اطمئنان بأن المراكز الثقافية الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد حققت نجاحاً كبيراً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الأفريقية⁽¹⁸⁾ ، وسار ذلك الرابط في نطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أدنى مظهر للرفض من طرف الأفارقة الذين أصبحوا ما تعلموه وخبروه جزءاً من كيانهم الخاص ، وهذا ما أطلقنا عليه المدرسة الأفريقية .

ولقد توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب، واستقبلت جامعة القرويين العشرات أيضاً من لمع اسمهم في تاريخ البلدين معاً، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب في مختلف الفنون، وبارت الأساتذة (ملوك السودان) الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعواها واحترموا العلماء والفقهاء، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكم بحيث كان للاسكتي وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه⁽¹⁹⁾ .

ومن أهم رجالات العلم في هذه الفترة الذين أعطوا للثقافة العربية الإسلامية دورها الحاسم في المنطقة نذكر : محمد بن الكريم المغيلي ، وصالح بن محمد أندى

المعروف بالشيخ العمري ، وعبد الله بن أحمد ابن سعيد ، ومحمد عيسى ابن علي التلمساني ، وأبو القاسم التواتي ، وعبد الرحمن ابن علي ابن أحمد القصري . . . إلى غير ذلك من العلماء .

وبعد هذه جملة أحداث سياسية واقتصادية وفككية من شأنها أن تلقي الضوء على فترة من أهم فترات تاريخنا ، فترة كان المغرب فيها ينافس القوات الاستعمارية الكبرى آنذاك (إسبانيا والبرتغال) من أجل إنقاذ نفسه أولاً وتركيز الإسلام ونشر نفوذه بالسودان من جهة أخرى ، وهي فترة قال عنها المؤرخون الاستعماريون الشيء الكثير ، وسموا الوجود المغربي بالسودان في هذه الفترة بأنه احتلال تعسفي ، في حين سموا وجودهم بالمنطقة انطلاقاً من القرن الثامن عشر إلى غاية القرن العشرين عملاً (تحضيرياً) لاخراج الشعوب الأفريقية من ظلامات الجهل والفقر والمرض (الأفريقي) إلى النور (الأوروبي) . وقد حققوا فعلاً من جراء ذلك كل ما أرادوا ، فأزالوا الجهل والفقر والمرض ، لكن ليس من أفريقيا بل من أوروبا ، التي ظلت وحتى بعد خروجها من المنطقة ترفض أية محاولة تخريج الشعوب الأفريقية من دائرة نفوذها .

إن المجهود الذي يجب أن يبذل من أجل دعم وتنمية العلاقات العربية الأفريقية لا يجب أن يرتكز فقط على الجانب الاقتصادي ، بل يجب أن يتعداه إلى استغلال التراث التاريخي المشترك ، خاصة وأن الشعوب الأفريقية ما زالت إلى يومنا هذا تنظر إلينا نظرة خاصة ، فلنستفيد من التاريخ ، وحذر أن نقع في نفس الخطأ فقد ثقة الشعوب الأفريقية فينا .

الهوامش

- (*) تر. هذا البحث بمجلة البحوث التاريخية، ليبيا، العدد 2، 1985 وقد أعيد نشره بمحللة المؤرخ العربي، العدد 31، 1987.
- (1) أنظر عبد العزيز الفشلي، متأهل الصفا، ص 190.
 - (2) نفس المصدر، 126.
 - (3) نفس المصدر والصفحة.
 - (4) نفس المصدر، 127.
 - (5) نفس المصدر والصفحة.
 - (6) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، فرنسا، السلسلة السعدية، 2 . 67 .
 - (7) عبد العزيز الفشلي المصدر السابق، 81.
 - (8) من رسالة المنصور لاسكيلا اسحاق، انظر رسائل سعدية ص 132 .
 - (9) عبد العزيز الفشلي، المصدر السابق، ص 130 .
 - (10) نفس المصدر والصفحة.
 - (11) أنظر عبد الرحيم السعدي، تاريخ السودان، ص 139 .
 - (12) عبد العزيز الفشلي، المصدر السابق، 133 .
 - (13) نفس المصدر، 147 .
 - (14) نفس المصدر، 148 .
 - (15) عبد الرحيم السعدي، المصدر السابق، 162 .
 - (16) نفس المصدر، 141 .
 - (17) نفس المصدر، 139 .
 - (18) أنظر حسن أحد محمود. الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 10 - 11 .
 - (19) محمود كعب، تاريخ الفتاش، ص 73 .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

1 - المصادر السودانية :

- كعut، محمود (توفي سنة 1002 هـ / 1593)
تاريخ الفتاش، في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر ميزونوف، باريس 1964.
- مؤلف مجهول
تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، تحقيق هوداس، باريس 1901 .
- السعدي عبد الرحمن (توفي بعد 1062 هـ / 1652)
تاريخ السودان
المطبعة الأمريكية والشرقية بباريس ، 1964 .
- السوداني أحمد بابا (توفي سنة 1036 هـ / 1627)
نيل الابتهاج بتطريز الدبياج
مطبعة المعاهد بالقاهرة ، 1351 / 1932 .
- معراج الصعود، مخطوط دار الوثائق بالرباط رقم 1079 د.

2 - المصادر العربية :

- ابن القاضي أحمد (توفي 1025 هـ / 1616)
المستقي المقصور على ماثر الخليفة المنصور
دراسة وتحقيق محمد رزوق، جزان، الرباط ، 1986
- الزيانى أبو القاسم (1249 هـ / 1833)
التربجان العرب، عن دول المشرق والمغرب
مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 658 د.
- الفشتالي عبد العزيز (توفي سنة 1031 هـ / 1622)
مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفاء
نشره عبد الله كنون ، المطبعة المهدية بتطوان ، 1964 .
- الناصري أحمد (توفي سنة 1315 هـ / 1897)
الاستقصا، في الأخبار دول المغرب الأقصى
الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء ، 1954 - 1956 الجزء الخامس .

- اليفرني محمد (ت 1140 هـ / 1728 - 27) نزهة الحادى، في أخبار ملوك القرن الحادى طبعة هوداس، باريس 1889.
- الوزان الحسن بن محمد (توفي بعد 957 هـ/ 1550) وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 - 1982.

3 - المصادر الأسبانية :

- كاريغال مارمول ألف كتابه بعد 1571 (أفريقيا الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسي، محمد حجي، محمد زنبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق. أحمد بنجلون. الرباط 1984).

ثانيا : المراجع

- التميمي عبد الجليل «كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا معلمة ببليوغرافية للاعلام المغاربة». مقال بالمجلة التاريخية المغربية، العدد 33 - 34 ، يونيو 1984 تونس.
- الجمل، شوقي : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة 1971 . «أحمد بابا السوداني»، مقال بمجلة المناهل الصادرة بالرباط، العدد 6 ، يونيو 1976 ، ص 144 - 177.
- حركات، ابراهيم المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، الدار البيضاء ، 1978 .
- حجي ، محمد الحركة الفكرية في عهد السعديين جزان، مطبعة فضالة ، 1978 .
- زاهر رياض كشف القارة الأفريقية، القاهرة 1969 .

- زبادية، عبد القادر
ملكة سنغاي في عهد الاسقين، الجزائر، 1971.
- الغربي محمد
بداية الحكم المغربي في السودان الغربي بغداد، 1982.
- كريم، عبد الكريم
المغرب في عهد الدولة السعودية، الدار البيضاء، 1977.

2 - المراجع الأجنبية :

Braudel, F.

- **La méditerranée et le monde méditerranéen**, 4ème édition, 2 tomes. Paris 1979.

Gastries H. de

- La conquête du Soudan par el Mansour, **Hespéris** 1923, trim

Drami, ISSIFOU ZAKRI

- **L'Afrique noire dans les relations internationales aux XVIème Siècle, Analyse**
de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï 257 p. Paris 1982.

Delafosse, M.

- Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges in «**Hesperis**» 2ème
trim. 1924.

الجهاد البحري

في عهد السلطان سيدني محمد بن عبد الله (*)

اهتم السلطان سيدني محمد بن عبد الله اهتماما بالغا بالجهاد البحري⁽¹⁾ وذلك لوعيه بالدور الخطير الذي تلعبه التغور المغربية على المحيط الأطلسي، فاتجحه إلى تبني سياسة دفاعية تهدف أساسا إلى الوقوف في وجه الاطماع الأوروبية. وسناحول في هذا العرض أن نتناول بالبحث جهود السلطان المذكور في سبيل تقوية الأسطول المغربي، واهتمامه بالشغور المغربية وكذا إلى ردود الفعل الأوروبية تجاه أعماله.

أولا : جهود السلطان سيدني محمد بن عبد الله في سبيل تقوية الأسطول المغربي

ترى المقدمة المعاصرة بالعديد من الاشارات التي تهم الموضوع ، فهذا كاتبه وسفيره أحمد بن المهدى الغزال - مثلا يسجل في مقدمة كتابه نتيجة الاجتهداد : «جد - إليه الله - في تهييء المراكب للجهاد، واجتهد وشحنتها بالعدد والعدد، وخصص عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا...»⁽²⁾. وهذا ما سجله أيضا محمد الضعيف الرباطي في تاريخه وهو بقصد الحديث عن منجزات السلطان : «... وأعظم من هذا كله ما فيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد، وقد جمع من ذلك ما لم ينفق لأحد من تقدمه، وسخر الله له السفن في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما...»⁽³⁾. وفعلا فإنه لم يذر وسعا في سبيل تحقيق ما كان يهدف إليه رغم الصعوبات التقنية التي كانت تتعارض به ، فقد قام بتجديده في بناء الأسطول ، وصرف الأموال في سبيل ت تحديث أوراش بناء السفن⁽⁴⁾ ، وكل تفكيره كان متوجه إلى شئين أساسيين : بناء سفن قادرة على مواجهة أهواز المحيط من جهة وقدرة على مواجهة الوحدات البحرية الأوروبية من جهة أخرى⁽⁵⁾.

ومن أمثلة ذلك أنه : «أمر بإنشاء السفينة الكبيرة من طبقتين ، وانفق فيها مالا كثيرا ،

أشهاها بسلا ورئيسها هو الرايس سالم، ولا طلعت وأراد الخروج بها في البحر لم تقدر على الخروج لكبرها إلى أن أفرغ ما فيها وأنخرجها بحيلة . . . »⁽⁶⁾. وهكذا نلاحظ أن المسايء التي توجد بمصبات الأنهر لا تلائم حجم السفن التي كان يريد السلطان بناءها، فالحجر الرملي في الشتاء ومستوى المياه المنخفض في الصيف يمنع الفركاكات المجهزة بالمدافع من التحرك إلا خلال شهرين في السنة فقط⁽⁷⁾. وقد أشار إلى هذا كاتبه أحمد بن المهدى الغزال حيث حدثه عن العائق التي تعرض السفن الجهادية قائلًا: «على أن سفن سيدنا الجهادية مقصورة جهادها على شهرين في السنة لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتذرع الخروج منها قبل فتح الطمسن بالأزمدة الشتوية. وهناك تقرصن وتعود لرساها إلى القابل، وقد استعمل الحكام وأهل الهندسة جدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب، فلم يحصلوا على طائل، وصار العدو الكافر يترك البحر في الشهرين العلومين ويصادر بقمة السنة لينال في ذهابه وإيابه ما منه . . . »⁽⁸⁾.

أما عن كيفية تحهيز هذا الأسطول فنشر إلى أنه كان يحصل عليه عن طريقين :

- الطريق الأول . الاستيراد الماثر من أوربا : «وسخر الله له أجساد الروم، فما يأمرهم بالآتيان بشيء من ذلك إلا بادروا لامثاله مسرعين وقاموا بين يديه سامعين وله مطاعين . . . »⁽⁹⁾ وهكذا فقد بعث السلطان - مثلا - بسفريين من رياض البحر وهو الحاج التهامي المدور الرباطي والعربي المستيري الرباطي ، إلى السويد وإنجلترا فقصد حلب الذخيرة الضرورية لأسطوله.
- الطريق الثاني : الغنائم .

تقوى الأسطول المغربي في هذه الفترة أيضاً عن طريق الغنائم التي كان يحصل عليها المغاربة نتيجة عملياتهم البحرية المتكررة، وهذا ما أشار إليه بكل وصوح محمد الصعييف وهو يصدح الحديث عن أعمال السلطان الجهادية : « . . . تكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وأقبلت عليه الأيام . . . وكان الرايس من أهل سلا والرباط يقتدون عليه بمرakens بالنصرى الأسى في كل سنة، مثل الرايس العربي المستيري والرايس عواد السلاوي والرايس العربي حكم وغيرهم . . . وهؤلاء كلهم بالسفن وكلهم يأتون إليه بسفن الصارى إلى مرakens . . . »⁽¹⁰⁾، ويقول في مكان آخر : « . . . وفـد (السلطان) على رباط الفتح وسلا فوجد الرايس محمد عواد مانطة السلاوي ، والرايس محمد عواد المعروف بقديل السلاوي ، والرايس العربي

المستيري في الحين فغم اثنين من السفن واحدة من جنس البرطقيز والثانية من جنس السويد...»⁽¹¹⁾.

وكان من نتيجة الجهود الجبارية التي بذلها السلطان أن تقوى الأسطول المغربي في عهده وأصبح بإمكانه تقديم المساعدة للأترال العثمانيين أنفسهم : « ثم إن السلطان - نصره الله - سمع بحور الصارى على السلطان ، عبد الحميد العثماني - أىده الله - فأراد إعانته على الروم . وأصدر أمره للحاج المكى على أن يرجع ويهيا لليأس بالسفن هدية من السلطان - أىده الله تعالى - للعثماني ، وأن يقف على السفن بالعرائش ، وصار يمد العثماني بالبارود وملح البارود نحو الأربعة ألف قنطرة بارودا ومثلها ملحًا لطنجة ، ومهمها تسير للعثماني - أىده الله - ... »⁽¹²⁾.

ثانياً : اهتمامه بالشغور المغربية :

كار السلطان سيدى محمد بن عبد الله يدرك حيدا الأهمية الاستراتيجية للشغور المغربية على المحيط الأطلسي ، وذلك نتيجة للاهتمام المتزايد الذي أصبح هذا المحيط في المواصلات الدولية بين أوروبا الغربية وأمريكا وبينها وبين الشرق الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح ، فأقر سياسة دفاعية لتحصين السواحل المغاربة الأطلسية ، وهذا ما أشار إليه سفيره أحمد بن المهدى الغزال قائلاً : « وشرع سيدنا - أىده الله - في عمارة الشغور وتشييد ما هذه منها تتبع الأزمنة والدهور ، وحصلت بها بالعدد الكبير من المدافع والعدد حتى صارت مجموعة من العدو مخوفة من عين حاسد إذا حسد »⁽¹³⁾.

ويمكن هذا العمل من الحصول على نتيجتين أساسيتين :

- تأمين الحماية الالزمة للبلاد .
- الانفتاح على العالم الخارجي بعقد معاهدات وإرسال سفارات إلى دول أوروبا الغربية والشرق الإسلامي .

وهكذا نلاحظ أنه في إطار هذه السياسة قام بناء حصون وتحصين أخرى وتحرير البعض الآخر .

- بناء الحصون :

بناء الصويرة : يذكر الضعيف في هذا الصدد : «وفي سنة تهان وسبعين ومائة وألف أمر السلطان ببناء الصويرة، وحصنتها وأنفق عليها مالاً عظيماً... وفي مهل دي القعدة عام ١١٧٩ هـ قدم الصفار مع مائتي رجل من البحريه بقصد أن يأخذوا الانفاس التي يفاص الجديـد ويذهبون بها إلى العرائش والصويرة...»^(١٤).

ويرجع اختياره جزيرة الصويرة لبناء القلعة الحصينة إلى صلاحيتها للملاحة طوال السنة خلافاً لمعظم الموانئ المغربية الأخرى الواقعة عند مصبـات الأنهار. وقد وصفها وصفاً دقيقاً محمد بن المهدى العزال فـالـثـلـاثـاـ: «ـهـا بـابـاـ شـرـقـيـةـ وـغـربـيـةـ تـسـافـرـ مـنـهـاـ الـقـراـصـيـنـ مـتـىـ شـاءـتـ مـنـ غـيرـ أـنـ فـقـتـرـ لـطـيـبـ هـوـاءـ...ـ وـحـصـنـ أـيـدـهـ اللـهـ -ـ اـخـرـيـرـيـتـيـنـ الدـاـئـرـيـتـيـنـ بـالـمـرـسـىـ كـبـرـىـ وـصـغـرـىـ،ـ بـالـعـدـدـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـادـعـ،ـ وـشـيـدـ هـاـ عـلـىـ صـخـرـةـ دـاخـلـ الـبـحـرـ إـحـكـامـهـ الصـنـوفـ الـهـنـدـسـةـ جـامـعـ،ـ فـالـقـاصـدـ لـلـمـرـسـىـ لـاـ يـدـحـلـهـاـ إـلـاـ تـحـتـ رـمـيـ الـمـادـعـ،ـ مـنـ الـبـرـوجـ وـالـجـزـيـرـةـ،ـ إـذـاـ جـاـوزـ الـمـادـعـ وـحـصـلـ الـمـرـسـىـ لـاـ يـمـكـنـهـ الـخـرـوـجـ مـنـهـ إـلـاـ بـدـلـيـلـ لـهـ بـهـاـ مـعـرـفـةـ وـبـصـرـةـ،ـ فـيـ مـحـصـنـةـ مـحـفـوظـةـ،ـ وـبـعـيـنـ الـرـعـاـيـةـ مـلـحـوـطـةـ...ـ وـقـدـ شـاعـ خـرـبـهـاـ فـيـ سـائـرـ الـأـفـاقـ،ـ وـأـجـعـ الـكـلـ عـلـىـ تـضـيـلـهـاـ وـتـقـدـيمـهـاـ عـلـىـ مـاـ سـوـاـهـاـ بـالـاسـتـحقـاقـ،ـ بـإـبـداـعـهـاـ وـإـنـشـائـهـاـ تـنـايـعـ الـجـهـادـ وـتـوـالـيـ...ـ»^(١٥).

ويدخل في هذا الاطار أيضاً بناؤه لمرسى فضالة سنة ١١٨٦ هـ^(١٦).

- تحصين الشغور :

لم يكتف السلطان ببناء قلـاعـ جـديـدـةـ،ـ بلـ حـصـنـ الـقـدـيمـةـ مـنـهـاـ خـاصـةـ تـلـكـ الـيـ هـاـ مـاـضـ مـعـيـنـ مـثـلـ الـعـرـائـشـ.ـ وـيـذـكـرـ النـاـصـرـيـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ:ـ «ـبـنـىـ طـاـ الصـقـائـلـ وـالـأـرـاجـ وـصـوـنـهـاـ،ـ ثـمـ كـانـ قـدـومـ اـبـنـهـ الـمـولـىـ بـرـيزـيدـ فـيـ هـذـاـ التـارـيـخـ إـلـىـ فـاســ،ـ وـفـيـ رـكـابـهـ حـمـاعـةـ مـنـ رـؤـسـاءـ الـبـحـرـ وـالـطـبـجـيـةـ أـهـلـ الـإـجـادـةـ فـيـ الرـمـيـ،ـ وـكـانـ قـدـومـهـ بـأـمـرـ السـلـطـانـ بـلـرـ المـادـعـ،ـ وـمـهـارـيـسـ النـحـاسـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ بـفـاسـ الجـدـيدـ وـمـكـاسـةـ وـنـقلـهـاـ إـلـىـ تـغـرـ الـعـرـائـشـ فـفـعـلـوـاـ...ـ».ـ وـأـرـادـ السـلـطـانـ أـنـ يـشـرـكـ مـعـهـ فـيـ هـذـهـ الـعـمـلـيـةـ الـقـائـلـ الـمـجاـوـرـةـ:ـ «ـ.ـ.ـ.ـ وـأـمـرـ السـلـطـانـ الـقـبـائـلـ الـذـيـنـ بـالـطـرـيقـ أـنـ يـتـولـواـ جـرـهاـ،ـ

فكانت كل قبيلة تحررها إلى التي تليها . . . ». (19) وقد رحب سكان مدينة العرائش أهلاً بـ تحرير بهذه التحسينات التي تمكّنهم من الدفاع عن مدينتهم : « ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة ، وكان يوم دحولها مهرجاناً عظيماً أخرجت فيه المدافعين والمهاريس والبارود ، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء . . . » (20)

- تحرير الشغور :

عمل السلطان سيدى محمد بن عبد الله حلال الفترة الفاصلة بين سنى 1182 هـ و 1188 هـ على تحرير عدد من الشغور المحالة ، وذلك بعد أن تمكّن من إقرار الأمن الداخلى ومن تدعيم أسس وحدة البلاد . وهكذا فقد توجه بنظره إلى تحرير البرجية عام 1182 هـ ، وكذا إلى محاصرة مدينة مليلية خلال عامي 1185 - 1188 هـ .

- تحرير البرجية :

لقد حاول المغاربة ومنذ أن احتلت من طرف البرتغال تحرير المدينة سواء على الصعيد الشعبي أو على الصعيد الرسمي ، فعل الصعيد الشعبي يكفي أن نذكر أن المدينة كانت محاصرة باستمرار من طرف مجاهدي دكالة وغيرهم ، بل وأقيمت نقط الريوبون على المدينة . أما على الصعيد الرسمي فنذكر المحاولات الآتية :

- محاولة محمد الشيخ السعدي ، لكن الضغط التركي اضطره إلى مهادنة القراب البرتغالية والإسبانية بالسواحل المغاربية لمواجهة التدخل العثماني بالغرب .

- محاولة عبد الله الغالب . إذ كادت المدينة أن تفتح بعد حصارها لولا الضغط التركي على حدود المغرب الشرقية مما أدى به إلى التراجع .

- كما أصدر عبد الملك المعتصم أوامره بمحاصرة البرجية قبل معركة وادي المخازن وذلك خوفاً من خروج قوات برتغالية منها .

- وعندما انتهت الحملة البرتغالية على المغرب بالفشل ، تدخلت قوات إسبانية بالبحر لحماية المدينة من الهجمات المغربية وحال الإسبان دون تحرير المدينة، بالإضافة إلى أن الضغط التركي تدخل من جديد مما جعل أحمد المنصور الذهبي يتخلّى عن تحرير المدينة والتمسّك بالمدنة مع الإسبان.

وعلى كل فقد استفاد السلطان سيدى محمد بن عبد الله من الظروف التاريخية السابقة التي حالت دون تحرير المدينة فيسعى إلى تجيئ أرضية دبلوماسية ملائمة.

وهكذا فقد سعى إلى تحسين علاقاته مع فرنسا، وضمان حياد إسبانيا في أي حرب تحريرية ضد البرتغاليين، كما عقد معاهدة مع الدانماركيين خلال عام 1181 هـ نص الفصل السابع عشر منها على التزام الدنماركيين بتقديم أسلحة وعتاد حربي من بينها خمسة وعشرين مدفناً من العيار الثقيل والمتوسط وقدّأوها وجميع لوازمهما. ويدخل في نطاق هذا الاستعداد لهذه الحرب أيضاً الإمدادات العسكرية التركية التي وصلت إلى المغرب في نفس السنة. ⁽²¹⁾

وهكذا عندما هيأ الأرضية الدبلوماسية لتعطية عملياته العسكرية انطلاق تحرير المدينة، ومن المصادر المعاصرة الهامة التي يمكن الرجوع إليها للوقوف على الكثير من دقائق هذه الحملة نذكر كتاب الحلل البهيجية في فتح البريجة ⁽²²⁾ المؤلفة من أبي القاسمي بن محمد بن سليمان المراكشي، فيذكر في هذا الصدد : «... ثم إن الملك أخذ في إصلاح شأنه وأرسل إلى جنوده وعساكره يأتون للجهاد في سبيل الله ويتهياؤن للحرب كما أمرهم وأن يركبوا الخيول المسومة ويلبسوا الثياب لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم). ثم أرسل الملك إلى قبيلة دكالة أن ينزلوا البريجة المخالية وأن يربطوا عليها حتى يقدم الملك عليهم...». ⁽²³⁾ وتتصف مصادر أخرى بهذه العملية والداعي التي دعت السلطان إلى ذلك : «ولما أحسن - أعزه الله برضاه وأدام علاه من الكفار المتعمرين بالبريجة البلدة المعروفة بساحل البحر قرب أزمور الأذية لرعيته توجه إليها بعزمها وعنایتها وحاصرها بالجيوش التي لا قبل لهم بها، ورمماها بالكور والبومب، فلم يلبث إلا أن أخرجهم منها أدلة صاغرين وهدمها، فهي الآن تسمى المهدومة وتسمى اليوم الجديدة على أمره، وهو الذي سماها بذلك

- نصره الله وأيده وأعانه ووفقه وسدده - فاستولى عليها. . . »⁽²⁴⁾ وفعلا فقد خرجت الحملة المغربية من مراكش سنة 1182 هـ ورابطت في فحص المجاهدين القريب من المدينة وأخذت تمطر الحصن بوابل من قذائفها، كما حاصرت في نفس الوقت الميناء، وحالت دون وصول نجادات عسكرية برتغالية قدمت من لشبونة، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلنت الحامية البرتغالية استسلامها وطالبت بالسماح لها بالجلاء، وتم ذلك صبيحة يوم السبت 2 ذي القعدة سنة 1182 هـ، وقد دامت هذه الرحلة 58 يوماً وانتهت بتحرير المدينة بعد أن خضعت للاحتلال البرتغالي نحو ثلاثة قرون.

ثالثاً : رد الفعل الأوروبي تجاه الجهاد البحري :

كان رد فعل الأوروبيين تجاه الجهاد البحري قوياً خاصة من الجانب الفرنسي والاسباني، إذ قررت كل من فرنسا واسبانيا حمایة سفنهم من الهجمومات المغربية المتكررة بجميع الوسائل المتوفّرة لديهم. وهكذا فقد كلف الفرنسيون فيها بين سنتي 1763 و 1764 القائد Fabry بمحاصرة الشواطئ المغربية لكن دون حدوى، إذ تمكّن المجاهدون السلاويون أمام مدينة قادس من الاستيلاء على سفينة فرنسية كبيرة (La Sirène)، والتي سرعان ما حولت إلى سفينة جهادية.⁽²⁵⁾

وفي سنة 1765 أصدر الملك الفرنسي لويس الخامس عشر أوامره إلى الأميرال Chaffault للعمل على القضاء وبصفة نهائية على الجهاد البحري بالمغرب.⁽²⁶⁾ وهكذا في 31 ماي رسا الأسطول البحري الفرنسي أمام مدينة سلا وشرع في رمي المدينة بالقنابل انطلاقاً من 2 يونيو، ورغم أحوال الطقس الرديئة آنذاك فإنه استمر في حصار المدينة لكنه لم يملح، وأمام فشله اتجه إلى العرائش في 27 يونيو لكنه لقي هزيمة منكرة أيضاً.⁽²⁷⁾ وقد سجل أحمد بن المهدى الغزال هذه الحادثة دفعة كبيرة فوضعها على الشكل الآتي : « . . . رمى بمرسى من الأنفاط والوبى ما ظن أنه يحصل به على طائل فأجيّب بضعف ذلك ، فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تتفو أواخرها الأوائل ، وخر هارباً مهززاً وما سافط الألوية مدولاً مدموماً ، فعالج ما اندفع من أجفانه وأعاد الكرا يطلب حتفه بيده ويسعى في مذلته وهوانيه ، ووُبس على مرسي ثغر العرائش . . . - واقتضمها بالبن والمدافع ، وشحن الفوارب العديدة

بالشلنظاط⁽²⁸⁾ والقسيان⁽²⁹⁾ مما يزيد على الثنائيه، ظنا أن ليس لهم بها مقابل ولا دافع وعبر المرسى بقواربه المشحونة بعساكره قاصدا حرق مركب كان أخذ لهم قبل داخل الوادي ، فخل المسلمين سبيله حيلة ، حتى توغلوا في الموضع الذي لا يمكنهم الخروج منه ، وركب لقطعهم من حضر من الحواضر والموادي وقطعوهم قطعة لايسعهم منه قرارا . . . واستعملوا فيهم السيف فقتل وعرق وأسر منهم عدد كبير، فهم بين غريق وقتل وأسير . . .⁽³⁰⁾ لكن القوات الفرنسية كانت مصرة على تنفيذ أوامر الملك منها كلفها ذلك من ثمن فظلت تحاصر قواعد المجاهدين في سلا والمهدية والعرياش ، وتقطع سبيل الاتصال بين المجاهدين والعالم الخارجي ، وهكذا فقد اعترضت قطع الأسطول الفرنسي سبيل سفن هولندية ودانماركية كانت محملة بالعتاد إلى السلطان وأسرتها وقادتها إلى مدينة Toulon الفرنسية⁽³¹⁾ وأمام هذه الوضعية عقد السلطان في 28 ماي 1767 ، معاهدة هدنة مع فرنسا اعتبرها بعض المؤرخين الأجانب نهاية الجهاد البحري المغربي ، مستتجين بذلك من خلال الأحداث التي تلت هذه المعاهدة .

غير أنه وبالرغم من توقيع هذه المعاهدة ، فإن السلطان استمر في الحفاظ على قوة بحرية معينة مشجعا إياها على القيام بالجهاد البحري ، فهي شنت من سنة 1773 كانت هناك مجموعة من خمس سفن تحت قيادة الهاشمي الستيري قد التقت برأس سبارتيل ببركانطة توسكانية تحت قيادة Acton ولكن بمجرد الطلقات المدفعية الأولى غرقت السفينة المغربية واستسلم القائد ، وهربت باقي السفن إلى العرياش ، وإثر ذلك لم يعد أحد يتكلم عن قوة بحرية مغربية قادرة على مهاجمة السفن الأوروبية .

أما رد الفعل الإسباني فيتجلى بالخصوص في معاملة الأسرى المغاربة بإسبانيا إلى درجة وصل معها صدى هذه المعاملة إلى السلطان نفسه : « . . . فاتتفق له أن وردت عدة كتب من أسرى المسلمين ، منها ما هو لطلق العامة ، ومما لبعض الطلبة وعلماء الدين ، الكل من البلاد الأصينية ، وأصله للحضرية العلية فقرأت على مسامع سيدنا الشريفة . . . ». ⁽³²⁾ فكتب السلطان إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا يبلغه اهتمامه البالغ بقضية هؤلاء الأسرى : « إننا في ديننا لا يسعنا إهمال الأسرى وإيقاؤهم في قيد الأسر ، ولا حجة للغافل عنهم من ولاه الله تعالى

التصرف والأمن ». (33) وكلف سفيره السالف الذكر أحمد بن المهدى الغزال بهله القضية، وقد كللت سفارته بالنجاح إذ أطلق الملك الإسباني سراح الأسرى المغاربة.

ولم يكتفى السلطان بالاهتمام بالأسرى المغاربة فقط بل كان يتم بجمع الأسرى المسلمين فقد سجل محمد بن عثمان المكناسى في هذا الصدد : « . . . وكان من اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده، والسعى في إصلاح في أرضه وببلاده، والبحث عن أسرى المسلمين الذين بأيدي الكافرين ، وقد كان عند النصارى الأصينيون قبل هذا منه أسرى المسلمين عدد كثير، وجمهور غفير، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس ، والجزائر وعماليتها ، فسرح الله تعالى جلهم على يده الكريمة . . . ». (34)

ويعد هذا جانب لامع من الجوانب اللامعة في أعمال السلطان سيدى محمد بن عبد الله حاولنا فيه أن نلقي بعض الضوء عليه. لقد حاول تطوير القوة البحرية المغربية ما يتلاءم وعصره، وحاول تبني سياسة دفاعية تمكنه من حماية ثغوره وتمكن بالفعل من تحقيق الكثير مما كان يرغب فيه. لكن القوات الأوروبية المتربصة بال المغرب كانت تقف بالمرصاد لجميع الأعمال التي من شأنها تطوير القوة البحرية المغربية، وظلت تراقب عن كثب هذا التطور.

هوا مش

(*) اعد برسم الدولة التي نظمتها كلية الآداب بالجديدة، (1988) في موضوع : «السلطان سيدى محمد ابن عبد الله».
وقد نشر بمجلة دعوة الحق (المغرب، العدد 274، 1989)

(١) حول الدوافع التي حلت بالباحث إلى استخدام هذا المصطلح المغربي بدلاً من استخدام مصطلح القرصنة، وكذلك المراحل التي مر بها الجهاد البحري إلى غاية السلطان محمد بن عبد الله : محمد رزوق، الأندلسيون ومحاربهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17 ، ص 210

(2) نتيجة الاجتهد، ص 34.

(3) تاريخ الضعف، ص 166.

(4) عبد الرحيم بن زidan، الاتحاف، 3 : 259.

RAmón Lourido, «Transformación de la Piratería marroquí en Guerra del corsos»,

in **Hespéris-Tamuda**, vol X Face 1-2, 1969, PP. 51-52,

Roger Coindreau, **Les Corsaires de Salé**, P. 201. (5)

(6) تاريخ الضعف، ص 169.

Roger Coindreau op. cit. p.201. (7)

(8) نتيجة الاجتهد، ص 37 .

(9) تاريخ الضعف، ص 166.

(10) المصدر السابق، ص 169.

(11) المصدر السابق، ص 166.

(12) المصدر السابق، ص 187.

(13) نتيجة الاجتهد، ص 37.

(14) تاريخ الضعف، ص 172 - 173 .

(15) نتيجة الاجتهد، ص 38.

(16) تاريخ الضعف، ص 176.

(17) للمزيد من الإيضاح حول مختلف المراحل التي مر منها تاريخ مدينة العرائش انظر :
Tosas Garcia Figueras y Carlos Rortriguez Joulia Saint-CYR, **Larache, datos par su historia en el siglo XVIIe**

(18) الاستقصاء، 8 - 26.

(19) نفس المصدر الصفحة.

(20) أبو القاسم الزياني، السلطان الظريف، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1577 د.

(21) أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، مخطوط العامة بالرباط، رقم 658 د.

ملاحظة : يعبر السلطان سيدى محمد بن عبد الله أول ملوك المغرب الذي كان يدي عطفاً كبيراً على الأتراك. انظر : محمد بن تاريت، تاريخ سبتة، ص 190.

(22) حققه أخيراً (1986) الدكتور عبد الكريم كريم.

(23) الحلل البهيج، ص 20 .

(24) تاريخ الضعف، ص 166 .

Roger Coindreau, op. cit. p.60. (25)

Loc. Cit. (26)

Romóm Lourido, op. cit. p. 60 (27)

(28) من الكلمة الإسبانية Soldados

(29) من الكلمة الإسبانية Oficiales أي الضباط .

(30) نتيجة الاجتهد، ص 36 .

Roger Coindreau, pop. cit. p. 203. (31)

(32) نتيجة الاجتهد، ص 39 .

(33) نفس المصدر والصفحة.

(34) الإكسر في فكاك الأسير، ص 5 .

صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين اليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر^(*) (التهديد العثماني نموذجاً)

علاقة اليمن بالمغرب علاقة قديمة قدم البلدين، فكثير من كتب الرحلات المغربية تحمل اخبارا تتعلق باليمن وأحوالها وظروفها، كما ان العديد من العائلات اليمنية استقرت بالمغرب في فترات مختلفة من تاريخه. وهكذا فإن اليمن لم يكن ابدا غائبا عن الساحة التاريخية المغربية، ومع ذلك، فإننا لانجد - حسب علمتنا - دراسة تتعلق بالموضوع، وهذه محاولة نريد من خلالها أن نشير الانتباه الى ضرورة توحيد الرؤيا حول العديد من القضايا التاريخية التي تهم البلدين، وسنأخذ كمثال على ذلك قضية التهديد العثماني لليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر.

هناك ثوابت في السياسة العثمانية سواء اتجاه المغرب أو اليمن تجعل الاحداث تسير على نفس النمط تقريبا.

فنشير أولا بالنسبة للمغرب إلى مجموعة من العوامل تذكرنا إلى حد كبير بأوضاع اليمن خلال نفس الفترة :

- الصراع حول السلطة
- الغزو البرتغالي للشواطئ الغربية
- تدهور اقتصادي واجتماعي هز المجتمع المغربي بعنف.

وفي هذا الاطار يدخل التهديد العثماني للمغرب. فقد تدخل العثمانيون أول الامر لصالح الوطاسيين ضد خصومهم (السعديين) وانتهى الامر باغتيال محمد الشیع (المؤسس الحقيقي للدولة (السعدية)، مما جعل ابنه عبد الله الغالب يتوجه إلى التعامل مع الاسпан والفرنسيين لمحاجة الخطر التركي، وقد كان لهذا التعاون آثار سلبية كبيرة نذكر من بينها :

- قضية الأندلس : اذا كان الاندلسيون يتظرون الدعم من المغرب ابان ثورتهم التي اندلعت سنة 1568 ، لكن السلطان السعدي لم يستطع تقديم اي شيء لصالح هذه الثورة نتيجة التهديد العثماني . . .⁽¹⁾

- الشغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية، الجزر الحغرافية . . .) : ظلت العديد من الشغور المغربية محتلة (سواء من طرف الاسبان أو البرتغال) ، ولم يستطع السلطان السعدي القيام بأي عمل من شأنه تحرير هذه الشغور وذلك نتيجة التهديد العثماني ، واضطراره إلى التفاهم مع الاسبان .

وسوف تتكرر الصورة مرة أخرى في أحداث جديدة ، اذ انقسم المغرب من جديد فاستجدة المعتصم بالاتراك ، في حين اتجه المترک الى البرتغال مما أدى إلى وقوع معركة وادي المخارن (1578) ، والتي تحجلت فيها الوحدة الاسلامية بوضوح ، وكان لها صدى مدوٍ في الشرق العربي⁽²⁾ ، كما كانت ضربة قاضية بالنسبة للبرتغال الذين فقدوا فيها استقلالهم بوقوعهم تحت سيطرة الاسبان . لكن لم يستعد المغرب هنا أيضاً من نتائج المعركة نتيجة التهديد التركي أيضاً :

- فلم يستطع المنصور تحرير الشغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية الجزر الحغرافية . . .).

- ولم يستطع أن يذهب إلى حد بعيد في تقديم المساعدة للأندلسيين ، خاصة انه اكتشف توافق بعضهم مع الاتراك⁽³⁾ . لكنه استطاع أن يقف في وجه الاتراك ، ليضمن للمغرب استقلاله ، وهذا سفيره إلى السلطان العثماني مراد الثالث ، يقول : « . . . والعثمانيون من جملة الماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للإسلام ، وإن كان أكثرهم وأكثر اتباعهم من يصدق عليهم قوله - ص - : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وإن كانوا إنما حملوا الإمارة ، وقلدوا الامر في الحقيقة زيارة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها ، واهلها هم مواطننا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب ، الذين شرفت بهم الامامة والخلافة وكل مسلم لا يقول عكس هذا وخلافه . . . ».⁽⁴⁾

وهكذا أمام اصدار المغاربة على الدفاع عن استقلالهم اضطر العثمانيون إلى التراجع والتخلّي عن فكرة السيطرة على المغرب. وتذكّرنا هذه الوضاع بما كان يجري في اليمن :

- انقسام على مستوى السلطة (الزيدية والطاهرية)
- الغزو البرتغالي لسواحل البحر الأحمر والخليج العربي.
- التدهور الاقتصادي والاجتماعي نتيجة اختفاء الوساطة العربية.

في ظل هذه الظروف إذن ابتدأت علاقة اليمن بالعثمانيين، فقد تقدم أمير اليمن (كان تابعاً آنذاك للملك بمنصور) بفرض الطاعة والولاء للسلطان العثماني سليم (٥)، وذلك نتيجة للخطر البرتغالي، إذ هدد البرتغاليون جدة سنة ١٥٠٥، وتمكنوا من التسلل إلى مكة نفسها (٦)، وقد اقسم ملكهم أن يستولي عليها وأن يقوم ببنش قبر الرسول - ص - في المدينة (٧)، وكان على الاتراك إذن أن يواجهوا البرتغال (٨)

وقد كان موقع اليمن من بين العوامل التي برزت أهميتها في تحقيق الهدف العثماني ضد البرتغاليين، فوصول اليمن في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية وامتداد حدودها من جنوب نجد والخجاز في الشمال إلى الخليج عدن في الجنوب، ومن حدود عمان والربع الخالي شرق البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً (٩) جعلها منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية من الجنوب، وقد أدى هذا إلى انتشار العثمانيين بأن سيطتهم على اليمن تعمّلهم يضمنون سلامه الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والتحكم في البحرين الأحمر والعربي (١٠) وقد تمكّن العثمانيون من تحقيق هدفهم على مرحلتين :

المرحلة الأولى : (1517 - 1538) :

بدأت هذه المرحلة بعد فتح مصر مباشرة في سنة ١٥١٧ بإرسال بعثة عثمانية حلت أوامر السلطان العثماني لقادة الملوك في اليمن لكي يعلنوا خضوعهم وتعبيتهم للسيادة العثمانية، غير أن بعض القادة الملوك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني وتمكّنوا باستقلالهم وخرجوا على من أعلن الطاعة منهم وقضوا عليه، لهذا رأت الدولة العثمانية أن ترسل ولاة للدولة غير أنها لم ترسل معهم في بداية الأمر قوة حربية

تدعم حكمهم مما شجع الملوك على تهديدهم حتى أجبروهم على الفرار من البلاد ناجين بأنفسهم ، ثم حاولت الدولة العثمانية أن تنصب بعض القادة الملوك ليكونوا ولاة اليمن من قبلها على أن يضمنوا تبعية البلاد لسيادتها ، غير أن هؤلاء القادة كانوا يستبدون بالأمر ويعلنون استقلالهم ، وقد أدى كل ذلك إلى أن الدولة العثمانية ارتأت أخيراً لا سبيل إلى ضمان سيادتها على اليمن إلا بالاحتلال الفعلي وإقامة حكم عثماني مدحوم بالقوة العسكرية ، وكانت هذه هي المرحلة الثانية التي استمرت قرابة قرن .

المراحل الثانية (1538 - 1635) :

ابتدأت هذه المرحلة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني الذي أمر بتجهيز قوة ضخمة ابحرت من ميناء السويس في 27 يونيو 1538 ، وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملة هو القضاء على البرتغاليين الذي كانوا يعيشون فساداً في موانئ البحر الأحمر والعربي ، بينما كان الغرض الكامن من ورائهم هو احتلال اليمن⁽¹¹⁾ الذي كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتروسية للدولة العثمانية حينذاك . وقد وصل الأسطول العثماني إلى عدن في نفس السنة يقوده سليمان باشا الارناؤطي الذي كان من ابرز القادة العثمانيين في ذلك الوقت⁽¹²⁾ . واستدعي هذا القائد أمير عدن عامر بن داود الطاهري لزيارة سفينة القيادة ، وكان عامر هذا قد كتب إلى السلطان العثماني طالباً منه المساعدة للتغلب على الإمام الزيد شرف الدين الذي كان يسيطر على المنطقة الوسطى في اليمن ويقطعن في ضم عدن إلى منطقة نفوذه ، وقد أبدى القائد العثماني لامير عدن استعداده لمساعدته - بناء على موافقة السلطان العثماني - مما شجع عامر على تلبية الدعوة والصعود إلى سفينة القيادة ، غير أن القائد العثماني غدر بعامر قل أن يستقر به المقام على ظهر السفينة وامر بقتله⁽¹³⁾ .

ثم انزل قواته العثمانية فاستولى على عدن بدون قتال في اليوم الثالث من غشت من نفس السنة⁽¹⁴⁾ ، بل ان سليمان باشا أمر بقتل من بقي من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحججة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين⁽¹⁵⁾ وعلى كل فقد انا باسليمان باشا عنه في إدارة عدن احد ضباطه ، بينما ألقى أسلوبه تجاه المند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، غير أن مهمته انتهت بالفشل ، وانسحب الأسطول العثماني عائداً إلى عدن .⁽¹⁶⁾

ويرجع سبب هذا الفشل إلى العثمانيين أنفسهم : إلى الطريقة التي فتحوا بها عدن وغدرهم بأميرها عامر، مما جعل جل الامارات حذرة جداً من التعامل مع الاتراك وبالتالي لم تقدم على تقديم أي مساعدة لهم لواجهة البرتغال . وهكذا عندما وصلت إلى مسلمي الهند أخبار عدن خافوا أن يقع لهم ما وقع لها إذا ما تم لهم الاقصار فتخلوا عنهم⁽¹⁷⁾ . وبعد عودة الاسطول العثماني إلى عدن رأى قائد سليمان باشا أن يعود إلى مصر مارا بسواحل اليمن بعد أن يضمن تبعيتها للدولة العثمانية ، فهذا عندما وصل إلى ميناء محا اليمني طلب من الناخوذة احمد الحاكم المملوكي في اليمن حينذاك إعلاناً تبعيته البلاد للسيادة العثمانية ففعل .

وكان العثمانيون قد اتجهوا في ذلك الوقت إلى ميناء الصليف حيث انزلوا قواتهم التي تقدمت إلى ربيد، وعدرة بالساخورة أحمد واعدموه هو وجماعه من رفقاء وقضوا نهائياً على الحكم المملوكي في اليمن⁽¹⁸⁾ . وهكذا خضعت اليمن خضوعاً فعلياً للسيادة العثمانية في أواخر عام 1538 .

لم يمض وقت طويل من سيطرة العثمانيين على عدن حتى اعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الخامية العثمانية المرابطة في المدينة عندما رأت ما حدث من غدر العثمانيين بأميرهم عامر بن داود الطاهري .

واضطر العثمانيون أن يرسلوا اسطولاً حربياً عبر البحر الأحمر تحت قيادة «بيري» الذي تمكّن من استعادة عدن بعد أن أخذ ثورة القبائل⁽¹⁹⁾ .

أما القائد العثماني سلي باشا الذي كان مرابطًا في ميناء الصليف فإنه اعتبر مهمته قد انتهت وقرر العودة إلى بلاده⁽²⁰⁾ بعد أن أسترد حكم اليمن لولاي العثماني مصطفى عزة⁽²¹⁾ ، وقد اتخذ هذا الوالي مدينة زبيد مركزاً لولايته .

بدأ العثمانيون القيام بعمليات التوسيع في اليمن منذ مطلع سنة 1539 مما أدى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الإمام الرizي «فكان بينهم وبين ولاة الإمام شرف الدين حروب في جهات شتى . . .». وقد سيطر العثمانيون على ثغر في ستة 1545 كما سقطت بعدها صنعاء في قبضتهم⁽²³⁾ ، ولكن المحافظة على صنعاء أو

أي من المدن الأخرى في جبال اليمن ما كانت لتواجه مقاومة اتباع الامام الزيدى الذي كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشهالية الممتدة من صعدة شمالاً إلى ذمار ورداع جنوباً،⁽²⁴⁾ وعلى الرغم من أن بقية أجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالملذهب الشافعى السنى فقد التقوا مع أخوانهم الزيديين⁽²⁵⁾ حول راية الامام شرف الدين مقاومة العثمانيين الذين يختلفون عنهم في الجنس واللغة، واحسوا انهم اعداء مغتصبون، وإن كانوا يدينون بالاسم ويتبعون المذهب السنى، وازاء تضامن الشعب اليمني وتكتافئه في مقاومته العثمانيين، فإن هؤلاء جلوا في بعض الاحيان إلى استعمال أساليب المكر والدهاء والحقيقة بين اليمنيين وكانوا يتحققون بها مالا تستطيع أن تتحققه قواتهم المجادة، وعلى الأقل يشغلون بها عناصر المقاومة اليمنية حتى تصل إليهم الإمدادات الكافية لتحقيق اغراضهم الحربية. وقد فعلوا ذلك مع الامام شرف الدين عندما أرسلوا إليه احدهم ويدعى حسن البهلوان، فأحدث هذا العثماني فتنة بين الامام وأبنه المظفر اثارت قتالاً مروعاً بينهما⁽²⁶⁾ شغلتها عن صد تيار التوسيع العثماني في ارجاء اليمن، ولم يحمد ذلك القتال سوى بتدخل «بعض العقلاة»، وتنازل الامام لابنه المظفر عن الامامة حقنا للدماء، بينما استولى الترك في أثناء ذلك النزاع على المنطقة الممتدة من تعز جنوباً إلى جيزان شمالاً. ثم تقدم الوالي العثماني ازدرم من زبيد تجاه صنعاء والتوجه مع قوات المظفر الذي هزم بعد قتال عنيف انسحب بعده بينما دخل ازدرم صنعاء بمعاونة بعض اتباع المظفر في سنة 1547، بعد أن سفك دماء كثيرة، ونبت المخازل والمتاجر في أثناء سقوط المدينة في قبضة العثمانيين.

وبعد سيطرة العثمانيين على صنعاء توغل مركزهم في اليمن وثم لهم الاستيلاء على كثير من بلاده.

ولم تضعف مقاومة الامام المظفر للعثمانيين على الرغم من استيلائهم على مدينة صنعاء ومحاولتهم المستمرة لتشييد دعائم حكمهم في اليمن اذا استعاد هذا الامام قواه في عهد الوالي العثماني رضوان باشا⁽²⁷⁾ وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجبلية الخاضعة للعثمانيين، بل ان المظفر تغلب على الوالي العثماني مراد باشا الذي قتل في احدى المعارك.⁽²⁸⁾ بينما تمكن المظفر من دخول صنعاء في سنة 1568، وعقد صلحًا مع العثمانيين، انسحبوا بموجبه إلى زبيد وسهول تهامة.

وعندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضاربة التي تزعمها الامام المظفر ضد قواتها في اليمن ارسلت حملة مزودة بأحدث الاسلحة يقودها سنان باشا. ⁽²⁹⁾

وأخيراً وجد العثمانيون أنفسهم في الحين يواجهون تياراً عنيفاً من التدمير والعداء والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضاربة التي كان يسترثك فيها مع الزيديين في الجبال اخواهم الشافعيون وكانت القوات العثمانية تتkick بصفة دائمة خسائر فادحة في الأموال والأرواح مما جعل العثمانيين يفكرون في الجلاء عن اليمن تخلصاً من هذا الحلم المزعج الذي عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان وهكذا كان جلاء العثمانيين عن اليمن الذي تم تفيي سنة 1635 في عهد السلطان العثماني مراد الرابع استجابة طبيعية لما فرضته المقاومة الطبيعية التي قام بها الشعب اليمني ضد العثمانيين، ويمكننا أن نعطي عدة أسباب لفشل الوجود العثماني في اليمن :

- ضعف سيطرتهم على مصر في منتصف القرن السابع عشر
- تناقص أهمية البحر الأحمر بزيادة الأقبال على طريق الرأس الرجاء الصالح .
- وقع اليمن في أقصى جنوب البلاد العربية بعيدة عن أسطنبول ، وصعوبة إيصال الإمدادات إليها والتکاليف الباهضة التي كانت تتحملها الدولة
- اختفاء المنافسة البرتغالية (بفعل معركة وادي المخازن)
- اختفاء خطر الدولة الصفوية في إيران .
- الظروف الداخلية للدولة العثمانية (هزيمة لباتو 1571)
- الموقف الدولي .

تلك كانت هي احداث اليمن خلال فترة معينة خلال القرن السادس عشر، وقبلها عرضنا لاحاديث المغرب خلال نفس الفترة فهذا يمكن أن نستخلصه من كل ذلك ؟

- ان رغبة السيطرة كانت واضحة لدى العثمانيين سواء في المغرب أو اليمن ولو على حساب المصلحة الخاصة لكل بلد، وكان المبرر الشرعي الذي يعطي دائئراً لتبرير ذلك هو توحيد المسلمين في إطار خلافة اسلامية واحدة.
- اساليب العثمانيين في السيطرة كانت واحدة في البلدين : فهي تتراوح بين الخديعة والتروغة والعنف والقمع .
- فكر بعض حكام المغرب ، كما فكر في ذلك بعض حكام اليمن ، في التعاون مع

قوات أوروبية معينة، خلق عامل توازن في علاقتهم مع الاتراك. فبعد الله الغالب في المغرب تعاون مع الإسبان لضمان استقلال بلده، واتجه إلى هذه المحاولة أيضاً داود ابن عامر عندما فكر في التفاهم مع البرتغال، لكن نجح الأول وفشل الثاني. - لقي العثمانيون في كل من اليمن والمغرب مقاومة عنيفة، وإن اختلفت أساليب المقاومة في كل من البلدين، فقد فرض على البلد الأول (اليمن) أن يواجهه بقوة السلاح، في حين اتجه البلد الثاني (المغرب) إلى المقاومة الدبلوماسية.

هؤامش

- (*) اعد برسم الندوة التي نظمتها جامعة عدن بالجمهورية اليمنية سنة ١٩٨٩ في موضوع : «اليمن عبر التاريخ» وقد نشر البحث بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الخامس ١٩٨٩، ص ٨٥ - ٩٤.
- (١) انظر في هذا الصدد : محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦ و ١٧، الفصل الثاني من الباب الثاني
- (٢) ينقل لنا احد بن القاضي صدقي المعركة في الشرق العربي قائلاً .
- «... وحدثني بعض من اثق به أنه جلس ذات يوم بجرحة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمأثر الحسنة والسير المستحسنة، فتأوه لذلك وفاقت نفسه للدخول في سلك بيته...». انظر المتنقى المقصور، ٢ - ٨٤٦.
- ويضيف قائلاً . «وما شاهدته من مبرة أهل المشرق بأهل قطربنا حيئن لما انتهى إليهم أمر غروته العظيمة ما يكيل عن وصفه اللسان ، ولا يحيط به بنان ، وترى الواحد منا بينهم كانه أعيجورة عظيمة يشار اليه قاتلين . هذا من أهل الغرفة المشهورة ، مما لا يدركه الا من شاهد ذلك ، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيم ، ووقدرا جسيما وصار العرب من مملكته يغ Hiropon ذلك على الترك بهذا الملك العظيم . ». المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- (٣) انظر محمد رزوق، المصدر السابق ، نفس الفصل .
- (٤) علي التمجروني، الشفحة المسكية، ص ١٤٧ .
- (٥) محمد بن اياس، بداع الزهور، ٣ . ١٦٦
- (٦) محمد بن اياس، المصدر السابق، ٣ : ١٩١ .
- (٧) Kammer, La Mer Rouge... T:2, p: 144
- (٨) عن دوافع الغزو البرتغالي للبحر الأحمر والخليج العربي، انظر : محمد رزوق، صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي لشمونج)، مقال بمجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، العدد الثاني، ١٩٨٥ ، ص ١٣١ - ١٢٣ .
- (٩) كانت هذه هي الحدود القديمة لليمن الكري . انظر الحسن بن احمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٥١ .
- (١٠) فاروق عثمان أبوطة، الحكم العثماني في اليمن، ص ١٩
- (١١) عبد الله بن داعر، الفتوحات المرادية . ١ : ١٨٨
- عن فاروق عثمان أبوطة، المصدر السابق، ٢٤
- (١٢) يذكر عنه محمد أنيس انه كان : «تحاوز التهاني من عمره سفاكا للدماء ضعيف العقل عديم الرأي ...». انظر كتابه الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٢٢

- (13) عبد الله الجرافي، المق�향 من تاريخ اليمن، ص. 88
 (14) عبد الصمد الموزعى، كتاب الاحسان .. ص. 8
 عن فاروق عثمان اباظة، المصدر السابق، ص. 25
- (15) ينفي احد شرف الدين هذه النهاية عن الطاهرين، انظر اليمن عبر التاريخ، ص. 262 .
 كما لا يستبعد الدكتور عبد العزيز سليمان نوار أن تكون هناك محاولات من جانب عامر بن عبد الوهاب
 للوصول إلى تفاصيل ما مع البرتاليين الذي كانوا يمثلون خطراً ساحقاً على عدن في الوقت الذي كانت
 فيه عدن آخر معقل الطاهر بين معرفة هجرات عبيدة من جانب الإمام الزيدى انظر كتابه، الشعوب
 الإسلامية، 104.
- (16) فاروق عثمان أناطة، المصدر السابق، 22
 (17) - محمد أئيس ، المصدر السابق، 122
 (18) - عبد الصمد الموزعى، المصدر السابق، ص. 8
 عن فاروق عثمان أناطة، المصدر السابق، 22
- (19) احمد فضل العبدلي ، هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ، ص. 100
 (20) عبد الله بن ابيالصبر السابق، 1 : 188 ،
 عن فاروق عثمان أناطة، المصدر السابق، 24
- (21) محمد العقيلي ، الجنوب العربي في التاريخ ، 1 . 308
 (22) - حسين العرشي ، لogue المرام .. ص. 60
 (23) - عبد الصمد الموزعى، المصدر السابق، ص 10 ، عن فاروق اباظة، المصدر السابق 24 .
 (24) - امين الريحاى ملوك العرب، 1 126
 (25) قطب الدين خنفي ، البرق الياباني في الفتح المثاني ، ص. 84 ، عن فاروق اباظة، المصدر السابق ،
 ص. 23
- (26) المصادر السابق ص 136 (27)
 (28) عبد الله بن داعر المصادر السابق ، 1 . 201 ، عن فاروق اباظة، 24 .
 (29) حسين العرشي ، المصدر السابق ، ص. 61
 (30) احمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص. 156 - 157 .

المصادر والمراجع

- اباخلة فاروق عثمان .
الحكم العثماني في اليمن ، القاهرة ، 1986
- ابن اياس محمد
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة
- أنيس محمد
الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة 1985
- حسن ابراهيم حسن
اليمن البلاد السعيدة ، القاهرة 1958
- حسن محمد
قلب اليمن ، بغداد ، 1947
- رزوق محمد
- الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16 و 17 ، الدار البيضاء 1989
- «صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن 16 - الغزو البرتغالي نموذجاً» ، مقال بحوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء ، العدد الثاني ، 1985 ، ص 123 - 131 .
- العلاقات العربية الأفريقية في القرن السادس عشر» مقال بمجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، العدد 31 ، 1987 ، ص 99 - 103 .
- التمجردي على
- النفعنة المسكية في السفارة التركية ، باريس
- سالم السيد مصطفى
تكوين اليمن الحديث ، القاهرة 1963
- شرف الدين احمد حسين
اليمن عبر التاريخ ، القاهرة 1963
- العبدلي أحمد فضل
هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ، القاهرة 1932

- العرشي، حسين
بلوغ المرام في شرح مسک الختم فيمن تولى اليمن من ملك، وامام، القاهرة 1939
- العفيلي محمد
الجنوب العربي في التاريخ، الجزء الأول بمطابع الرياض 1958 والجزء الثاني بالقاهرة 1961
- فخرى أحمد
اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة 1957
- ماضي محمد
دولة اليمن الزيدية، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة 1950
- مؤلف مجهول
تاريخ الدولة السعودية التاكمدارية، نشره جورج كولان بالرباط 1934
- مؤسس حسين
الشرق الاسلامي الحديث، القاهرة 1938
- الهمداني الحسن
صفة جزيرة العرب، القاهرة، 1953
- الواسعي عبد الواسع
تاريخ اليمن المسمى فرجة المموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة 1927

- Berreby, J J

La Péninsule arabique, Paris 1958

- Kammer

La mer rouge, l'Abyssinie et l'arabie depuis l'antiquité

- Neibuhr, C.

Voyage en Ararie en d'autres pays, Amsterdam 1776

- Braudel (F)

La méditerranée et le monde méditerranéen, 2 tomes, Paris 1979.

- Castries (H. de)

Sources inédites de l'Histoire du Maoc. 1ère série, Paris 1905-1953

- Ricard (R)

Etude sur l'histoire des Portugais au Maroc, Coimbra, 1951

صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج) (*)

تعددت الصفحات المشتركة بين المغرب والخليج العربي لفترات طويلة في التاريخ الإسلامي، فذكر في المجال السياسي - مثلاً - جوهر عبد الرحيم بن معاوية إلى المغرب أيام أبي جعفر المتصور، إذ طلب يكابد المشاق إلى حين تأسيس الدولة الأئمية بالأندلس وفي نفس السنة التي توفي فيها عبد الرحيم الداخل كانت دولة أخرى تنبثق من الشرق هي دولة الادارسة التي كان يشعر أفرادها نوعاً من الالتزام المعروي تجاه العراق، وما اتخاذ مدينة البصرة - بصرة المغرب - عاصمة لبعض أمراء الادارسة الا دليلاً قاطعاً على ذلك. وقد كانوا يهدفون بذلك إلى أن يباهوا (بصريتهم) بصرة العراق. وبالفعل فقد قصدوا الأدباء والعلماء والشعراء من المغرب والأندلس والشرق (١). ومازالت إلى يومنا هذا أسرة العراقيين المشهورة بالغرب، كما لا ننسى أن السعديين أصلهم من شبه الجزيرة العربية وكذا أبناء عمهم العلوين فإنهم هاجروا منها.

وسحاول في هذا العرض الموجز أن نركز على صفحة مهمة من أهم الصفحات المشتركة بين حناحي العروبة، تلك هي الصفحة التي اشتراك في كتابتها عرب المشرق والمغرب على السواء خلال القرن السادس عشر. فمن المعروف أن هذا القرن الأخير عرف أحداثاً خطيرة على الساحة السياسية والاقتصادية في العالم أدت إلى تغيير وجه العالم الوسطوي تماماً وظهرت قوات سياسية واقتصادية جديدة، وعقليات ومفاهيم حديدة، وقد كان نصيب منطقتنا من كل ذلك تعرضها للغزو البرتغالي. ومن أهم ما تميز به هذا الغزو شموليته بالنسبة للمغرب والخليج العربي فقد كان يهدف إلى تطويق المنطقة العربية بالاستيلاء على منافذها البحرية ونقطها الاستراتيجية قصد القضاء على الوساطة العربية، أي ضرب الاقتصاد العربي في الصميم، وبالتالي أحدث خلل في التوازن الاجتماعي بالمنطقة، لكن المواجهة العربية كانت عنيفة خاصة في المغرب (يعلم معركة وادي المخازن) مما أدى بالبرتغال إلى التراجع عن المنطقة العربية وتعرية نفسه بالعالم الجديد (البرازيل).

وسوف نتعرض في هذا البحث لعوامل الغزو ومراحله ونتائجها على المنطقة العربية.

الغزو البرتغالي

قبل التعرض إلى عوامل هذا الغزو نبدي أولاً ملاحظة أساسية، وهي أن هذا الغزو بدأ مبكراً بالنسبة لباقي الدول الأوروبية (احتلال سبتة - مثلاً - كان سنة 1415)، ولعل ذلك يرجع إلى عاملين:

- عامل تاريخي : خرج العرب من البرتغال منذ القرن الثالث عشر، في حين ظل الوجود العربي باسبانيا إلى غاية سقوط غرناطة (سنة 1492)، فلم يكن هناك أذن ما يشغل البرتغال عن ممارسة غزوهم للشواطئ الأفريقية⁽²⁾.
- عامل جغرافي : قرب البرتغاليين من السواحل الأفريقية، إذ تواصلت حملاتهم بعد غزو سبتة إلى أن وصلوا سيراليون عام 1461.⁽³⁾

عوامل الغزو :

- عامل ديني : تتبع المسلمين بالمغرب الوصول إلى الأماكن المقدسة بالحجاج.

صرح الأمير البرتغالي هنري الملائج بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالكي الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وأنه سيمنحك أكبر وسام في بلاده (وهو وسام السيد الأعظم) لمن يجاهد في هذا الميدان⁽⁴⁾. يضاف إلى هذا أن هذا الأمير نفسه كان على رأس الجماعة التي عرفت باسم (جماعة المسيح)، وكان يصرح بأن هدفه الأساسي هو نشر الكاثوليكية بين الأفارقة⁽⁵⁾.

وقد كانت القرارات البابوية (Les Bulles Pontificales) تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبلائية مهمة جداً قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الإسلام والمسلمين وغزو أراضيهم.⁽⁶⁾

- عامل استراتيجي : أهمية المنافذ البحرية بالمغرب الأقصى والخليج العربي.

هناك صفة مشتركة بين المغرب الأقصى والخليج العربي تمثل في أهمية المنطقتين بالنسبة للمواصلات البحرية العالمية، فالمغرب يشرف على بحرين مهمين : البحر الأبيض المتوسط بحضاراته العربية، والمحيط الأطلسي، منطلق الأوروبيين إلى العالم الجديد غرباً، وأوروبا الغربية شمالي، وافريقيا الغربية جنوباً، بالإضافة إلى تحكمه في مضيق جبل طارق الذي لا تخفي أهميته إلى يومنا هذا. أما بالنسبة لجزيرة العرب فـإنما تتمثل نقطة التقائه بين قارات ثلاث : أوروبا وأسيا وافريقيا، فمنها تنطلق السفن من بحر عمان متوجهة نحو المحيط الهندي ليتهي بها المطاف إلى الصين واليابان. كما تستطيع السفن أن تنزل جنوباً نحو شواطئ إفريقيا الشرقية إلى جزيرة مدغشقر وفي امكان السفن أن تدور حول جنوب الجزيرة العربية عبر باب المندب لتصل إلى البحر الأحمر فبرزخ السويس، ومن هناك يمكن الانطلاق إلى البحر الأبيض المتوسط.

فمن شأن السيطرة على المنطقتين اذن التحكم بسهولة في طرق المواصلات العالمية، وجعل سكانها تحت رحمة المسيطر.

- عامل اقتصادي : القضاء على الوساطة العربية بالخليج العربي والمغرب.

استولى البرتغال على الشواطئ المغاربية واحتلوا عدداً منها وحاولوا التوغل إلى الداخل، وحاولوا قطع أي اتصال بينها وبين الخارج. وهكذا قطعوا بالقوة علاقاتها مع تجار البندقية وجنة الذين ظلوا يتزدرون عليها طيلة قرون بقصد المبادرات التجارية، فطاردوا أولئك التجار بعنف ولم يتزدروا في قتلهم أحياناً.⁽⁷⁾ وفي الجنوب توغل البرتغاليون نحو مصادر الذهب ووصلوا في 847 هـ (1343)، (أرجين) ثم إلى (مينا) و(أكسيم) بافريقيا الاستوائية في سنة 891 هـ (1486)، وامكثتم اثر ذلك أن يجعلوا جزءاً كبيراً من الذهب المستخرج نحو سفنهم الراسية على الشاطئ، بدلاً أن يتركوا ذلك الذهب يتبع طريقه التقليدية نحو الشمال أي نحو المغرب، عبر الصحراء. ومن المعلوم أن المغرب كان يعتمد يومئذ في توازنـه الاقتصادي والاجتماعي على تجارة القوافل الصحراوية وخاصة على تجارة الذهب.⁽⁸⁾

ونفس الامر حدث بالشرق العربي فقد كانت السياسة البرتغالية مرتبطة بهدف واضح : القضاء على الوساطة العربية ما بين أوروبا والمناطق الاسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور.⁽⁹⁾

الغزو :

كان البابا يبحث باستمرار البرتغال على مهاجمة المسلمين وذلك كرد فعل ضد فتح بيزنطة من طرف الاتراك العثمانيين سنة 1453 . وهكذا فقد هاجم البرتغاليون مدينة القصر الصغر بقوات عظيمة سنة 1453 ، وقد كان على رأس الحملة الملك الفونسو الخامس نفسه ، واحتلال هذه المدينة يرجع في أساسه إلى أنها ميناء هام على مضيق سبتة وطنجة ، ويمكن الاعتماد عليها لتقوية سبتة ولهاجمة طنجة فيما بعد .⁽¹⁰⁾

وفعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحملات عديدة فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حدا بالبرتغاليين الى القيام بمهاجمة أصيلا واحتلالها سنة 1471 ، واتخاذ هذه الأخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التي فر منها أهلها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة أيام من التاريخ المذكور .⁽¹¹⁾ فتعززت بذلك وضعية البرتغال في شمال المغرب ، وقويت أمانى ملوك لشبونة في اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخل البلاد .⁽¹²⁾

وفي نفس الوقت كان البرتغاليون يسرون في خطوة مماثلة بالشرق العربي ، فقد كان تدمير المقدسات الاسلامية في الحجاز جزءا من أهداف الشاط البرتغالي في المياه الشرقية الاسلامية .⁽¹³⁾ وقد اتبع البرتغاليون فعلا في سيطرتهم على البحار والمحيطات سياسة صلبة لا انسانية ضد العرب ، فقد كان البوكراش قاسيا مع العرب حتى انه كان يملا بهم المساجد ويضرم فيها النار⁽¹⁴⁾ . واطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم فسمحوا لبحارتهم بممارسة القرصنة ضد السفن العربية ، وكان الاسطول البرتغالي يقوم بشن الحرب على المصالح التجارية العربية ، فإن لم يستطع احتلامها ضرب الاهداف المدنية واحرق المباني بمشاته وسفنه وقاربيه الراسية فيه ، وهذا ما فعله البرتغاليون في عدن وقمران ومسقط والبحرين وصحار مثلا⁽¹⁵⁾ .

ولقد أدرك البرتغاليون أن استمرار تحركهم في التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر الشرق الادنى ومصر الى اوروبا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الادنى إلى أوروبا هما طريق الخليج العربي الذي تسيطر عليه هرمز ،

و طريق البحر الأحمر الذي تتحكم فيه عدن و سقطة و ياب المنذب . وكانت عدن شديدة المقاومة للبرتغاليين سنة 1513⁽¹⁶⁾ ، ثم دمر الموانئ الساحلية التابعة لهرمز على الخليج العربي وخاصة مسقط و صحار ، و حولوا الضريبة السنوية التي كانت تدفعها هرمز إلى خزينة البرتغاليين . ثم وجه البوكرك أسطوله إلى هرمز وتمكن من بسط نفوذه على ملك هرمز الذي أصبح تابعاً لملك البرتغال يدفع له ضريبة سنوية ، و بنى البرتغاليون حصناً في هرمز و أ放宽 التجار البرتغاليين من الضرائب⁽¹⁷⁾ . وهكذا تسنى للبرتغاليين التحكم في الملاحة التجارية بالمنطقة . لكن ماذا كان موقف العرب من كل هذه التطورات ؟

المواجهة العربية :

لقد تجند المغاربة للدفاع عن بلادهم بصفة تلقائية و بتوجيه من العلماء الذين قادوا الناس بأنفسهم للجهاد ، و ظل الأمر كذلك إلى حين تقلد الدولة السعودية مقاليد الأمور ، إذ قادت الجهاد لتحرير البلاد من البرتغاليين إلى حين وقوع معركة وادي المخازن سنة 1578 التي قضت على الاطماع البرتغالية بالمغرب ، وفرض المغرب نفسه كدولة تتمتع بالاحترام الدولي اللازم لجميع المعاملات الدولية خاصة أمام جيرانها الإسبان والأتراك بالجزائر .

أما في المشرق العربي فإن البرتغاليين وجدوا أيضاً مقاومة عنيفة رغم تشتت القوات العربية التي لم يجمعها تنظيم سياسي موحد⁽¹⁸⁾ . وهكذا فقد استهانت العرب هناك في الدفاع عن حرثتهم وكيانهم ، و عند عجزهم كانوا يتوجهون إلى الدول الإسلامية المجاورة ، فقد اتجه ملك هرمز إلى المماليك ، ثم بعد ذلك إلى الشاه اسماعيل الصفوي لكن هذا الأخير تخلى عن هرمز مما أقنع عرب هرمز ومدن الساحل الغربي للخليج العربي بضرورة الاعتماد على النفس فقاموا بثورة مباغته ضد البرتغاليين في هرمز و مسقط والبحرين و قريات و صحار ، و هاجموا الحاميات البرتغالية في الجزيرة⁽¹⁹⁾ . لكن الأمر كان يتطلب تدخل قوى بحرية كبيرة مثل الدولة الصفوية الناشئة القرية من معاقل البرتغاليين في الهند وفي الخليج العربي . غير أن الشاه اسماعيل الصفوي ركز جهوده في الاناضور والعراق دون أن يقدم أية مساعدة للكفاح العربي بالخليج وفضل عوضاً عن ذلك التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين على حساب مصير الخليج العربي⁽²⁰⁾ .

ولم تحول القوى الإسلامية مرة أخرى إلى الهجوم إلا بعد أن سيطر السلطان سليم الأول على الشام ومصyer والحجاج (1516 - 1517)، وأصبح يتحمل مسؤولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من أجل إنقاذ الأرضي المقدسة الحجازية من تهدياتهم المتكررة لها أو من حيث إعادة التجارة الشرقية إلى طريق مصر⁽²¹⁾. وقد أدى وصول الاسطول العثماني إلى الخليج العربي إلى رفع معنويات المقاومة لدى أهل المنطقة وخاصة في القطيف في أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة، فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين في سنة 1550 وسلموا المدينة للأتراك العثمانيين. فكان أن رد البرتغاليون على ذلك بأن دمروا القطييف بمدفعية اسطولهم⁽²²⁾

هكذا نرى أن كل المحاولات التي كان يقوم بها العرب كانت تبوء بالفشل بسبب تشتيتهم السياسي أولاً وتفوق الملاحة العسكرية البرتغالية ثانياً لكن ومع اقرارها بهذه النتيجة لنا أن نتساءل : هل نجح البرتغال بالفعل في تحقيق ما كانوا يطمحون إليه من تطوير المنطقة وضرب التجارة العربية في الصميم ؟

لقد ظل الرأي السائد لفترة طويلة لدى الأوروبيين أن البرتغال استطاعوا القضاء على الوساطة العربية سواء بالنسبة للسودان أو بالنسبة للشرق الأقصى لكن الابحاث الحديثة ثبتت غير هذا، فلقد استمر المغاربة في عرض التبر بعض الموانئ التي بقيت حرة وازداد العرض مع السنوات رعم كل المحاولات البرتغالية لقطع الطريق على القوافل إلى حد جعل المؤرخ البرتغالي الكبير (عديني) يعتبر ما عبر عنه بانتقام القوافل من الكرافيلات البرتغالية أهم أسباب انتصار المغاربة السياسي والعسكري على البرتغاليين⁽²³⁾. كما لاحظ المؤرخ الفرنسي الكبير فرياند بروديل أن البرتغاليين فشلوا في حصارهم التجاري وأن البحر الأحمر عرف ازدهاراً كبيراً في أواسط القرن السادس عشر ولمدة تتجاوز عشرين سنة⁽²⁴⁾. ولاحظ كيرك أن البرتغاليين لم يستطيعوا مطلقاً تحويل برمتها عن الطريق البري ، فقد بقى تجارة العرب طوال القرن السادس عشر يقومون بجلب الحرير والاصناف والعقاقير من الشرق والبن من اليمن وينقلونها جميعاً في البحر الأحمر، ثم عبر الصحراء إلى القاهرة والاسكندرية⁽²⁵⁾ ويقول المؤرخ الكبير أحمد عزت عبد الكريم . « اذا كان الجاحب الأكبر من التجارة الشرقية قد تحول إلى الطريق البحري المasher ، فإن اسوق العواصم والشغور العربية في بغداد والبصرة ودمشق وحلب والاسكندرية طلت عامرة المنتجات الشرق ما تجلبه إليها القوافل وتتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة ليرودوها منها بما يريدون »⁽²⁶⁾

لكن الانتصار الحقيقي - كما يقول استاذنا محمد زبيبر - «لم يأت من المحاولات العثمانية ولا من أي جهة أجنبية عن العرب، بل جاء في الحقيقة من التضامن الفعلي بين العرب»⁽²⁷⁾ وهو يقصد بذلك دور معركة وادي المخازن في التراجع النهائي للبرتغاليين عن أطماعهم بالغرب والمشرق على السواء، وهو انتصار كان المشارقة يقدرونه حق قدره إذ ينقل لنا مؤرخنا أحمد بن القاضي⁽²⁸⁾ اصداء هذه المعركة في المشرق العربي قائلاً : «... وحدثني بعض من أثق به انه جلس ذات يوم بجرحة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وباهله من العدل واللائحة الحسنة والسير المستحسنة، فناوه للذلل وتاقت نفسه للدخول في سلك بيته»⁽²⁹⁾. ويضيف قائلاً : «وما شاهدته من مبرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم أمر غزوته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان ، ولا يحيط به بنان ، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار إليه قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة ! مما لا يدركه إلا من شاهد ذلك ، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيا ، ووقارا جسبيا ، وصار العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم»⁽³⁰⁾

هذا هو التاريخ وهذه صفحاته المشتركة بين مغرب الوطن العربي وشرقه ، فلأين نحن اليوم من كل هذا ؟ وماذا فعلنا من أجل خلق تضامن عربي فعلي في مواجهة تحديات العصر ، التحديات التقنية التي يأتي بها الغرب اليوم والتي كانت سبب فشلنا بالأمس ، التحديات السياسية والتي كانت أيضا سبب انهزامنا بالأمس بسبب وحدة الغرب ووعيه بالأمور وتشتت العرب وجهتهم .

هوامش

- (*) أعدد الباحث برسم الندوة العلمية الخامسة التي انعقدت بيغداد في أواخر ابريل 1984 ، وقد كان موضوعها «الخليج العربي والعالم». وقد نشر بمحويات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985.
- (1) محمد بن تاویت، «المغرب ودول الخليج عبر التاريخ الاسلامي» مقال بمجلة المناهيل الصادرة بالرباط، عدد 27، يوليوز 1983، 106/104.
- (2) انظر شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، 154.
- (3) المصدر السابق، 155.
- (4) المصدر السابق، 154.
- (5) نفس المصدر والصفحة
- (6) انظر أحد بوشرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مقال بمجلة المناهيل الصادرة بالرباط عدد 29، السنة العاشرة، مارس 1983 ، ص 73 - 74.
- (7) J. Moulu, les Etats Barbaresques (collection que sais-je ?) N° 1097, p 108
- (8) J. Brignon et autres Histoires du Maroc, p 189
- (9) أحمد بوشرب، المقال السابق، 77
- (10) انظر عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعودية، 8
- (11) نفس المصدر والصفحة
- (12) نفس المصدر والصفحة
- (13) انظر عبد سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، 130
- (14) المصدر السابق، 131
- (15) نفس المصدر والصفحة
- (16) نفس المصدر والصفحة
- (17) المصدر السابق، 132
- (18) انظر أحد عزت عبد الكريم، دراسات تاريخية في الهبة العربية، 190.
- (19) انظر عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، 134
- (20) المصدر السابق، 135.
- (21) المصدر السابق، 135.
- (22) المصدر السابق، 142
- (23) أحمد بوشرب، المقال السابق، 82
- (24) La Méditerranée et la Monde Méditerranéen à l'Époque de Philippe II, 1 : 166.
- (25) أورده محمد نزير في مقاله «بين جناحي العروبة» مجلة المناهيل الصادرة بالرباط، عدد 16 ، سنة 1979 ، ص 189.
- (26) دراسات تاريخية في الهبة العربية
- (27) المصدر السابق، 189.
- (28) انظر ترجمته في المقدمة التي عقدناها لتحقيق كتابه «المتنقى المقصور على مآثر الخلفية المصور»
- (29) المتنقى المقصور، ص 745
- (30) نفس المصدر والصفحة.

ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية (*) «المغرب في القرنين 16 و 17 نموذجاً»

إن الكتابة حول مهنية كتابة تاريخ الأمة العربية تقتضي تجزيء هذه الدراسات إلى وحدات زمانية ومكانية من طرف المختصين، ثم تجميع الخلاصات التي وصل إليها هؤلاء قصد الخروج بتصور موحد لمعالم مدرسة عربية واحدة لكتابة تاريخ هذه الأمة.

وهذه ملاحظة أساسية لأن التعميم من شأنه أن يفقدنا القدرة على التمييز بين مختلف فترات تاريخ أمتنا، فتاريخ الأمة العربية قبل الإسلام ليس هو تاريخها في الفترة الإسلامية، وفترة العصر الحديث (القرنين 16 و 17) ليست هي الفترة المعاصرة (القرنين 19 و 20)، وتاريخ الشرق العربي له خصوصياته تميزه عن تاريخ المغرب العربي وإن كان يشترك معها في بعض النقط.

وهذه مساهمة متواضعة لدراسة تاريخ قطر من أقطار هذه الأمة في فترة معينة نبدي فيها بعض الملاحظات التي تمكنا من مقارنتها بتجارب أخرى في العالم العربي.

حينما نتحدث عن المغرب في القرنين 16 و 17 فإن قضايا عديدة تطرح أمامنا، وتطرح معها نوعية الوثائق الممكن الاستفادة منها.

7 - المد الاستعماري الإيبيري في شمال إفريقيا :

من المعلوم أن إسبانيا تتبع ما يبقى من الأندلسيين في شبه الجزيرة الإيبيرية وقدفت بهم خارج الحدود، فكان رد فعل هؤلاء عنيفاً، إذ تعاونوا مع القوات الإسلامية بشمال إفريقيا (مغربية وتركية) للوقوف في وجه من آخرهم ولاسترجاع ما ضاع منهم، وهنا سرر نوعية الوثائق المستخدمة. فالوثائق الأوروبية

تعتبرهم بكل بساطة قراصنة يسعون إلى السلب والنهب دون أن يقيموا أي اعتبار للأهداف الحقيقة التي حلت الأندلسيين يواجهون الإسبان والأوروبيين عموماً بهذا العنف، وعندما حاول عدد من الدارسين الأوروبيين دراسة المغرب في هذه الفترة انطلقوا من هذه الوثائق^(١) ، مما جعلهم يسقطون في أحکام خاطئة حول هؤلاء. وفي السنوات الأخيرة بدأ بعض الدارسين المغاربة ينظرون برأيه جديدة إلى هذه الوثائق محاولين استنطاقها، وفي نفس الوقت وضعها أمام الوثائق الوطنية لكي يبرزوا من خلالهاحقيقة الدور الذي كان يقوم بها هؤلاء لصد العدوان الإيبريري على المغرب، وبذلك أعطوها صفة «الجهاد البحري» إنطلاقاً من الدوافع الحقيقة التي كانت تحرّك الأندلسيين. إننا لا نقصد بهذا التقييس من قيمة الوثائق الأوروبية، وإعلاء قيمة الوثائق العربية لتأييد ما نذهب إليه. فهذا عمل من شأنه أن يسقطنا في شوفينية ما، وبالتالي فهو لا يخدم التاريخ المغربي والتاريخ العربي في شيء، بل بالعكس يبعينا عن الحقيقة التاريخية مسافة كبيرة.

إننا نقصد بالخصوص أن نعطي للوثيقة الوطنية وزها بحاحب الوثيقة الأجنبية، فعندما نكتب عن هؤلاء الأندلسيين ننطلق أولاً ما كتبه عنهم المغاربة، ثم نحاول أن نلقي بعض الأصوات على بعض القضايا إنطلاقاً من وثائق أوروبية معينة، ونحاول أن نقوم بعملية مقابلة بين هذه وتلك، فنجد في النهاية أن الوثائق في حقيقتها متكاملة. فإذا بحثنا الدوافع التي كانت تحرّك الأندلسيين في الوثائق الوطنية وجدناها تتلخص في «الجهاد البحري ضد الكفار»، وإذا بحثنا عنها في الوثائق الأوروبية وجدناها ترکر على القرصنة قصد الحصول على الغائم، وبذلك تصبح الدوافع كالتالي : الجهاد البحري للانتقام من آخر جوهم من ديارهم + وللحصول على الغائم في نفس الوقت، بل ولم لا الحصول على نفوذ سياسي داخل المغرب، ونفوذ معنوي لدى القوات الأوروبية

أما عن الاستعمار البرتغالي بالمغرب فالوثائق البرتغالية تحاول أن تصور لنا تعاون بعض المغاربة مع البرتغاليين، بل واعتنق بعضهم لل المسيحية، «والانتصارات الباهرة التي حققها البرتغاليون بالمربي». فعندما درس الأوروبيون الاستعمار البرتغالي بالمغرب درسوه إنطلاقاً من هذه الوثائق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الوثائق الوطنية، و موقف المغاربة الحقيقي من هذا الاستعمار، بعم لقد تعاون

بعض المغاربة مع البرتغاليين؟ لماذا دخل بعض المغاربة في النصرانية؟ هل حقق البرتغاليون فعلاً «انتصارات»، ما هي وضعيتهم في المراكز المحتلة؟

بطبيعة الحال الوثائق الأوروبية سكتت عن الأحوية، وهنا أيضا يبرز دور الوثائق الوطنية. فإذا حاولنا أن نبحث عن المعاوين مع البرتغاليين نجد أنه قليل جداً، وحتى إن وجد فهو من طرف أصحاب المصالح، وبالتالي فهم لا يمثلون المغاربة في شيء، فهم عملاء للبرتغال، منفصلين عن المغاربة، بدليل أن المغاربة قاطعواهم، وكانوا يتحينون الفرصة للتخلص منهم إلى أن تمكنوا في العديد من المرات من ذلك. أما عن السؤال الثاني حول «دخول عدد من المغاربة إلى النصرانية» فنشير إلى وصعية المغرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتدهورة في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16، إذ تکالب على المغرب في العهد الوطاسي الجماف والممرض والمحروب الأهلية، مما اضطر المغاربة إلى بيع ابنائهم للبرتغال مقابل لقمة عيش حتى لا يموتونا حوعا، وهذا يدو تفسير هذه الوضعية واصحاً، إذ كانوا يتظاهرون باعتناق المسيحية مقابل الخبر، بدليل أنه بمجرد احتفاء هذه العوامل لم يعد ذكر هؤلاء الذين ظاهروا باعتناق المسيحية، مما على تأثيرهم لم يعتقدوها أبداً. أما عن «الانتصارات»؛ فالتأريخ يبطل هذه المزاعم، فقد طل العلماء يخوضون المغاربة على الجهاد، وطل البرتغاليون محاصرين في مراكزهم لا يقررون على الخروج منها.

2 - التوسيع العثماني :

لم يختلف العرب على قضية تاريخية معينة مثل اختلافهم حول تقويمهم للوجود العثماني بالعالم العربي.

فيما اعتبر البعض وجودا ضروريا لابه انقد هذا الأخير من المد المسيحي، إعتبر البعض الآخر عامل حق للقومية العربية بحيث طمس معالها طيلة سنوات الوجود العثماني به، خاصة في الجانب الفكري. ولن ندخل في هذا النقاش وسوف نسير مع الخط الذي ارتئيته خدا السحت ألا وهو البحث عن الوثائق التي تناولت قضايا مغرب القرنين 16 و 17

لقد كان المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي نجا من السيطرة العثمانية، واعتبر ملوك الدولة السعودية أنفسهم أحق بالخلافة الإسلامية من (المالك الأتراك)، وذلك بفعل شرف نسبهم الذي يعطينهم هذا «الحق»،^(٢) وما فتئ مؤرخوا الدولة السعودية يلحون على هذه القضية.^(٣) واتجه ملوك الدولة السعودية إلى تحسين علاقتهم مع الإسبان لاستخدامها كعامل توازن في علاقتهم مع الأتراك، أي أن السعديين كانوا يواجهون الأتراك بالإسبان. وهنا أيضاً تبدو أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والوثائق الأوروبية التي دعونا إليها في مستهل هذا البحث. فإذا اعتبرنا الوثائق التركية وبعض الوثائق الوطنية بعض ملوك الدولة السعودية خونة،^(٤) وإذا اعتبرنا الوثائق الأوروبية فهي علاقات القصد منها المحافظة على التوازن بالمنطقة.

وإذا حاولنا أن ندقق هذه النقطة وانطلاقاً من نظرية التكامل والمقابلة فإن الأمر يبدو عادياً من الوجهة الدبلوماسية. فمقابل أن يحافظ بعض ملوك الدولة السعودية على استقلال المغرب عن أي نفوذ تركي عمدوا إلى تحسين علاقتهم مع الإسبان أعداء الأتراك.

تلك كانت نظرة سريعة عن أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والأجنبية، ولنتنتقل إلى نقطة أخرى طالما اتفق فيها العديد من الباحثين المغاربة والأوروبيين على السواء لا وهي قصور الأسطغرافية الغربية التقليدية عن كتابة التاريخ الاجتماعي والفكري والاقتصادي للمغرب، ذلك أن كثيراً من المصادر التاريخية المغربية طالما اهتمت بالسلطة المركبة والفتات الاجتماعية المحيطة به،^(٥) مهملة عن قصد أو غير قصد تاريخ الشعب (العامّة) على اعتبار أن تصرفات (الفشّات الدينية) من المجتمع لا تستحق التسجيل. ولكن الأبحاث التي بدأت تتصرّف أخيراً بدأت تدعى إلى استخدام مناهج العلوم الأخرى (علم الاجتماع، أنتropولوجيا، أثنوغرافيا، لسانيات، أركيولوجيا). لفك رموز هذه الوثائق ومحاولة تطويرها لميدان البحث التاريخي بمفهومها العصري.

كما نشير إلى أهمية إستغلال الوثائق التي لم يقع إستغلالها بعد بالشكل الكافي نتيجة تهميشها لسنوات طويلة من طرف الباحثين، مثل : فهارس الشيوخ، والاجازات العلمية، والحوالات الحبسية، والكتاشات، والتقايد التاريخية، والرسوم العدلية، والعقود الخاصة إلى غير ذلك . . . فهذه الوثائق تساعدننا معاً عظيم في محاولة استخلاص جوانب معينة من الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للمغرب.

هوامش

- (*) نص المداخلة التي تقدم بها الباحث في المؤتمر الذي عقده اتحاد المؤرخين العرب ببغداد في الفترة المتراوحة بين 29 و 27 في موضوع : «سحو مدرسة عربية لهم التاريخ وكتابته» وقد نشرت بمحليات كلية الآداب بالدار البيضاء، عدد 5، 1988 ديسمبر 1987.
- (1) عبارة عن تقارير لمبشرين أو رهبان أو جواسيس أو تجار أو قناصلة يخدمون بلدانهم الأصلية
- (2) طبقاً للحديث الشريف «لقدموها قريشاً ولا تقدموها»
- (3) انظر مثلاً عبد العزيز القشتالي، منهاج الصفا، وعلى المحروبي، النفحة المسكية، وأحمد بن القاضي، المتقدى المنصور
- (4) تتعلق هذه الملاحظة بالخصوص على عبد الله الغالب السعدي انظر تاريخ الدولة السعودية، مؤلف مجهول.
- (5) علماء وفقهاء وتجار وقادة عسكريون.

قضية الشعوبية في التاريخ الإسلامي (*)

احتلت قضية الشعوبية مكاناً بارزاً في التاريخ الإسلامي بدل على ذلك ما ألف حوها قديماً وحديثاً، من طرف كتاب عرب وأوروبيين، وتأتي أهميتها من كونها تطرح مسائل عديدة تتعلق بنوعية العلاقة التي كانت قائمة بين العرب والمعجم خاصة الفرس، وكذا بابعاد هذه الحركة فكريياً وسياسياً ودينياً.

أولاً : السياق التاريخي لقضية الشعوبية :

مرت لفظة الشعوبية بتطوريين متباينين، فقد اطلقت في الطور الأول على جماعة تذهب إلى أنه لا فرق بين الشعوب من عرب وعجم، ولذلك سموا «بأهل التسوية»^(١) وكان هؤلاء من المولى الذين وجدوا في تعاليم الإسلام ما يخرجهم من وضعيتهم المتدانة. إلا أن الأحداث التي صاحبت قيام الدولة العباسية جعلت لفظة الشعوبية تنحرف عن مدلولها الأول لتطلق على فرقة جديدة لم تقف عند حد المساواة بل تعدتها إلى الخط من شأن العرب واحتقارهم والطعن في إنجادهم، وذلك ما سنوضحه في التحليل الآتي :

منذ بداية عهد الأمويين بدأ هؤلاء المولى يكونون جالبات كبرى حول الامصار (تدل آنذاك على المدن العسكرية) التي أقامها الخلفاء والفاخرخون لاستقرار الجيوش العربية ، ومن جملتها البصرة والكوفة بالعراق ، والقطاط بمصر ، والقيروان بأفريقية ، ورغم اسلام هؤلاء في الأمويين رفضوا منهم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما سبب لهم تذمراً مشوباً بنزعة الانتقام ، وبالتالي جعلهم يتضمنون إلى جل الحركات المناهضة إلى الحكم الأموي كالخوارج والشيعة ، وقد تجلى عدم المساواة فيما يأتي :

1 - في الوظائف الرسمية : منع المولاي من تقلد وظائف في السلطة مثل الولاية والقيادة والقضاء ، ونشير هنا الى ان الأمويين لم يكونوا يجهلون كفاعة هؤلاء ، فقد استنادوا منهم بالفعل في الميدان الاداري خاصة الادارة المالية . لكن الامر وقف عند هذا الحد اي حد المساعدة التقنية ، بينما ظلت السلطة الفعلية بيد العرب .

2 - وضعيتهم داخل الجيش : كان المولاي يستخدمون في الجيش باعتبارهم مشاة لكنهم لم يكونوا مسجلين في الديوان وهذا لا يدفع لهم العطاء

3 - وضعيتهم الاجتماعية : اعتبر العرب ان الحرب والتجارة اساس حياتهم المعاشرة ، وتركوا الاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة للمولاي ، ويمكن ايضا ملاحظة انخفاض مكانة المولاي الاجتماعية في مخاطبتهم بالقائم الخاصة ولا يحق لهم استهان الكني الا ناذرا . كما لم يكن مسماً حا لهم ان يتزوجوا نساء عربات ، كما ان ابناء العربي من امرأة غير عربية لا يأخذون نفس الحصة من ارث أبيهم من ابناء العربي من ام عربية .

4 - في السياسة المالية الموسعة : تجلت عدم المساواة بشكل واضح في السياسة المتبعة من طرف الأمويين ، فقد ظل المولاي يؤدون الضرائب الثقيلة رغم اسلامهم نظرا للحاجة المستمرة للموارد المالية ، نتيجة توقف الفتوح .

وهكذا وجد العباسيون في المولاي الفرس خير مساعد على تقويض دعائم الحكم القائم ، حتى قبل بان الدولة العباسية اصطبغت بالصبغة الفارسية ، بل عدها الجاحظ اعجمية اذ يقول في هذا الصدد «دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان اعرابية» .⁽²⁾

ويقول المقريري أيضا في هذا الصدد : «ان بني العباس أخذوا الخلافة بالغلبة بابدي عجم اهل خراسان ، ونالوها بالقوة ، حتى ازال عجم خراسان دولة بني أمية . بل استحال الخلافة كسردية قيسارية» .⁽³⁾

ولا شك ان المكاسب التي احرزها الفرس في هذه الدولة الجديدة من الأهمية بمكان، ذلك انهم اثبتو سيادتهم في المجال السياسي والاداري والاجتماعي فشغلوا المناصب العليا، وكان منهم الوزراء والكتاب والحجاج والبطانة الخاصة، وفي ذلك يقول المقرizi حين يتحدث عن المنصور : «هو اول خليفة استعمل مواليه وعلمائه في اعماله ، وقد مهمن على العرب فاقتدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادة العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها . . . »⁽⁴⁾ . وهنا اخذ الصراع بين العرب والموالي طابعا جديدا، وانتقلت حركة الشعوبية من المطالبة بالمساواة الى مرحلة التحصّب للعجم والاعتراف بفضلهم على العرب.

ثانياً : آثار الشعوبية على الدولة الإسلامية :

كان للشعوبية آثار عديدة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والديني إلى غير ذلك.

١ - عل الصعيد السياسي :

- اضعاف الدولة الإسلامية نتيجة الفتنة الداخلية :

اشترك الموالي في العديد من الفتن والثورات مما زاد في خطورتها واضاف اعباء جديدة على الدولة ، وشغلها عن الزيادة في رقعة الاسلام . وقد ظلوا يتربون الفرصة الى أن انضموا في النهاية إلى العباسين ، وحاولوا بث التفود الفارسي . فقد حاولوا ذلك - مثلا - في عهد المنصور، لكنه فطن للأمر، اذ لم يقبل تدخل ابي مسلم الخراساني في امور الخلافة ، اذ شعر بالروح الشعوبية والعصبية الفارسية واضحة جلية عنده فأمر بتصفيته .

لكن القضية لم تنته بمقتل ابي مسلم بل أدى ذلك الى قيام كثير من الحركات التي ازعجت الخلافة لمدة غير قصيرة . فقد خرجت عدة فرق بغرض الثار لا بـ ابي مسلم في صورة صراع شعوي عنيف .

- تفكيك وحدة العالم الإسلامي .

نجحت الحركة الشعوبية في تفكيك الوحدة الإسلامية، وهكذا قامت الدولة الطاهرية في خرسان والدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، وهذه الدولة وإن كانت تعلن تبعيتها للدولة العباسية إلا أنها كانت في الواقع تبعية اسمية.

- رأت طائفة من الموالي أن حكم العرب لها ضرب من سخرية القدر، وإن بني هاشم غير مؤهلين لأن يسوسوا شعوباً عريقة في المجد والعظمة. وفي ذلك يقول شاعرهم :

بني هاشم عودوا الى نخلة لكم
فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتم رهط النبي محمد
(٥) فان النصارى رهط عيسى بن مريم

لذلك عملت هذه الشعوبية على بث المجد الكسروي وايقاظ القومية
الفارسية عند المسلمين الفرس.

وقد اعتبر المولى الفرس انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد انتصار لهم، اذ
اعتبروه اعترافاً من الدولة الجديدة بفضلهم.

كما ان تطلع الاعاجم للوزارة ومنافسة العرب عليها، لم يكن الا مظهراً من
مظاهر الشعوبية السياسية، حتى ان الوزارة أصبحت وفقاً عليهم، فقد كان اغلب
الوزراء من العناصر الفارسية. وأول من لقب بالوزير في الاسلام هو ابو سلمة
الحالل الحمداني. (٦)

وقد اشتهر في هذا الصدد البرامكة في عهد الرشيد الذين كانوا يمثلون اوج
النفوذ الفارسي وسلاح الشعوبية الحقيقي. (٧)

والملاحظ ان الطابع الفارسي فرض وجوده على النظم السياسية والادارية
فتعددت الدواوين، ولم يعد القضاء مقصوراً على العرب وحدهم، وكان اول من
تولى منصب قاضي القضاة فارسياً، وكذلك كان قاضي بغداد. (٨)

واشهر الكتاب الشعوبين الذين عرروا بعدهم للعرب : ابن المفع ، وسهل ابن هارون ، وغيلان الشعوبي .

2 - على الصعيد الاجتماعي :

دعت الحركة الشعوبية الى نبذ التقاليد العربية واحلال التقاليد الفارسية محلها ، وهي ترمي بذلك ان تجعل من المجتمع العباسي صورة لمجتمع الفرس ، وقد سارع بعض العرب فعلاً لمحاكاة الفرس حتى قال المقريزي : «فسموا عوائد العجم ادباً وقدموها على السنة . . .» ، بل تشبه بعض الخلفاء العباسيين بأكاسرة الفرس وقلدوهم في التعليق بمظاهر الترف والبذخ ، واتخاذ البطانة الخاصة ، ونصب الحجاب على الابواب

3 - على الصعيد الثقافي :

طاعت الحركة الشعوبية في تراث العرب الأدبي ، وفي لغتهم ، فقادت تحامل على الإبداع الأدبي العربي ، وترمي الشعراء بالبداءة والبعد عن الحضارة . ولم يقف الأمر عند حد الشعر ، بل تعداه إلى النثر أيضاً : ذلك أنه الفت كتب كثيرة في ذكر مثالب العرب ، وأظهار عيوبهم ، ونقاط الضعف في تاريخ القبائل وأنسابها ، ويوضح لنا الدور الذي لعبته الترجمة في نقل التراث الفارسي خاصمة كتب الزندقة . وكان ابن المفع رائداً في هذا المجال ، كما كان للدراما دور التشجيع وتقديم المنح بسخاء للمترجميه والمؤلفين الذين يخدمون حركة الشعوبية هذه .⁽¹⁰⁾

4 - على الصعيد الديني :

ارتبطت الشعوبية بالزندقة ارتباطاً شديداً ومن تم كانت تهدف إلى افساد العقيدة الإسلامية وإثارة الشكوك حولها . وهكذا فقد حاولوا إعادة بعث الديانات الفارسية القديمة من مانوية ، ومزدكية . . . وإذا كان بعض الشعوبين لا يتورعون عن مجاهرتهم بالعداء للعرب والإسلام ، فإن بعضهم جأ إلى الوسائل الخفية التي تحقق الغرض المقصود ، دون أن تثير الشبهات ، وهكذا انضم عدد من هؤلاء إلى الحركات المنظرفة من شيعة ورفض ، وارجاء ، وتعصباً لها . وانكبوا على دراسة

العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث، رغبة في التفوق على العرب من جهة وكسبا لثقة المسلمين من جهة أخرى، فلما نبغوا في تلك العلوم استهانوا بها، ثم قاموا بوضع أحاديث كاذبة ونسبوها إلى الرسول ﷺ، وغضبهم من ذلك تضليل الناس وتشكيك ضعفاء العقول في أمور دينهم .⁽¹¹⁾

ثالثا : موقف العرب من الحركة الشعوبية :

ادرك العرب خطورة هذه الحركة، فكثروا ما كان الخليفة يتبع المسؤولين عنها، فالمتصور - مثلا - امر بنفي الزنادقة والمجان إلى البصرة، كما امر بالقبض على عبد الكريم بن أبي العوجاء وقتلته، بعد أن اعترف بسعيه لتشويه الحديث وأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوبا⁽¹²⁾.

كما استحدث المهدى منصبا جديدا اسمه (صاحب الزنادقة) مهمته تعقب الملحدين والاقتاصاص منهم⁽¹³⁾. ثم امر بتصنيف كتب الجدل بالرد على الزنادقة الملحدين⁽¹⁴⁾.

اما الرشيد فقد هدم وكر الشعوبية بالقضاء على البرامكة، وتصدى لهذه الحركة ايضا طائفة من العلماء المسلمين في مختلف الميادين، وهكذا أصبحت اللغة العربية موضع اهتمامهم، وألقت في ذلك عدة كتب مثل كتاب العين للخليل بن احمد والكامل للمبرد، وكتب أخرى في الشعر والأدب. اما الدفاع عن العقيدة الإسلامية، فوكلت إلى طائفة من أئمة المسلمين، نذكر من بينهم الإمام الصادق، والإمام أبو حنيفة والإمام ابن حنبل.

هذا هو التاريخ ، وهذه صفحاته فيما إذا فعلنا لمواجهة الشعوبية الحديثة خاصة ان الأمة العربية مستهدفة من واجهات متعددة ؟
 - فإذا كانت الشعوبية القديمة تنكر على العربي فصاحته وبلاغته ، فإن الشعوبية الحديثة تحاول بكل الوسائل هدم اعمدة الشعر العربي : اوزانه وقوافيها ، وكل هذا تحت غطاء تطوير الشعر العربي .

وإذا كانت الشعوبية القديمة ، تختلف القصص والحكايات لتشويه سمعة العرب وبث الشقاق بين صفوفهم ، فان الشعوبية الحديثة تقوم بنفس الدور، ويكتفي ان نقرأ ونسمع ما يكتبه الصهاينة لتأكد من ذلك.

- وإذا كانت الشعوبية القديمة لا تتورع في وضع الاحاديث الكاذبة لتمجيد العجم وخاصة الفرس ، فالشعوبية الحديثة تجاهل الشكيل في الصحاح من الاحاديث الشعوبية القديمة قد عممت باستمرار لفصل العرب عن ثراثهم الحضاري الاسلامي ، فان الشعوبية الحديثة تقوم الان بنفس الدور على الاقل في نقطتين :

- الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .

- الدعوة الى الأخذ بالعامية عوض اللغة الفصحى .

الهوامش

- (*) اعد برسم «الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوي» ، التي انعقدت ببغداد في سنة 1989 . وقد نشر بالعدد السابع من جوايات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1) بالدار بالبيضاء ، 1990 .
- (1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 3 : 403 .
- ويقول الجوهري في الصحاح ، مادة شعب : «الشعوبية فرقا لا تفصل العرب عن العجم»
- (2) البيان والتبيين ، 3 : 367 .
- (3) أورده زاهي قدورة في كتابها الشعوبية واثرها السياسي والاجتماعي ، ص. 79 .
- (4) السلوك معرفة دولة الملك ، 1 : 15 .
- (5) مروج الذهب ، 3 : 291 .
- (6) تاريخ البغوي ، 2 : 352 .
- (7) زاهية قدورة ، المصدر السابق ، ١٦٨ .
- (8) الجهشاري ، الوزارة والكتاب ، ص. 232 .
- (9) ابن الأثير ، الكامل ، 8 : 28 - 29 .
- (10) المرتضى ، الأمالي ، 1 : 127 - 137 .
- (11) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، 8 : 165 .
- (12) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، 271 .

وثائق جديدة عن الحركة الفكرية في العهد السعدي (*)

بدأ في السنوات الأخيرة الاهتمام بعض الوثائق التي ظلت مهمشة لفترة طويلة. فإلى وقت قريب كان المؤرخ للحياة الفكرية يتوجه إلى كتب التاريخ التقليدية ليستقي منها مادته، فيصاب بخيئة أهل عند أول مواجهة مع المصادر، فيردد باستمرار أن المؤرخين المغاربة لم يتموا إلا بالأحداث السياسية التي تتمحور حول السلطة. وهو قول - وإن كنا لا نتفق معه في كل ما ذهب إليه - يعبر عن مدى قصور المصادر التقليدية عن كتابة التاريخ الفكري والاجتماعي للمغرب. وانطلاقاً من هذا فقد اتجهت بحثات عديدة إلى مناهج جديدة في محاولة منها لفك (الحصار المضروب على الوثائق الوطنية)، وادخالها إلى ميدان البحث التاريخي، مستخددين في ذلك مناهج العلوم الأخرى كمنهج علم الاجتماع، والأنתרופولوجيا، والاتنولوجيا، والاقتصاد، والاحصاء. وقد أعطت هذه البحوث بالفعل في مرحلتها الأولى نتائج مشجعة. ومن الوثائق التي بدأت تدخل ميدان تاريخ الحركة بالمغرب : الفهارس والاجازات لما لها من أهمية في إبراز نوعية العلوم الملقنة، وطريقة تلقينها، ودراسة سلوك المشرفين عليها. ولاشك أنه بتجميع هذه الفهارس والاجازات يمكن أن نرصد الحركة الفكرية ونستبع تطورها، واسعاعها داخل المغرب وخارجيه، وبالتالي فإن هذا النوع من الوثائق يوفر لنا مادة خام لاتوفرها لنا المصادر التقليدية.

وسنعرض في مقالنا هذا لأنواع من الاجازات لعلماء من العصر السعدي عاشوا في فترة معينة، هي فترة أحمد المنصور الذهبي .
وتضم هذه الوثائق (١) :
- أربع إجازات .
- تدبيج واحد .
- وفهرس واحد .

أولاً : اجازة أبي القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف لأحمد بن القاضي سنة 999 هـ.

الحمد لله وحده وصل الله على سيدنا محمد وإله [وصحبه وسلم تسليما] ⁽²⁾. وبعد، فيقول أهل عبادة الله تعالى : أحمد بن محمد بن أبي [العافية الشهير] ⁽³⁾ بابن القاضي - خار الله له بمنه وادخله برحمته في . . . ⁽⁴⁾ : فرأى . . . ⁽⁵⁾ الصالح المحدث المتضمن . . . ⁽⁶⁾ سيدتي أبي القاسم بن عبد الواحد المخلوف . . . ⁽⁷⁾ الابر، الرحالة، قدوة أهل زمانه، وفريدة وقتها . . . ⁽⁸⁾ مالك بن انس، وأجازنا . . . ⁽⁹⁾ وحديث الرحمة المسلسلي بالرواية، وأجازنا في كل ما يجوز له وعنه روایته بشرطه بحق روایته بذلك عن عدة مشايخ اعلام وعلماء عظام كالشيخ الصالح المقطوع بولايته المحدث أبي النعيم وضوان بن عبد الله الجنوي ، والشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي ، والشيخ العالم العامل ، محدث الانام ، رجل البالي وال ايام : الشيخ قطب الدين العجمي المكي ، عن استجازة والده - رحمه الله - ، عن مشايخ اعلام ، كالشيخ نجم الدين الغطي ، والشيخ أبي الحسن البكري . . . ⁽¹⁰⁾ ، [أبي اسحاق] ⁽¹¹⁾ بن عبد الرحمن العلقمي ، والشيخ الطبلاوي ، وجامعة وافرة . واخذ شيخنا المذكور عن والده ، عن نجم الدين الغطي ، وعن أبي الحسن البكري ، وعن والده ، وعن العلقمي ، والطبلاوي المذكورين . وأجاز لنا - ابقاء الله - كل ما يحمله من الكتب الحديثية وغيرها بشرطه المعتبر عند اهله . وكان السباع المذكور بمراکش المحروسة ، وحضره جماعة من الاصحاح ، كإمام الدين محمد بن قاسم بن علي الخليل ، وابي حفص عمر البسطي الفاسي . . . ⁽¹²⁾ بن سيدهم المحمدي ، وابي علي بن مسعود الدرعي ، والخاج ابراهيم بن محمد . . . ⁽¹³⁾ ، وابي عبد الله محمد مسعود الدرعي ، وابي سرحان مسعود بن عمرو الشباني في يوم الجمعة الثامن عشر من المحرم الذي من شهور سنة تسع وتسعين وتسعين وتسعمائة . وكتب للعبد المذكور، حامدا الله تعالى ، ومصليا ومسليا ومحوقلا ومحسبلا وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما.

صحيح ذلك ، وكتب عبید الفقیر اليه : ابو القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف - رفقه الله لما يرضيه تعالى بمنه . ومولدي تقریبا سنة اثنتين وستين وتسعمائة . . . ⁽¹⁴⁾ والصلاحة والسلام الاقلام الاكملان على محمد وتلى آله وصحبه .

وأنشدنا محينا المذكور عن قطن الدين العجمي المذكور :

إذا عرف الانسان اخبار من مضى ⁽¹⁵⁾
توهته [قد عاش من أول الدهر]
وتحسسه قد عاش [آخر عمره ⁽¹⁶⁾
إذا هو قد ابقى الجميل من الذكر]
فكن عارفا اخبار [من مات وانقضى ⁽¹⁷⁾
وعش ذا نوال واغتنم أطول العمر]

ثانيا : اجازة علي بن احمد القرافي لاحمد بن القاضي مؤرخه في 11 ذي
القعدة سنة 986 هـ / 9 يناير 1579 ⁽¹⁸⁾.

الحمد لله العظيم الامد ، والصلوة والسلام على أشرف العالمين أحمد ، وعلى
آله وأصحابه واتباعه احرزاه على الدوام .

وبعد ، فقد قرأ على المولى الاجل العام العلامة ابو العباس احمد بن مولانا اي
عبد الله محمد بن القاصي المغربي الفاسي - نفع الله تعالى به - فاتحة الكتاب المبين
بقراءتها مي على مولانا قاضي قصاة المالكية بمصر أبي عبد الله محمد التتائلي
المالكي ، شارح مختصر مولا الشیخ خلیل وغير ذلك من كل مؤلف جلیل بقراءته
ایها على شیخه مولانا شیخ مشايخ الاسلام برهان الدین اللقانی المالکی ، بقراءته
ایها على التسبیح علم الدین سلیمان معلم اولاد الجان بقراءته ایها على شمشهروس
قاضی الجان بقراءته ایها على رسول الله - ﷺ - سید ولد عدنان . وسمع ذلك على
براءته مولانا احد مشايخ الاسلام الشیخ زین الدین بکر الغمری ، وولده
النجیب محمد وكذا الشیخ العالم العلامہ زین الدین بن عبد الرحیم بن عبد الله ⁽¹⁹⁾
من اعمال فاس ، واجزت كل من ذکر منهم بها وبجمعی ما یجوز لی وعنه روایته
بشرطه المعترض عند اهل الحديث والاثر في صیحة يوم الجمعة المبارک حادی عشر ذی
قعدة الحرام سنة ست وثمانين [وتسعمائة] .

وكتبه علي بن احمد بن علي الانصاری القرافي الشاعی حامدا مصلیا مسلما
انتهى بنصه ومن خطه - رضي الله عنه - .

ثالثا : اجازة جماعية للمفتى عبد الواحد الحسني السجلجاسي في أواخر شوال عام 998/غشت 1590 لاحمد بن القاضي، محمد التواني و محمد ابن يعقوب اليسبي جميع ما اشتمل عليه فهرسه.

الحمد لله وحده و يتلي على سيدنا محمد وإله وسلم تسلیماً وبعد ، فيقول أهل عبید الله تعالى ، واحرحهم اليه : أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي الْعَافِيَةِ الْمَكَانِيِّ الشَّهِيرِ بَنْ أَبِي الْقَاضِيِّ - خَارَ اللَّهُ لَهُ بِمِنْهُ وَادْخَلَهُ بِرَحْمَتِهِ فِي فَضْلِهِ وَامْنَهُ - : قرأت هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الشيخ العالم العلامة، المتقن الفهامة السيد . . .⁽²⁰⁾ المسند حجة الاعلام ، وحسنة الليالي والايات ، لسيدي وستدي ومفیدي وعلمي ابو مالک سید عبد الواحد بن احمد الشريف الحسني

- ابقاء الله ملادا للمستديين ، مطافا للمتعلمين ، محمد وءاله . . .

وأجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روایته بشرطه المعتبر عند أهله⁽²¹⁾ وكانت القراءة المذكورة بلطفتي وحضرها حم غفير من طلبة العلم : كالشيخ الفقيه المحدث ابی عبد الله محمد بن ابی بکر التواني ، والفقیہ ابی عبد الله محمد ابن يعقوب اليسبي الرواوية الادیب الحافظ المتقن ، وجامعة ، واجازني . . .⁽²²⁾ حضر بمثل الاجازة المذكورة في أواخر المبارك عام ثانية وتسعين وتسعمائة .

ويتلي على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسلیماً آمن صريح ذلك . قال له وكتبه بخطه عبد الواحد بن احمد بن محمد بن الحسن الحسني غفر الله لمنه .

رابعا : تدبیج⁽²³⁾ احمد بن القاضی مع محمد بن ابی بکر التواني (24) شوال عام 998 هـ / 26 غشت 1590).

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وإله وصحبه وسلم تسلیماً وبعد ، في يقول كاته اقل عبید الله تعالى احمد بن محمد بن محمد بن أَحْمَدَ بْنَ عَلَيْ أَبِي الْعَافِيَةِ الشَّهِيرَةِ بَنَ أَبِي الْقَاضِيِّ - خَارَ اللَّهُ لَهُ بِمِنْهُ وَادْخَلَهُ بِرَحْمَتِهِ فِي فَضْلِهِ وَيمِهِ - : قرأت عل الشيخ العالم ابی عبد الله محمد بن محمد بن ابی بکر بن الحاج موسى التواني الذي ولد سنة احد وأربعين وتسعمائة بعض صحيح الامام ابی عبد الله محمد

ابن اسماويل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردية **البخاري** ، وأجازني فيه بحق قراءته اياه على الشيخ الفقيه محمد بن محمود بن ابي بكر **بعين** عن ابي عبد الله اند غحمد بن محمد بن محمد بن أحد الدثر التازخي ، عن الشيخ ابي الفتح ابراهيم ابن علاء الدين القبرشي **القلقشندى** ، عن ابن حجر الى آخره . . ونص اجازته بعد البسمة والتصلية الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وافضل الصلاة واتم السلام على افضل المخلوقين سيدنا ومولانا محمد رسول رب العالمين وعلى الله واصحابه السادات البررة الاكرمين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، وعلى سائر انباء الله والمؤمنين ، وذلك كل وسائل عباد الله الصالحين . أشهد الا الا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك ، الحق المبين ، وشهاد ان سيدنا محمد عبده ورسوله الصادق الامين .

وبعد فقد اجزت للاح في الله محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي - نور الله قلبي وقلبه بأثار اليقين ، وشرح صدرى وصدره لتلقي فوائد العلم والدين أن يروي عني صحيح الامام الحجة ابي عبد الله محمد بن اسماويل بن ابراهيم بن بردية **البخاري** - رضي الله عنه وأرضاه ، وأعاد علينا من بركاته وبركاتات علومه - لسعاه متى قرأت من أوله الى آخره سوى فوتات يسيرة . وقراءته له علي من أوله لآخره عموما فأجرت له روايته عني بالامرين المذكورين لما تحققته - مع ذلك - من تأمله لذلك وصلاحه له نفعه الله بذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم - وذلك بحق روايتي له عن شيخنا ناصر السنة وحامل لوائها ابي عبد الله اند غحمد بن الفقيه محمد بن أحد الدثر التازخي - رحمه الله مع أسلافه واشياخه ، وجازاه عنا وعن رسوله افضل واجحسن ما جازى به حملة حديثة ونقلة سنته - قراءة وساعا من لفظه غير مأمرة قائلًا : أخبرنا اجازة شيخنا شيخ الاسلام قاضي القضاة جمال الذي ابو الفتح ابراهيم بن علاء الدين القرشي الشافعي **القلقشندى** - رحمه الله ونفعنا بعلمه وبركته - قال اخبرنا الحافظ ابو الفضل احمد بن حجر اخبرنا ابو علي محمد بن احمد بن علي بن عبد العزيز المهدوي اذنا مشافهة ، عن يحيى بن محمد بن سعد ، عن جعفر ابن علي الهمداني . اخبرنا ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدبياجي اجازة ، اخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباهلي ، حدثنا الحافظ أبو علي الجياني ، اخبرنا ابو عمر بن محمد بن الحداء سعاعا ، وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله اجازة . قال اخبرنا ابو محمد عبد الله به محمد بن أسد

الجهني اخبرنا ابو علي سعيد بن . . .⁽²⁴⁾ بن السكن . اخبرنا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن البريري . اخبرنا الحجة امير المؤمنين ابو عبد الله بن اسيا عيل البخاري - رضي الله عنه وأرضاه .

قال هذا وكتبه فقيه رحمة ربه القدير محمد بن محمود بن ابي بكر بغيغ - لطف الله بهم آمين - مسلما على من يقف عليه ، وطالبا منه الدعاء بخير الدارين انتهى من لفظه . بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه .

صحيح ما ذكره السيد الفقيه ابو العباس احمد المذكور خبره ، واجزت له رواية ما ذكره على شرطه .

وكتب بذلك عبيد الله تعالى ، احرق عيده محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي في الرابع والعشرين من شوال ثمان وتسعين وتسعمائة .

خامسا : اجازة عبد الواحد السجلماسي لاحمد بن القاضي فهرسه .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلمك تسلیها . وبعد ، فيقول اقل عبيد الله تعالى واحوجهم اليه : احمد بن محمد بن احمد بن ابي العافية المكتناني الشهير بابن القاضي - خار الله له بمنه وادخله بفضلة في رحمته وحياته - : قرأت جميع هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الفقيه المحدث ، العالم الفاضل ، العلامة المشارك ، المتقن الفهامة ، وحيد عصره ، ومصباح دهره : ابو مالك سيدی عبد الواحد بن احمد الشریف الحسینی - ابی اللہ به النفع للمسلمین بجهة سید الاولین والآخرين ، واجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روایته بشرطه المعتبر عند اهله .

**سادساً : فهرس إمام الدين الخليلي مؤرخ في 25 محرم عام 999 هـ
3 نونبر 1590**

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وآله وصحبه الحمد لله رب العالمين والصلة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابته والتابعين وتتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، صلاة وسلاماً دائمين متاعبين ما أسفه صباح، ودعا داع إلى الرشد والفلاح. وبعد، فيقول العبد الفقير الراجي فضل ربه القدير، الواضح اسمه عقب تاريخه أدناه - أصلح الله له دنياه وأخراء - لما دخلت في المرة الثالثة أرض المغرب - حماها الله - قاصداً حمى مولانا أمير المؤمنين ابن الخليفة الراشدين، والأئمة المهديين، الليث المتصور، والملك المنصور، مولانا أبو العباس أحمد المنصور، وحصل من احسانه ما أعجز لسانٍ عن آداء شكره، وكانت أختلال مجالس العلماء والأدباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الإسلام بمصر والشام، وأن لي سندًا امتد بواسطتهم إلى ابن حجر العسقلاني وغيره، فرغبت إلى من له الفضل على مفيضنا وبركتنا الإمام الفاضل، والعالمة الكامل، الخير الدين النقيل⁽²⁵⁾ الرحالة مفيد الطالبين، ولـي : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي، والأديب الفاضل العلامة الواحد المتنبي المفيد الرحـال سـيدـي : الحـسـينـ بنـ أبيـ القـاسـمـ بنـ أـحمدـ الدـرـعيـ تمـ الجـوزـيـ المـلـوـيـ - خـارـ اللهـ لـهـ وـنـفعـهـ باـعـتـقـادـهـماـ - أـنـ أـخـبـرـهـماـ بـمـنـ أـجـازـنـيـ مـنـ عـلـمـاءـ الـمـشـهـورـينـ وـأـئـمـةـ الـمـهـدـيـينـ وـأـنـ أـصـلـ سـنـدـهـماـ بـهـؤـلـاءـ السـادـةـ الـأـتـيـ ذـكـرـهـمـ لـاسـيـاـ⁽²⁶⁾ فـاعـتـذـرـتـ إـلـيـهـمـ بـأـنـيـ لـسـتـ أـهـلـاـ لـذـلـكـ فـأـبـاـ إـلـاـ تـكـلـيفـيـ فـصـرـتـ أـقـدـمـ رـجـلـاـ وـأـخـرـ أـخـرـسـ لـأـنـ كـمـاـ قـيـلـ صـاحـبـ الـبـيـتـ بـالـذـيـ فـيـ أـدـريـ ،ـ ثـمـ توـكـلـتـ عـلـىـ الـمـلـكـ الـرـهـانـ وـقـلـتـ - وـبـالـلـهـ الـمـسـتعـانـ - :

لقيت من علماء المشهورين بمصر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة الشيخ الإمام محمد زمانه الشيخ نجم الدين الغيطي، ثم الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد ابن الخطيب الشربي، ثم الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي الانصاري، ثم الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد المحلى، واستجزرت هؤلاء المذكورين فأجازوني باللفظ مشافهة، وكباوا إلي بذلك اجازة بقراءتي عليهم في مواضيع من الجامعين الصحيحين فأجازوني بذلك وباقيهما وبجميع مالمـمـ من

مننظم ومنتشر مقروء مسموع ومحاز واستيجاز بحق مالهم روایته عن شیخ الاسلام القاضی زکریا، عن ابن حجر العسقلانی، والسدن منه الى النجاري معلوم، ثم قرأت على ابن القاضی زکریا بنفسه - وهو الشیخ الامام العلامة من الشیخ جمال الدین بن القاضی زکریا - مجالس كثیرة من فنون شتی من العلوم من مؤلفات والده المذکور، ومن علم الحديث وغير ذلك فاجازني بذلك وبجمعیع ماله من منظم ومنتشر ومقروء مسموع ومحاز واستیجاز بحق روایته عن والده القاضی زکریا قال : وبحق روایتی أيضاً عن الشیخ جلال الدين السیوطی قال في مشافهہ وأنا أدركت عصره، ثم بعد أن تلفظ لي بالاجازة كتب لي بخط يده وأشیدني لنفسه :

یارب اني عاجز والعجز باب المغفرة وعلى عذابي قادر والعفو عند المقدرة

ولقيت من العلماء بمصر أيضاً الشیخ نور الدین علي بن غانم المقدسي الحنفی ، والشیخ بحیی القرافی ، والشیخ نور الدین الزیادی ، والشیخ محمد البلبسی ، والشیخ ابراهیم العلقمی ، والشیخ عمر ابن عبد الحق السنباطی وأخوه الشیخة احمد بن احمد بن عبد الحق السنباطی والشیخ زید الدين الجیزی .

والشیخ عبد الدائم البقری ، والشیخ محمد البنوفی ، وهؤلاء الثلاثة الاخيرة مالکيون وأجازووني باللفظ وبالكتابة ما عدا الانحر فاللفظ فقط ، لقيت الشیخ الامام العلامة محمد بن ناصر الدين الطبلاوي ، والشیخ العلامة محمد الصدفی الوعاظ المفید ، والشیخ الامام العلامة أبو عبد محمد البرھتوشی ، والشیخ محمد بن سراج الدين الحانوتی امام الحنفیة برواق الترك داخل الجامع الازھر - عمره الله -، والشیخ محمد النماوی ، والشیخ محمد الذیب ، والشیخ علی الطوری ، وهؤلاء الخمسة الاخیرون حنفیون، وأجازووني باللفظ والكتب لي بالاجازة الا البعض منهم وباللفظ فقط ، والشیخ الامام العلامة صالح بن احمد البلقنسی وأخوه الشیخ بحیی ابن احمد والشیخ محمد البهنسی وآخرين من يطول ذكرهم ، وقد تركتهم خوف الملل ، ولي مع فرد منهم مجالسات ومحاظبات ومحاورات وغير ذلك كثروا لي اجازات اطالوا فيها الا القليل فاللفظ والكل شافعیون الا نصصت عليه .

ولقيت الشيخ الامام الانام ، خاتمة علماء الاسلام الولي ، بل القطب بلا نزاع ولا خصم ، شيعي واستاذي وبركتي الغوث الفرد الجامع الرباني مفتى المسلمين ، مفید الطالبين مربى السالكين : أبو عبد الله شمس العارفين محمد بن أبي الحسن البكري الصديفي سبط آل الحسن - نفعي الله وال المسلمين برకته وأعاد علي وعليهم من سره ومده ، فلقد لازمته مدة طویلة سكنت عنده بداره المعروفة به بباب الشعرية بمصر ثلاثة أعوام فكانت أنسخ له شرح العباب تأليف والده - رحمة الله - و كانت كثیر التردد الى مجالسه بالجامع الازهر وغيره .

شاهدت من أحواله مالا يمكن التعبير عنه ، أشهد بالله لقد امتحنته في اهلاك رجل بذى اللسان وقع في حق والده فما كان الاصليل ومات غريقا . أشهد بالله لقد سأله مسائل أشكل على أمرها وسألته أن يسمح لي في السؤال عنها فقال لي : سل ماشئت فهو مغفور لك وسامح فيه ، فقلت له : تخير الناس في أي معلوماتكم أكثر ؟ فقال لي بما نصه : الحمد لله الخيرة في هي عين الكمال ، أما علم التصوف فهذا أمر مقطوع لنا به فلا يحتاج أن نقيم لك الدليل عليه ، وأما علم التفسير فقد حضر مجلسى فلان من علماء العجم و كنت في آية كذا فأخذ معي في البحث في تفسيره الى أن قمنا على غير طائل ، ثم قلت له : ومن الغد أيضا ، فيبينا نحن في أثناء البحث من اليوم الثالث اذ حسر عن راسه وجاءني حاسر الرأس وأقسم لا بد أن تمدد رجليك فاصر يقبل بطن هذه مرة والآخرى مرة أخرى في ذلك الملا قال لي : الله اعلم من كان يتعب في المطالعة ، معناه اني ما راجعت ولا طالعت في كتب التفسير ، وأما الفقه ، فهل حضرت مجلس قراءتي ؟ قلت ، نعم ، في كتاب البهجة ، في باب التيمم ، قال : كيف سمعتني أقرر الفقه ؟ قلت ، سمعتكم تقولون هذا من تقريري ، وهذه المسألة لي ولم أر من سبقني لكل ذلك ، فقال لي : يكفيك هذا حيث كنت أقول ذلك على رؤوس الاشهاد وبضمرة العلامة في الجامع الازهر ، فرأيته - رضي الله عنه - وكان حالي تقول : أنا كامل في كل العلوم وهو كذلك ، ثم قلت له : حب الناس فيكم حملهم أن قالوا لي : ان النبي - ﷺ - قال لكم : لك البشرى أو مرجحا بك ، وسيدي أمد البدوى قال لكم : لك الشري أو مرجحا بك ، فإن كان ماتكلم به الناس حق فمرادي أن اسمعه منكم وأروي عنكم وإن كان من شدة محبتهم تكلموا بذلك فمرادي أن أعلم حقيقة الحال ، فقال : أسمع ما أقول لك وأخذ يستشهد بأمور هي خرق عوائد ، ويقيم البرهان حتى كان ذلك مشاهد عيان

ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئاً مما قال لي . والحاصل قال لي : نعم كان ذلك ، وها أنا ذكرت ذلك في قصيدين سردهما علي ، ذكر لي الواحد مقالة النبي - ﷺ له : مرحبا بك أولك البشري ، وفي الآخرى مقالة سيدي أحمد البدوي : مرحبا بك أو لك البشري ، وها مشوّتان في ديوانه الذي أنشأه وأبدع ما شاء فراجعه (وقع الشك عندي أي لفظة النبي - ﷺ) - كانت مرحبا بك أولك إل بشري ، والذي ترجع عندي هي لك البشري ، بل هو كذلك ، فاعلم) فقلت له : هل ورد على قلبكم بكلمة بذلك أو كان ذلك من صريح الكلام وصميمه .

بحيث لأشبه ؟ قال : نعم ، كان ذلك من صريح الكلام ، وصوت النبي - ﷺ - بذلك وكذلك سيدي أحمد البدوي - رضي الله عنه - وحضرت معه دون الثنائي وتسعمائة زيارة سيدي أحمد البدوي - رضي الله عنه - وبعد انفاصله عن مقامه قال من على رؤوس الاشهاد سمعت منه دعوة والله ما سمعتها من غيره قط ، قال له بعض من حضر ما هي ؟ قال : قال لي : حفظك الله للإسلام ، وحضرت معه أيضاً في التاريخ . وقد توجه إلى زيارة خليل الرحمن - على نبينا وعلىه وعلى سائر أنبياء الله . أفضل الصلاة والسلام - وبيت المقدس - شرف الله تعالى - زيارة الله موسى - عليه السلام ، وما هنالك من أماكن يتبرك بها بجوار المسجد الأقصى وقد شاهدت من أحواله ما أدهش عقلي وحير لبي فلا تسأل عن قبائل انقاده إليه تبلغه من درك إلى آخر ، وعلماء مثلت بين يديه ، وامراء أكبث على قدميه تقبلها وقد امتدحته الشعراء وأطنبوا في مدحه وأرجعوا تلك الزيارة فكان تاريخها رحلة قطب الانام مقبولة ، ثم لما انفصل عن مقام الخليل - عليه السلام - سأله هل سمعتم من الخليل - عليه السلام - في هذه الزيارة ماترويه عنكم قال : نعم ، عاهدت الله تعالى أن لا أصدر عن الحضرة الابراهيمية الخليلية حتى اسمع منه شيء ، قال سمعت الخليل عليه السلام من القبر الشريف يقول لي : أنت من معك في ضيافتنا ، انتهت .

ومدينة الخليل - عليه السلام - هي بلدتي محل أني ومسقط رأسي ، وليت اماماة الشافعية بذلك المكان المشرف موافقة لغرض والدي ثم تفرغت عنها باختياري وأعدتها له - رحمه الله - أقام والدي بها اماماً مدة تزيد على سبعين عاماً ولبيها والدي محمد استقلالاً عن والده يوسف ، وكان يوسف جدي نائباً فيها مدة حياته أو أنه

استقبل بها أثناء مدته ووالد جدي هذا هو الامام العلامة الاوحد المفید الرحالة الشیخ علاء الدین علی بن قاسم الاردبیلی البطایحی الخلیلی المقری مفتی المسلمين، توفي في شهر ربیع الاول سنة ست وثمانیة، وله ضریح مشهور داخل القلعة هناك - رحمه الله - والامامة بذلك المقام هي الان بيد أخي شقيقی أبوالسعادات بن محمد والتأذین بيد ولده أحمد.

ورجعنا

وکرامات الشیخ الاستاذ البکری أجل من أن تخسر فلو تصدی أحد لذكر بعضها وان أطہب واسهہب وأطال ومد الباع وقال فقد قصر ولو خوف الاطالة والسامة والمللة لذکرت لك نبدة أخرى من مناقبه وفيما ذکرت مقتنع، فإن الذکي يفهم بالمثال الواحد، مالا يفهمه البليد بالف شاهد، توفي رحمه الله ورضي عنه - بعد التسعين وتسعين - ، ودفن بجوار الامام الشافعی بالقرافة الكبرى بمصر.

ولقيت بمکة شرفها الله، الشیخ الامام العلامة عبد العزیز الرامزمی وحضرت مجلسه، والشیخ الامام محمد بن فهد، والشیخ الامام قطب الدین العجمی المؤرخ الحنفی ، والشیخ جار الله بن أمین الحنفی أيضاً، والشیخ عبد القادر الفاكھی والشیخ الامام العلامة مفتی مکة - شرفها الله - أبو عبد محمد الخفاھی ، وقرأت عليه وأجازني وكتب لي اجازة بخطه عام أربعة وسبعين وتسعين ، ولقيت بها اخرين - رضي الله عنهم وعننا بهم أمین . ولقيت بمدينة صفد من أرض الشام عام سبعة وسبعين وتسعين الامام یحيی بن حامد وحضرت مجلسه في الحديث وأجازني باللفظ من جملة من حضر هناك لك.

ولقيت بدمشق الشام الشیخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد الحجازی والشیخ شهاب الدین أحمد بن یونس العثماوی والشیخ محمد البهنسی الحنفی والشیخ بدر الدین بن رضی الدین الغزی وقرأت عليه مواضع من الجامع الصحيح بعد أن اسمعني من لفظع الحديث المسلسل بالاولیة .

وهو «الراحیون یرحّمهم الرحمن - تبارك وتعالى - ارحموا من في الأرض یرحّمكم من في السماء». ثم ناولني الجامع الصحيح وأجازني بما قرأته عليه منه وبياقیه وبما له من منظوم ومنشور ومقروء ومسموی وجاز واستیجاز الى غير ذلك ، وكتب اجازة أطہب

فيها وكتب ما نصه أو معناه : أنا ملحق الاحفاد وبالاجداد، ومؤلفاتي تناهز المائة، منها تفسيري الذي لم اسبق إليه نظمته في مائة الف بيت وأحد وعشرون الف بيت، ومنها شرح الشيخ جلال الدين المحلي على المناهج الموسوم احداها المحلي لمشكلات المحلي والآخر بجيد المحلي ومنها... . وذكر عدّة من مؤلفاته، قال : من نظمي مضمون الحديث الشريف :

عن النبي أتانا من رأى امرأة أحل في قلبه للحسن موقعها
فليلات زوجته وليقض حاجته فإنما معها مثل الذي معها

وأثبت من نظمه في إجازته التي كتبها لي شيئاً كثيراً، توفي رحمة الله فيها بين الشهرين إلى التسعين وتسعين وتسعمائة دمشق رحمة الله تعالى . ولقيت من العلماء بحمص، وحماء، وحلب، وانطاكيه، وقسطنطينية ما لا قرابة له ولا حصر، وقد استخرت الله - سبحانه وتعالى - ، وأجزت من ذكر فيه بالجامعين الصحيحين وبجميع مالي من منظوم ومنتورون مقروء ومسنون وجاز واستيجاز وغير ذلك حسباً أجازني من أجازني لي من ذكر . سهل والدي - رحمة الله - عن سبب تسميتي امام الدين قال : رجاء أن يكون امام مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام - وقد حقق الله رجاءه كما ذكرت ، وهذا الاسم انفرد به في بلدي بن جلت الأقاليم فيها رأيت ولا سمعت من تسمى به غير رجل بأرض صعيد مصر في الصدر الأول وسفي من الخامسة والثلاثين إلى الشهانية والثلاثين وفي هذا القدر كفاية ، وفي الليلة المسفرة عن خامس محرم فاتح عام تسعة وتسعين وتسعمائة .

وكتب بمتنزي «بأسبيست»⁽²⁷⁾ من حاضرة مراكش - كلأها الله - و... .⁽²⁸⁾ ، افتر... .⁽²⁹⁾ أمام الدين بن محمد بن يوسف بن علاء الدين بن قاسم البطايجي الخليلي... .⁽³⁰⁾ الخزرجي نسباً ، غفر الله لي ولوالدي ولين دعا لها وللمسلمين ، وعلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

هواش

- (*) نشر تحقيق هذه النصوص بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 - 43 ، 1987
- (1) محظوظ خاص بالرباط.
- (2) يباض بالأصل وما بين المعقودين إضافة من إجازاته الأخرى.
- (3) يباض بالأصل والاصفه من إجازاته الأخرى.
- (4) يباض بالأصل.
- (5) يباض بالأصل.
- (6) كلمة غير مقرودة.
- (7) يباض بالأصل.
- (8) كتب بالأصل هكذا . (ولو أنه صدرا)، ولم يهتد إلى قراءتها.
- (9) كلمة لم يهتد إلى قراءتها.
- (10) يباض بالأصل.
- (11) بالأصل . (أي عبد الله)، وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه ، انظر فهرس ابن القاضي ، رائد الفلاح
- (12) كلمة لم يهتد إلى قراءتها.
- (13) كلمة لم يهتد إلى قراءتها
- (14) يباض بالأصل.
- (15) يباض بالأصل ، والأكثار من درة الرجال ، 1 : 5.
- (16) يباض بالأصل ، والأكثار من المصدر السابق ، نفس الصفحة.
- (17) انظر نص الاجازة أيضا عند احمد بن القاضي ، النتي المصور ، 2 - 800 - 801
- (18) انظر ترجمته عند ابن القاضي درة ، 3 - 116 رقم 1054
- (19) كلمة لم يهتد إلى قراءتها.
- (20) كتب مباشرة بعد كلمة (أهلها) كلمة (في يوم).
- (21) كلمة غير مقرودة.
- (22) التدبيج من مصطلحات المحدثين ، وهو أن يروي قرین كأن يروي صحابي عن صحابي ، أو تابعي عن تابعي ، أو أي راو عن آخر يساويه تنا وستدا توسيع المتأخرون فجعلوا كل رواية بين الأقران في أي علم كان تدبيجا.
- انظر محمد حجي ، الحركة الفكرية ، 2 - 110 .
- (23) كلمة غير مقرودة.
- (24) القيل : في القاموس والناتج . كأمين ، الغريب والذي يقىم في القوم وليس منهم ، والكلمة في المخطوطه مشكولة تكسر المون متبددة الناف . ولعلم المجير اراد بها صيغة البالغة لتكون من باب (السكت)
- والسكن).
- (25) بالأصل هناك (وأو) معاشرة بعد كلمة (لاسيما) ولا معنى لها هنا
- (26) هي من أحياء مراكش والناس ينطقونه «اربنط».
- (27) يباض بالأصل
- (28) يباض بالأصل
- (29) يباض بالأصل
- (30) يباض بالأصل

وثائق عن أسرى مغاربة (*) بمالطا وأسبانيا

موضوع الوثقتين الأولى والثانية :

تعلقان بأسرى مغاربة (امرأة وزوجها وخادمة لهم) بمالطا يستغيثون فيها بالسلطان العلوي المولى سليمان (1792 - 1822)، بواسطة رسالتين يؤكدون فيها اتهامهم للشراط الإدارسة بفالنس، ويشيرون في نفس الوقت إلى ما يعانونه من التعذيب من طرف فرسان القديس يوحنا بمالطا.

أما لغة الوثقتين فهي غالباً عامية مغربية مازالت معظم الفاظها مستعملة إلى يومنا هذا.

موضوع الوثيقة الثانية :

تعلق بمغربي تنصر في مدينة اليكانت الإسبانية، وقد بعث إلى الملك الإسباني كارلس الرابع يشكوا إليه حاله، ويعبر في نفس الوقت عن رغبته في الالتحاق بالاسكريوال قصد تعلم اللغة اللاتينية والدين المسيحي.

الوثيقة الأولى

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

إلى من يداء الله بالرضى والرضوان وختم علينا وعليه بالسعادة والغفران.

إلى من هو في الدنيا سعيد وفي الآخرة إن شاء الله شهيد.

إلى أمير المؤمنين مولى اسلیمان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاکره أمنی.

السلام عليك ورحمة الله وبركاته من المسلم عليك لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحيم الشريفي . . . كثير السلام والمر الذي نعلمك به اخیر إن شاء الله يا سلطان الرحم الله ينصرك ويطول عمرك . واليوم إلى تصال راه الروم إلى مالكني اضربي واعطاني العصا اعلى جوف ورميتك اولد ميت مول خمسة أشهر ونصف ، ميت رحمة الله عليه ، واليوم ياسيد راه الروم إلى أنا عند ابعث الطبيب والقابل له وشهاد اشهدت الزور وقالو هذك ما هشن حبل باش اخذها . . . لو . . . من عند سيدها واليوم امنين اسمع الخبر السلطان ابها الشيء كله سيفط ربيعة اطب وقابلة اخرى وصاب الشرفية حبل ومات الجنين في كرشها وجات القابل وقبلتها من اخر وصاب اولد مولى خمسة أشهر ونصف ميت والقابل صابت الولد ميت في كرشها مالي سبعة ايام ميت في كرشها ، جسم كله بيدين برجلية براص بعينه كله ، راد الاسم امتع القابل (مرايا مرت الاورينس بركلنط) اسم القابل بأنه هي الى شافت الولد مولى خمسة أشهر ونصف .

وال يوم يا سلطان ، الله ينصرك ، كيف اسمع السلطان امتع مالط بهذا الشيء كله خرجها من عند والدها الى دار (نباف) صاحب سيد محمد الله يرحم وراه نحمد الله ونشكر ما يخصها الا النظر في وجهكم العزيز علينا والسلام .

الوثيقة الثانية

الحمد لله وحده

وصل الله الله على سيدنا ومولانا محمد

الحمد لله مسبب الاسباب ، ومعتق الرقاب ، وخلق آدم وحو من التراب ، وجعل العلم يحيط بالصواب ، والقرطاس رسالة بين الاحباب ، اعن بذلك من يوقف عليه كتبنا ويتصل بيده صوبينا ، الى سيد مولى اسلیمان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاکره أمنی .

السيد لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحمن كثير السلم وكل مسلم ألف سلم وسلم اعلى سيد مولى اسليمان من عند زوجها مولى احمد ابن الحاج اعلى السبيع كثير السلم وكل سلم - يتبعه ألف سلم - واليوم يا سلطان الرحم الله ينصرك ويزيد في ايامك انها من الى جابون الى مالطا وعملون في الكرنتين⁽¹⁾ ابقيت فيها اربعين يوم بعد ذلك كيف كملت الربيعين يوم الداوني الى عند السلطان امتناع مالطا وقال لي انت امين يا وليه؟ وقلت له : يا سلطان أنا من الغرب . بنت من انتي؟ وقلت له : انا بنت السلطان مولى ادريس ماننكرشي اصلي وقربيت مولى محمد، وقلت لو يا سلطان انا ماننكر اصلي انا بنت السلطان مولى ادريس واليوم انا من إن جيت فيدك ما جيتش بغرض اعمل كيف ما تحب فيا جيت بالسيف اعليا وبعد ذلك قلت لو يا سلطان انا جابني الله في يدك تبق انت تحكم عليا خير من غيرك ، وبعد ذلك قال لي السلطان : انت يا بنت انا مانقدرش نحكم فيك يحكم فيك الى جابك ايسير امتناع اما البيع اما... وبعد ذلك كلام المركانت⁽²⁾ الي جابني وقال له هذا الشريـد تـيقـع عـند لـاتـبـاع ولا تـشـرـحـتـ يـظـهـرـ اـنـاسـ لـاهـيـاـ لـازـوـجـهـ ، اـجـلـهـمـ فيـ دـارـ وـحدـ وبعد ذلك يـاسـيدـ اـعـطـانـ الشـهـرـ جـوزـتـ اـمـلـيـعـ والـيـومـ يـاسـيدـ اللهـ... عمرـكـ وـيزـيدـ فيـ ايـامـكـ وـقـالـ ليـ الروـمـ الـىـ اـنـاـ عـنـدـ اـنـتـ تـكـتـبـيـ الـورـقـ؟ـ وـقـالـتـ لوـ اـنـاـ عـنـدـ دـارـ سـيـديـ مـوـلـيـ سـلـيـمانـ اللهـ يـنـصـرـ وـيـطـولـ عـمـرـكـ وـيزـيدـ فيـ ايـامـكـ رـاهـ كـلـ ماـ جـربـيـاـ انـعـودـ لـكـ فيـ الـورـقـ والـيـومـ الـروـمـ الـىـ اـنـاـ عـنـدـ يـقـعـدـ اـعـلـىـ الـكـرـسـ وـايـخـطـ الدـوـيـاـ فيـ حـجـرـ اـمـتـاعـ...ـ وـيـشـرـبـ الدـخـانـ فيـ حـجـرـ وـالـدـخـانـ طـالـعـ معـ حـجـرـ وـجـهـ ، وـقـلـتـ لوـ عـدـوـ اللهـ اـعـلاـشـ تـشـرـبـ الدـخـانـ فيـ حـجـرـ وـقـالـ : اـنـتـ اـمـتـاعـ نـعـمـلـ فـيـكـ كـيـفـ ماـ نـحـبـ وـقـامـ الـىـ زـوـجـهـ وـعـمـلـ فيـ الـحـدـيدـ وـدارـ فيـ الـجـبـسـ وبعدـ ذلكـ جـاـ المـرـكـتـيـاـ باـشـ يـشـرـوـهـاـ اـعـطـرـ فـيـهـاـ حـمـسـنـ الـفـ اـرـيـالـ مـالـطـ هـيـ زـوـجـهـ وـخـادـمـهـ هـمـ فيـ ثـلـثـةـ .ـ والـيـومـ قـامـتـ السـيـدـ فـاطـنـةـ قـالـتـ للـمـرـكـاتـيـيـ وـقـالـتـ هـمـ اـنـتمـ اـتـحـبـ تـشـرـونـيـ رـاهـ الـىـ يـشـرـنـيـ .ـ مـتـلـفـينـ اـعـلـهـ اـنـاـ مـنـيـشـ خـادـمـ اـمـتـاعـ الـفـلوـسـ .ـ اـنـاـ اللهـ يـنـصـرـ دـارـ النـبـيـ اللهـ يـنـصـرـ سـيـدـ مـوـلـيـ اـسـلـيـمانـ وـيـجـعـلـ الـبـرـكـ فيـ ذـرـتـهـ وـبـعـدـ ذلكـ الـكـافـرـ جـبـلـهـ خـبـزـ الشـعـيرـ وـقـالـتـ لـوـ اـنـاـ مـنـكـ خـبـزـ الشـعـيرـ يـاـ عـدـوـ اللهـ ،ـ وـبـعـدـ ذلكـ قـامـ الـكـافـرـ وـغـلـقـ عـلـيـهـ الـبـيـاـ كـلـهـ وـلـاـ خـلـاـهـ شـيـ منـ الضـوـاـ وـحـدـهـ وـلـاـ منـ يـدـخـلـ .ـ وـبـعـدـ ذلكـ سـمـعـ الـحـرـانـ العـيـطـانـ اـمـتـاعـ وـيـعـلـ اـجـاوـشـدـ الـخـادـمـ وـاعـطـهـ الـعـمـرـ وـجـابـ المـصـلـحـ وـطـلـلـهـاـ بـالـنـجـسـ حـاشـ وـبـعـدـ ذلكـ قـالـتـ لـوـ اـخـدـمـ اـنـاـ مـانـدـيـشـ

يا عدو الله النجس لاله ونشد الروم المكنس حاش وجه سيد بالنجس وطلها لي على وجه وقال لي : اعلى تقول انا مانش سيدك ، وقلت لو يا عدو الله انا سيد مولى اسلبيان الغالي الله ينصر وينصر عصاكر يا عدو الله وبعد ذلك اضربني اعلى كرشي بخنز وانا مراة حبيل وبعد ذلك قعدت ثانية وهي بالرجوع وبعد ذلك جاب الطبيب والقابل شفت الشريفة وصابتها حبل والصغريف ميت في جوفها مول سبعة ايام وانها من التسعة ايام ارمي الشرييف اولد مولى خمسة اشهر ونصف ميت واليوم ياسيد مولى اسلبيان الله ينصرك وايطول عمرك باش تكون تعرف واليوم انظر سيد اوسع واليوم ياسيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك انها من الى خلطت الورق سيد الى عند باش ذلك الساعة اسمع السلطان مالطا وجمال اربعة الطب ايديوفيا في دار (بابف) صاحب سيد محمد بن عبد الله يرحم اخديمكم واليوم ياسيد مولى سليمان الله ينصرك وايطول عمرك راه عندهم زوج انصرا . . . واحد منهم يقول له (بابف) اخديم سيد محمد الله يرحم ولاخر يقال له (افرنسيص اشكنبر) فهم الى عملين فيها الخير وسلم واليوم راهم ارسلميون عليك وقال الحمد لله الى دار سيدنا مزال عامر الله ينصرك وايطول عمر اللي انت ابعثت اخديمك ابعث اعلى يد الرا (3) يا سيد الله ينصرك وايطول عمرك راهم سيد الكبار وينصر سيد مولى اسلبيان واليوم امتاع اصيانيه والراس امتاع اصيانيه (4) هو يبعث الى مالطا الى دار (بابف) اخديم سيد محمد (5) الله يرحم ويسلم اعلى سيد مولى سليمان الله ينصر من عند المجاهدين الرئاس والبحرية كلهم واليوم يا سيد مولى اسلبيان الله ينصرك وايطول عمرك احنا ما عندنا حد غير الله وثم انت واحنا نطلب الله فضل وفظلك راه جدك يشفع في الآخر وانت تشفع في الدنيا الله يطول عمركم .

وتاريخ الورق انها في الثمنية ايام في شول . . .

وسلم اعلى سيد من عند الشرفا ومن عند المجاهدين والغرب وسلم اعلى سيد مولى عبد الله يعطيك الله ارضيات مولى عبد الله الشريف ومولى عبد السلام بنمشيش الله يعطيك خاطر الله والنبي والصالحين .

وأما اليوم يا سيد مولى اسلبيان الله ينصرك ويطول عمرك يا عز الغرب ، واليوم هذا الراي اضربني الى انا عند في عمر ستة وربعين سنة واليوم الله ايطول عمر سيدي بولد ثالثة باش ما تقولش هذا صغير آليم اشتكته للحكم امتعهم وقالوا حنا ما نحكمش انت ايسير . . . واليوم يا سيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك ولد ما نخليشش يمشي باطل ولا ليوم ياسيدي راه كيف جاو امتعك وقال لي يابنت لوجه ما تكتبب الشريعة امتعك وانا قلت لهم : انا ما نخليشش ذرة باطل . عند السلطان مولي اسلبيان هو يخذ حق الله يعشه ما يتمنا عند الله والله يرحم ابا سيدي والسلام .

وهذا الروم اسمه قبطان (اشكنبر) ولد (اندزيا) الأعمى .

الوثيقة الثالثة

الحمد لله وحده
وصلن الله على سيدنا عيسى وآل

إلى سيدنا نصره الله الهمام المعظم المحترم سيدنا كارلش الرابع
سلام على مقام سيدنا بالخير ودوام العافية ونعمت من الله شاملة .
وبعد فالذى نعلم به سيدنا نصره الله وملد ملكه انه اشتدى على الحال في أمر
المعيشة وكل شيء غالى وقلت صحتي بان الصدقه الذي جاد سيدنا علي بها وهي
ثانية دراهم نحاسا ورطل ونصف من الخبز في كل يوم فإنها لم تجربني الا مع الخدمة
أنا وزوجي في بلاد ذلك مدينة الاكينط وهذا ما تفضل به سيدنا الكبير رحمة الله تعالى
وقدس روحه في الجنة ونطلب كرامة من سيدنا بجاه خلافته وكمال قال القائل حيث
يقول :

يا ملكا زانة (كذا) لدينا خلافه والجروندال به العز الذي طلب
نودك الشكر (كذا) في الدنيا وأخره وشكرا مثلك في الدررين قد وجب

ونعلم سيدنا باني شريف من قبيلة أهل سرف من مدشر أبي جديال من أولاد الشلي من ذرية مولاي ادريس بفاس وهو حاضرة المغرب واني فقيه وقرأت بلغات العرب وعلمت كثيرا منهم صغيرا وكبيرا ونعرف الذي فرض الله على والذي يلزمني في ديني وهو دين سيدنا عيسى عليه السلام فالحمد لله الذي اهمنا الى الصواب ولم يكون رجائي إلا في سيدنا لاني ما عندي احد الا هو وإذا كانت من سيدنا حسنة تكون في حضرة الاستغrial بمدرسة الرهبان أو في موضع اخر لاني شائف في تعليم اللطين والدين الحقيقي لعل الله يلهمنا الى الصواب وكتب الحروف... .

هوا مش

نشر تحقيق هذه المصووص تحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الرابع ، 1987
(*) ترجد هذه الوثائق بالاشيف التاريخي الوطني بمدريد A.H.N (قسم الدولة) في ملف يحمل تاريخ 1798 ، تحت رقم 3576 . وقد نفضل الدكتور بحبي بوعزير (جامعة وهران بالجزائر) معثثا لنا، بها مشكورا ،قصد نشرها .

(1) الكرانتين . هي مدة الحجر الصحي، من الاسبانية CUARANTENA أي أربعين يوما .
وقد أوضح معناها السفير العربي إلى مدريد ابن عثمان المكتناسي قائلا . «ومعناها (الكرانتين) عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه إليه أحد، وسبب ذلك اهتم يتصرزون أن يدخل الوباء ارضهم وبلادهم لتهفهم أنه في بلادنا اعادنا الله منه . . . فيجعلون تلك الكرنطية احتياطا وقطعا للشك بحيث إذا كان في الراود عليهم شيء من ذلك يظهر عليه فإن أحبر بأنه لا يأس به يدخل المدينة ويلاقى مع الناس وإلا فلا . . . »

انظر : الاكسير في فكاك الاسير، ص 9

(2) المركات، من الاسبانية Mercante اي الناجر

(3) الرا : من الاسبانية EL REY اي الملك

(4) الرئيس امتع اصيانية : قائد البحرية الاسبانية

(5) تقصد السلطان العلوي سيدى محمد بن عبد الله

تم الطبع بطلب
أفريقا الشرقية
مکرر، شارع يعقوب المنصور، الهاتف: 25.95.04 - 25.98.13 - الدار البيضاء،
159

فريقيا الشرق

159 مكر، شارع بقير المنصور

الدار البيضاء

25.95.04

25.98.13